د. رفعت السعيد

الأعمال الأدبية

- السكن فى الأدوار العليا
- البصقة
- رمال

مع حكايات الحكايات

اسم الكتاب: الأعمال الأدبية
تأليف: رفعت السعيد
الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠١٥
الناشر: شركة الأمل للطباعة والنشر

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للناشر.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الأقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الناشر.

السعيد. رفعت
الأعمال الأدبية/ رفعت السعيد
تأليف: رفعت السعيد
القاهرة: رفعت السعيد، ٢٠١٥
٢٨٨ صفحة ١٤ × ٢٠
تدمك: 978-977-90-3409-6
١- الأدب العربى - مجموعات
أ- الأعمال الأدبية ٨١٠,٨

رقم الإيداع: ١٦٨٤٦/ ٢٠١٥
I.S.B.N 978-977-90-3409-6

الإهـــداء

إلى ليلى
وأنت صاحبة الإصرار على إعادة طبع
هذه الكتابات
فكنت بهذا نقطة البداية، لكنك
برحيلك وضعت - دون قصد - نقطة
النهاية

إيضاح

فى التقسيمات الكلاسيكية أسموا
الكتابات التالية روايات
لكننى أعتبرها فى حقيقة الأمر مجرد حكايات

السكن فى الأدوار العليا

٤ حكايات عن الرواية

حكاية رقم ١

إذا كان البعض قد فوجئ بصدور هذه الرواية، فقد كنت أنا أولهم. فلم يخطر ببالى أبداً أن أفعلها. فقد تصورت أنه يكفينى تماما أننى عانيت نوعين من الكتابة، كتابة التاريخ، وهى تعتمد على ملاحقة الحقيقة قطعة قطعة حتى إذا اكتفيت وضعتها أمام عقلى وبصرى، لأكتب محاولا دون جدوى أن أكون محايدا، فالحياد فى كتابة التاريخ يستحيل سرابا «حتى إذا جئته لم تجده شيئا» وأقصى ما تستطيعه الكتابة التاريخية ألا تكون منحازة، لكن قطع الحقائق التاريخية تفرض على المؤرخ أو كاتب التأريخ حصارا لا فكاك منه إن أراد لكتابته أن تكون علمية وأكاديمية، أما الكتابة السياسية فهى المعاناة الأخرى، وإذا كانت كتابتك فى التاريخ تعتصر كل ما لديك من معلومات وتفرض عليك أن تضعها فى اصطفاف مقروء ومقبول، فإن الكتابة فى السياسة

تحرمك من نصف الحقيقة، فكثير مما تعرف غير قابل للنشر وعدم السماح بالنشر بالنسبة لى لا يعنى الخوف (وإن كان يعنى ذلك بالنسبة للبعض)، وإنما يأتى من مصالح وطنية أو حزبية أو ما يمكن تسميته «الحياء السياسى» فثمة أشخاص لا تريد أن تتحدث عنهم حديثا قد يقلق تحالفات حزبية أو حتى علاقات شخصية. وبين هذه المعاناة أو تلك مضيت حتى كانت هذه الحكاية.

ففى يناير ١٩٧٧ وقبل وخلال وبعد أحداثها العاصفة والتى أسميناها الانتفاضة الشعبية وأسماها السادات انتفاضة الحرامية، وبعد مسلسل أحداث سجلت بعضا منها فى كتابى «مجرد ذكريات» ساقونى إلى سجن القلعة فى حفل يوحى بالأهمية، وازدادت الأهمية عندما عاندت ضابطا شابا معجبا بنفسه وبموقعه وبالسلسلة الذهبية التى تعانق صدره المفتوح فى زهو ليطل منه شعر كثيف رغم أننا فى ليل ينايرى بارد، باختصار طلب أن أرفع النظارة لأن جنديًا خلفى يمسك فوطة صفراء يريد أن يلفها فوق عينى حتى لا أرى الطريق ورفضت. صرخ فصرخت، هددنى فأبديت عدم الاكتراث وقلت عندك مسئولين أكبر منك صعودا حتى الوزير قل لواحد منهم أننى أرفض. واتصل تليفونيا ووضع السماعة مكفهرا ثم اقتادنى إلى زنزانة رقم ٢ ودفعنى ودفع خلفى بطانية إلى أرض الزنزانة فأفرزت غبارا يكفى لتغطية مناخ مدينة بأسرها، على أية حال تصحح الوضع وأتى كبير منهم وأمر بسرير ومستلزمات أخرى وبقيت مشكلة اللمبة الكبيرة جدا الموجودة أعلى الحائط المواجه للسرير شكوت

منها كى أنام فقالوا أوامر وأغلقت الزنزانة وبعد محاولة أو اثنتين أطاحت فردة الحذاء باللمبة ونمت هانئا بعد أن قرأت حفرا على الحائط «كل هم يزول» والتوقيع لشكرى مصطفى.

الباب مغلق إغلاقا تبدّى أنه أبدى.. الصمت يلف السجن إلا من نداءات بين الضباط والعساكر، وفى العصر فتحت الزنزانة وقال الشاويش «النيابة» حاولت تبديل ملابسى فقال الشاويش «النيابة» هنا، وأمام النيابة كانت مشاكسة ممتعة مع المستشار عدلى حسين حول مدى قانونية التحقيق داخل السجن.. وانتهت المشاكسة بتحقيق ألمح فيه المحقق بأن التهمة خطيرة، بل شديدة الخطورة وذلك فيما كنا نشرب قهوة من بن حضرة المأمور الذى أدهشته مودة الحوار وشراسة الاتهامات.

باب الزنزانة مغلق أبدا. فقط خمس دقائق لدورة المياه يمضى بك الشاويش مسرعا عبر طرقة خالية وأبواب على الصفين مغلقة، تأملت الجدران ألف ألف مرة، ذهابا وعودة مشيت ومشيت ومشيت سبعة أمتار فى ٣ متر يلتهم منها السرير متران فى متر والباقى لك تتمشى فيه مقيد الخطى ولا شىء آخر. طلبت المأمور، تحاورنا تجادلنا ارتفع صوتانا ثم انخفضا. الصحف ممنوعة، الكتب ممنوعة، حتى القرآن ممنوع، الورق ممنوع والقلم طبعا، ولا يبقى فى الزنزانة سوى فيل ضخم يأبى أن يتحرك اسمه الزمن، وإن تحرك وأتى الليل اللمبة تضىء بصورة خانقة وحين أقرر النوم الحذاء موجود. المثير للدهشة أن أحداً لا يعاتبنى لإطفاء اللمبة بهذه الوحشية. الجلوس على السرير الصغير

ممل والمشى أكثر مللا. وأقمت صداقة مع النمل، فتات صغير جدا من لباب الخبز يستدرجه وأتابعه وأكاد أتعرف على أفراده. كنت مستلقيا على السرير وفجأة قررت أن أهزم السجن والسجان. اكتشفت بالمصادفة أننى وحدى فى كل السجن. وأن عشرات الحراس وأطقم الضباط من أمن الدولة وحراسات السجن كلهم يحرسوننى، قال لى أحد الحراس مطلوب منا أن نراقب متى سيبدو عليك الملل والضعف. فكنت وبعد مناكفات عدة أخرج لربع ساعة فى الصباح الباكر وبدلا من أمشى كنت أجرى وبأقصى سرعة ولم يشعر حضرة الضابط بالارتياح.. كان يسمى نفسه العقيد مجدى. وأبلغنى أحد الحرس اسمه الحقيقى. صعق يوم الإفراج عنى عندما عرف أننى عرفت اسمه الحقيقى. المهم.. فيما كنت ممددا على السرير أتأمل النقوش على الحوائط، السجناء كل منهم ترك نقوشا.. إنهم أحفاد الفراعنة يسجلون وجودهم نقشا. الملعقة هى الأداة الوحيدة المسموح بها ولا يمكن منعها. وبها نقش الجميع ما يثبت مرورهم. شكرى مصطفى «كل هم يزول»، صالح سرية «هذه وصيتى أرجو من يراها أن يبلغها لأهلى - عمال السكة الحديد رمز النضال العمالى والإضراب حق مشروع»، أحمد فؤاد نجم «ولا يهمك». شهرت العالم «إذا كنت أنا قد احتملت فلا بد أنك ستحتمل».. فجأة مرق سهم مضىء ماذا أكتب أنا؟ وأجاب فى ذات اللحظة عبارة واحدة لا تكفى.. وتجول السهم المضىء لينسج قرارا.. لماذا لا أكتب شيئا؟ وقررت أن أكتب رواية أو بالدقة حكاية. أين؟ وكيف؟ وكان الرد جنونيا أسجلها

شفويا.. أختزن الوقائع والحكايات وأصوغها وأعيد صياغتها وأرتبها وأعيد ترتيبها. كل صباح أسرع للحمام وأفطر مسرعا، ومتعجلا أبدأ فى هزيمة الفيل الضخم، لكن الأمر تحول إلى حالة تشبه الإدمان، أن أكمل الرواية، أتقنها، أعيد صياغتها حرفا حرفا.. مرات عديدة، الساعات لم تعد تكفى، وإعادة الصياغة أرهقتنى، وأخيراً اكتملت الرواية وراجعتها فى ذاكرتى عشرات المرات فصلا فصلا وسطرا سطرا فى كل يوم أراجعها وأعدلها، ثم كان قرار الإفراج. إلى البيت عدت وبعد السلامات والتحيات وقبلات الأم والزوجة والأولاد والأخوات، بدأ هذا المولود الكامن فى عمق الذاكرة يتمرد. هل تملك سيدة أن تقهر ساعة الولادة وتؤجلها ليوم أو لساعات؟ أنا لم أستطع المقاومة. وجلست. شربت كوبا كبيرا من القهوة أغلقت باب غرفة المكتب وأطلقت كلمات الذاكرة، كما كانت صياغتها الأخيرة، وفى ست ساعات كانت الرواية مخطوطا مكتملا.

تأملتها. قررت أن أمزقها، ما لى أنا وكتابة الرواية؟ هل أستثير ضحك الناس علىَّ بهذه الكتابة؟ لكننى خشيت إن أنا مزقتها أن تعاودنى حالة الولادة من جديد. المهم كان يزورنى صديق عزيز هو المرحوم عبد الله حورانى عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (مسئول الثقافة)، فى مظروف مغلق كانت الرواية وسلمتها له راجيا وملحا ألا يفتحها حتى أطلب منه ذلك، وسافر الرجل إلى بيروت حيث يقيم. أسبوعان فقط وصلنى مظروف مع قادم من بيروت وكانت الرواية مطبوعة.

فرحت ولا أنكر ذلك، وعندما عاتبته ضحك وقال: وأنا فى الطائرة تأملت المظروف وسألت هل هذه كلها وصية؟ أم ماذا؟ وفتحت المظروف وقرأتها وأعجبتنى وسلمت المخطوط للمبدعة غادة السمان. وهى وزوجها بشير الداعوق صديقان عزيزان لى ولعبد الله حورانى. قالت غادة تنشر فورا.

حكاية رقم ٢

كنا فى زمن السادات الشديد التوتر بعد الانتفاضة التى أسماها انتفاضة «الحرامية»، وكان التصور السائد عند الرئيس أننى من دبر مظاهرات ١٩٧٧ أو هكذا أراد أن يجرى تصوير الأمر.. ووصل الأمر أن جريدة الجمهورية صدرت بمانشيت أحمر رئيسى «اكتشاف مدبر انتفاضة الحرامية، القبض على رفعت السعيد». حدث ذلك وأنا حر طليق ولكن المساء أتى ومعه القبض. ومع كامب ديفيد ومعارضة حزب التجمع منفردا لزيارة القدس ساد تعاطف شديد فى الأوساط العربية المعارضة للزيارة وما تلاها من نتائج مع الوحيدين فى مصر الذين امتلكوا شجاعة المواجهة.. وهم قادة حزب التجمع. ونالنى بعض من تعاطف الكثيرين. وكانت حملة ترويج لرواية: «السكن فى الأدوار العليا» أحد مظاهر هذا التعاطف الذى أقر

وأعترف أنه كان مبالغا فيه لأسباب سياسية، ووصل الأمر أن أصدر رئيس اتحاد الكتاب العرب (يحيى يخلف) كتابا بضعف حجم الرواية يناقشها ويحللها وبالدقة يأخذها مأخذ الجد، ويعاملها على أنها عمل فنى يقول إنه ممتاز ويحلل شخوصه بما لم يخطر على بالى، أنا كنت بسيطا أردت أن أهزم الوقت فى زنزانة مغلقة وكنت مثقلا بهموم الحبس الانفرادى الذى عانيت منه فترة طويلة، وهزمت السجن والسجان وفقط. ولأن الأمر كان بدائيا وأنا لا أعرف فن الرواية ولا كيف تكتب، ولا حتى لماذا تكتب؟ استعدت فى ذاكرتى مجرد استعادة شخوصا عانيت بينها ومعها زمن هروب صعب فى بيت معلق فى انحنائه من شارع الرويعى.. حكيت الحكاية، منحتها بعض التوابل والإضافات التى ربما أتت بدائية وفقط. لكن النقاد العرب، والكثيرون الذين صاغوا تعاطفهم معى فى صورة كتابات نقدية حللوا الشخصيات بما لم يخطر على بالى فالبيت «مصر» وأم لوزة «المصريون» ومجدى «اليسار» وعشيق أم نادية «الأمن».. وأعتذر إذ أعترف أن ذلك كله لم يخطر ببالى.. وأنى فقط كتبت ما كتبت دون بحث عن رمز أخفى خلفه مشاعرى.

حكاية رقم ٣

وذات يوم بعد فترة من صدور الرواية تلقيت مكالمة من منتج سينمائى (حسين القلا) وزرته فأدهشنى إعجابه بالرواية وطلب حق تحويلها إلى فيلم. وسألنى تطلب كم؟ وأجبت «معرفش»، فحاول تبسيط الأمر وقال اشتريت حق تحويل قصة لنجيب محفوظ لفيلم مقابل ١٥ ألف جنيه (ولا أعرف إذا كان هذا صحيحا أم لا) فقلت وأنا طبعا أقل كثيرا جدا من نجيب محفوظ، فقال إذن أعطيك عشرة آلاف مثل يوسف القعيد فقلت «أوكى». وأدهشنى إذ أخرج العقد مكتوبا والعشرة آلاف جنيه كاش، وإلى موعد فى الغد لأجد المخرج حسين كمال، وقال القلا محسن زايد سيكتب السيناريو، قال حسين كمال إنه معجب بالرواية وبالغ بما أدهشنى قلت عندى شرطٌ وحيد هو ألا تقدم الرواية كفيلم

بورنو، قال حسين كمال، فكيف أصور مثلا جلستك على السرير في مواجهة «أم لوزة» وسيقانكما تتعانق تحت اللحاف أو كيف أصور سائق المخابرات عشيق أم نادية عندما استدرجته لوزة حتى خلع كامل ثيابه ثم ألقت بها بعيدا وصرخت وتجمع الناس وساقوه عاريا للقسم؟ كنت جاهزا فتحت الشنطة وأخرجت لفافة العشرة آلاف ملفوفة كما هي.. وقلت يبقى بلاش. وقدمت الفلوس لصاحبها وضحك حسين كمال، وقال يا راجل أنا بأهزر هناك ألف طريقة لإخراج الأمر دون بورنو.. واتفقنا.

ومضى وقت طويل حتى التقيت مصادفة بحسين القلا وسألته فقال معتذرا أنا كنت ناوى أعمل سلسلة أفلام وعرفت أن صلاح أبو سيف ناوى يتفق مع عدد من الكتاب أنت منهم فتعاقدت معكم حتى لا يسبقني وأنا الآن متردد. وتذكرت أن صلاح أبو سيف كان في اجتماع للفنانين خلال مهرجان نظمه في التجمع عنوانه «مهرجان السينما الممنوعة» وأنه انتحى بي طالبا التعاقد حول الرواية واعتذرت لسبق تعاقدي مع القلا فضحك قائلا هو بيحاصرني.

ومضت سنوات عديدة ورحل صلاح أبو سيف ومحسن زايد ونسيت الأمر تماما حتى كان حفيدي يشاهد فيلما في التليفزيون وفجأة وجدت شيئا أتذكره وذكرني بالرواية المقطع الكامل من الرواية لقصة سائق المخابرات مع لوزة يعاد بذات تفاصيله. تابعت الفيلم عنوانه «فرحان ملازم آدم» وبه لمسات كثيرة جدا من

الرواية.. لكن محسن زايد كان أمينا فلم يورد اسم المؤلف الذى حذر الجميع من «البورنو»، واكتفى بعبارة سيناريو وحوار محسن زايد.

لكننى وبصراحة شديدة لم أزل غير قادر على ابتلاع هذا التعاطف المبالغ فيه مع هذه الكتابة وليدة المصادفة.

حكاية رقم ٤

وبعد سنوات أخرى عديدة عادت دار الأمل لتنشر «السكن فى الأدوار العليا» ومعها رواية أخرى أتت فى ذات السجن وذات الزنزانة هى «البصقة» فى طبعة ثانية، ثم أتى صديقى فخرى كريم صاحب دار المدى ليطلب إعادة النشر.. ولم أزل غير مصدق. وعلى أية حال ربما كان الهدف هو إبراز كيف عالج كاتب التاريخ والسياسة كتابة الرواية.

... وانحنيت مع الطريق الضيق، مشدوداً دون أن ألتفت. لست أجرؤ على الالتفات، الرجل المعقوف الذى يسير بجانبى صارم الوجه، عيناه تدوران كعقارب ساعة مجنونة. لكنه لا يلتفت وبقدرة غريبة ينفلت دون أن يلفت انتباه أحد...

لم أنتظر طويلاً. فى موعده بالضبط أتى، كيف عرفنى؟ لست أدرى، أشار إلىّ بطرف أصبعه وسرت بجواره ممتثلاً.

انحنيت مع الطريق مرة أخرى، انتهز هو الفرصة ليلتفت خلفه، وانتهزت أنا الفرصة لأختلس نظرة لوجهه.

هادئ، صارم، نظارة سميكة مثل كعب كوب شاى رخيص، أنف طائر مهاجم، البراءة تكسو كل الملامح عدا العينين... تدوران بعبقرية غريبة.

حتى الآن لم يفتح فمه! هل أفتح أنا فمى؟... أخيراً تجاسرت وتحركت شفتاى... أهلاً. ونطق هو. أتى الرد كأنه من شخص آخر، وهو على أية حال ليس موجهًا لى... أهلاً. نطقها بلا اكتراث... لست واثقًا أنها خرجت من شفتيه... فقط سمعت أهلاً أخرى غير التى نطقتها لو كنت فى صحراء لاعتقدت أنها صدى كلمتى.

لا داعى للإلحاح... سرت ممتثلاً، ومع المشوار الطويل بدأت أتأمله، البنطلون نظيف لكنه رخيص، واللون أنهكته كثرة الغسيل غير المتقن، بلوفر صوف باهت الألوان ولعل هذا أفضل، فلو بقيت ألوانه على حالها لشاغبت لون البنطلون. الحذاء لامع... لامع، لست أذكر الكاتب الذى قال يوما «حذاؤه لامع جدًا... إلى درجة تجعلك توقن أنه مسحه بنفسه».

النظارة لا تعطيه أى مظهر خاص... ربما لأنها رخيصة... وربما لأنها تتوه بين أنف الطائر، وأذنى الفيل.

وتنحنى الطرق، ويلتفت فى حرص مع كل انحناءة وأنا ممتثل تمامًا، الخطوة سريعة، لو كان بغير نظارة لقلت إنها خطوات عسكرية، والمشوار الطويل بغير نهاية، فجأة بدأت ألاحظ أننا

ندور، نفس المحلات مررنا بها منذ أكثر من نصف ساعة، نفس بركة الماء التى حاولنا تجنبها، نفس علبة الصفيح التى صعد فوقها بخفة ليحافظ على حذائه اللامع... فشلت للمرة الثانية، فى أن أقلده وطبّت قدمى فى الماء واتسخ الحذاء والبنطلون معًا...

لم يلتفت لكن لمحة من عينه اليقظة اتجهت نحوى ثم عادت لتستقر بعيدًا، لعله يقول فى نفسه «الحمار يتعلم من غلطته الأولى» شعرت بالحرج، الحرج أم التعب؟ هو لم يتعب، يسير كما بدأ. نفس النشاط... نفس الحماس اللامبالى.

وتمضى الرحلة، شكرته فى سرى لأنه لم يعد بنا إلى نفس الطريق. ماذا لو فشلت للمرة الثالثة، وسقطت فى الماء؟ ماذا سيقول عنى؟ لكن لماذا لا يعود بى؟ ربما أنجح. حتمًا سأنجح، وسأرد اعتبارى، ساعتها سأفتح فمى وأسب المسئولين عن النظافة. وأتكلم عن الإهمال والفوضى... لكن رجلاً مثله لا يدخلك مرتين فى تجربة واحدة.

وتتراخى الخطوات قليلاً... العينان تستقران. وفجأة يصبح قادرًا على الابتسام ابتسامة قصيرة، مليئة بالملل، لكنها ابتسامة على أية حال.

- أظن كده كفاية؟

إنه يتكلم... ظننت أنه لن ينطق أبدًا، الغريب أنه نطقها بطريقة لا تسمح لك بأى رد... فهى ليست صيغة السؤال. وليست صيغة الأمر... شىء بين الاثنين ولم أنطق أنا. لقد انتقلت العدوى سريعًا.

وفجأة استدار، واستدرت معه. إننا الآن نواجه من كان يسير خلفنا، لا أحد تقريباً يثير أى ارتياب. وانحناءة أخرى ثم خطوات سريعة محسوبة وربما معدودة من قبل، ووجدت نفسى داخل منزل... الباب مفتوح لأنه لا يمكن أن يغلق. إنه مسترخ على الحائط فى إغفاءة قديمة. والظلمة معتمة وبصعوبة تتحسس الأقدام طريقها إلى السلم الخشبى المتهالك.

وبدأ يتكلم... لماذا صمت طوال هذه المدة إذا كان يعرف الكلام وإذا كان لديه ما يقول؟

أنا اسمى حسن. مأجر أودة فوق السطوح. المفروض أنى باشتغل فى بنها موظف، وانت ابن عمى اسمك مدحت، طالب فى كلية الحقوق وبتشتغل موظف بالليل. صاحبة البيت ست طيبة. أنا أجرت الأودة من شهر، وانتظرت حتى أستقر وبعدين أجيبك. كل الجيران عارفين أنك جاى... ومنتظرينك.

الكلمات سريعة... أحاول أن أستوعب الأسماء فهذا هو المهم...

أنا اسمى حسن... وقاطعنى فى ملل من لا يحب الإعادة... وأنت مدحت... المهم حافظ على المكان لأنى رتبته بصعوبة.

ونصعد المشوار الطويل... سلم خشبى مظلم ملىء بالعثرات... إلى أعلى أصعد ببصرى فأكتشف عينين باسمتين تطلان علينا.

أهلاً يا نادية. آدى يا ستى مدحت ابن عمى... بس أوعوا تعطلوه عن المذاكرة.

وسلمت نادية فى استحياء، كفها الصغيرة كانت مسترخية فى كفى عندما استرخت عيناها إلى الأرض فيما يشبه الخجل بينما تدحرجت نظراتى إلى صدرها الصغير المنطلق تحت قميص نوم قديم وممزق.

اليد المعروقة تضع المفتاح فى قفل رخيص وتدخل إلى الغرفة، غرفتى التى ظل الزملاء يعدونها شهراً كاملاً كى أختبئ فيها.

- كل شىء تمام.

قال الرجل وهو يلقى بنفسه فوق سرير صغير مغطى ببطانية متآكلة... قالها فى لهجة تجمع بين الثقة والملل والارتياح... كتب الكلية على الترابيزة. وابور الجاز مليان، وزجاجة الجاز مليانة، بيجامتك وغياراتك فى الصندوق... أعتقد أن المقاس مضبوط.

أى رجل هذا! لم ينس شيئًا... حتى الكراسات والأقلام.

وقبل أن أشكره كان ينفلت من الحجرة، دس فى يدى كبشة من النقود: دى عشرة جنيه فكه، لأن صعب تلاقى فكه فى الحارة، أنا نازل، المفروض أنى لسه ساكن معاك سأمر عليك مساء كل خميس... أى طلبات لك تنتظر ليوم الخميس وإن كان فيه شىء مستعجل ابعث لى عن طريق قدرى.

وذاب من يدى... وتركنى.

الغرفة لا بأس بها، نظيفة، منظمة. سرير. صندوق. ترابيزة صغيرة عليها الكتب والكراريس وصابونة وأيضا فرشاة أسنان ومعجون.

ذلك الماكر لم ينس شيئًا. حتى المقشة الصغيرة (وصفت لى نادية فيما بعد وهى تضحك: ساقاه المعروقتان، عاريتان والبنطلون مشمر حتى الركبة وهو يمسح بلاط الغرفة بنفسه).

هكذا وجدت نفسى فى حياة جديدة تمامًا، كل شىء جديد. الاسم. المسكن الأقارب. المهنة. ووضعت رأسى بين يدى وسرحت مستعيداً التعليمات. وشريط القصة من أولها:

مطلوب القبض عليك. يجب أن تختفى. حسن سيدبر الأمر.

صوت راديو قريب يملأ الغرفة. وأصوات ممثلى المسلسل عالية كأنهم معى. وصوت مبحوح.

- يا بت يا موزه المسلسل خلص اقفلى الراديو يا بت.

وأعود إلى أفكارى مستعيداً تعليمات حسن الصارمة، أزداد إعجابًا به، وقعت عينى وهى تتسكع على بكرة وإبرة. لم ينس شيئًا حتى الجرائد.

وينفتح الباب بطريقة عنيفة لكنها ودية (تعليمات حسن لا تغلق بابك من الداخل إلا عند النوم. الناس هنا شركاء فى كل شىء).

وفى دلال أصيل قالت امرأة ربما فوق الأربعين بقليل...

- مساء الخير يا نور عينى.

فى ارتباك أجبت... جلست دون أن أطلب إليها. خلعت شبشبها وتربعت فوق السرير محدثة اهتزازات عنيفة... قميص النوم البمبى المشغول تترجرج تحته أثداء شرسة، طليقة، مثقلة،

قليل من السمنة يكسو قوامًا كان يوما ما ممشوقًا، الشعر مصبوغ أصفر فاتح لكن شعيرات بيضاء تتألق فيه لتشى بالحقيقة. عينان جميلتان يحيط بهما إفريز سميك من الكحل لا مبرر له سوى الدلالة على هوية المرأة ومزاجها. أنثى حقيقية، تتعامل بخشونة عذبة، أو بالدقة بعذوبة خشنة لكن كل حركة من حركاتها تقطر جنسا. وإن كانت قادرة فى نفس الوقت على إقناعك بأن الأمر عادى تمامًا... وأنها مجرد أخت أو صديقة.

- أهلا وسهلاً يا سى مدحت. سى حسن كلمنا عليك كتير قوى... وسكتت. ربما لأنها لاحظت ارتباكى. ولأن أهلاً وسهلاً التى خرجت من شفتى كانت متعثرة ومثيرة للشفقة. لكن امرأة مثلها تعرف كيف تغير دفة الحديث...

- يا حبة عينى دا أنت لسه صغير على الغربة. سايب أهلك فى طنطا وجاى لوحدك علشان العلام... الله يلعن أبو العلام لأبو أصحابه.

ورنت فى الغرفة ضحكتها المميزة وهى ضحكة من نوع خاص تمامًا تجمع بين الخشونة والأنوثة فى مزيج غريب ربما يجعلها أكثر إثارة وأكثر إيماء إلى الجنس.

- أنت ساكت ليه. مكسوف يا روحى. دا أنا زى أختك، ثم تلعثمت، أو زى أمك... أى حاجة المهم أهلاً وسهلاً وأى خدمة. شرفت ونورت. ثم استدركت: أنا صاحبة البيت اسمى أم لوزة.

وفتح الله على وتكلمت.

- لوزة والا موزة.

ومرة أخرى استضاءت الغرفة برنين الضحكة المثيرة...

- لوزة، موزة، أزأوزة. كله واحد. حتة بنت اللى خرجت بيها من ظهر الدنيا. مغلبانى طالعة زيى هابله وطيبة. وغمزت بعينها التى يخفى الكحل السميك ما بقى فيها من لمحات جمال عريق... حتعجبك أوى، أصلها هادية زيك كده.

وانطلق خيط الثرثرة.

وبصرخة عالية منها جاءت الست سونة من الغرفة المقابلة. ثم أم نادية... ومن طرف الباب كانت نادية ترسل نظرات مرتعشة.

وعلى الحصيرة جلسنا جميعًا. وأم لوزة تدير بمهارة المايسترو والمدرب، معركة زرعى فى هذه التربة الجديدة.

نادية أنقذتنى عندما ارتبكت وأنا أشعل الوابور لأصنع شايًا. أخذت الشاى والسكر وعادت بالأكواب ممتلئة.

وعندما نفدت سجائرى التي وضعتها على الأرض أمام الجميع. صاحت أم لوزة:

- يا بت يا أزأوزة عمرى لنا مخنا يا بت، أصل سجاير الأفندية بتخلى الواحد يخرم أكتر.

وضحكنا... وحتى تحضر لوزة كانت الأصابع السمراء الصلبة قد امتدت عدة مرات إلى علبة السجائر الثانية والأخيرة. وترددت لوزة على الباب بينما أطلت الجوزة علينا وهى تتوهج، وعندما دخلت لوزة بعد أن صاحت أمها:

- مكسوفة يا روح أمك تعالى ده هنا عريس لقطة، اتجدعنى واتجوزيه.

دخلت الجوزة إلى الغرفة وخلفها لوزة تشد الأنفاس بمهارة أى قهوجى مدرب.

مجرد طفلة كبيرة، تحاول قدر طاقتها أن تحقق رغبات أمها فى أن تبدو مكتملة الأنوثة. لعلها صعدت لتوها بعد أن لعبت فى الحارة مع الأطفال. لكنها مع ذلك تتقن وعن عمد تحريك صدرها بصورة مغرية وتتلاعب به وبحواجبها وغمزات عينيها، وحركات يديها وأصابعها... وحديثها... أكثر من أية سيدة مدربة.

ودارت الجوزة بين أفواه النساء الثلاث ومعهن أزأوزه، امتصت الدخان فى شراهة واقتدار، نادية رفضت بعد نظرة صوبتها إلىّ وكأنها تقول لى: أنا لست مثلهن بل مثلك أنت.

أما أنا فقد حاولت أن أتشاغل بآخر سيجارة بقيت لكن أم لوزة خطفتها من بين أصابعى.

- سيجارة إيه وزفت إيه هو أنت عيل. خدى يا بت.

وناولتها لنادية التى وضعتها بين شفتيها فى اطمئنان...

وبدأت معاناتى مع الجوزة... حسن قال لى تعايش مع السكان. كن واحداً منهم يحبوك ويحموك. لكنه لم يقل لى كيف أشد أنفاس الجوزة. وفى البداية تصورت سونة غاضبة - أو هكذا تظاهرت - أننى أتعالى عليهن فقال فى حدة:

- روحى يا بت هاتى الليفة والصابونة علشان نغسل الغابة مطرح شفايفنا. أصل احنا جربه... وبعد ضحكة مفتعلة قالت:

- مع أن ناس كتير بتتمنى بوسه.

ووسط ارتباكى أدركت المايسترو الحقيقة. وقالت فى لهجة تجمع بين الإشفاق والضحك:

- يا وليه اسكتى. الشاب ابن ناس ومش واخد... حبة حبة يا مره انتى وهيه.

وفى حنان بالغ ناولتنى الغابة بين شفتى. كأم تحنو بثديها بين شفتى طفلها. لوزة ترمقنى فى إغراء. ونادية فى توسل. كل منهما تريد لى ألا أهزم.

سونة وأم نادية يصيحان هيلا هوب.

وأستجمع كل أنفاسى وأسحب الدخان وأحس بأحجار ثقيلة تملأ صدرى، وبرأسى يلف فى دوامة مزعجة. وتسارع الكحة لتهز كل جسدى.

لعنت فى سرى أبوهن جميعًا. وأبو نادية ولوزة. وأبو حسن الذى أتى بى إلى مكان كهذا...

هيلا هوب. ومرة أخرى أشد أنفاس الجوزة وثالثة ورابعة، وأطرد الدخان من أنفى وفمى وأحاول الاسترخاء كأى معلم مدرب... لكننى كنت فى حالة قريبة من الغيبوبة. أريد أن أتقيأ لكننى تماسكت. ماذا تقول النساء عنك؟ كيف ستواجههن غدًا؟

هيلا هوب... والآن يبدو الطريق سالكًا. الأنفاس تتهادى فى

يسر... وتخرج. وأكح ولكن كحة من نوع آخر، كحة كتلك التى تكحها كل واحدة منهن... كحة معلمين.

وأتسلطن فى الجلسة... لوزة أعدت شايًا آخر... ووجدت نفسى أخرج من جيبى نصف جنيه أناوله لنادية.

- روحى يا نادية اشترى لنا عشاء.

وأسرعت نادية تتساقط أصوات هبوطها السريع على السلم الخشبى فى آذاننا، وأسرعت أم نادية تستدعى أطفالها حتى لا يفوتهم العشاء.

وامتدت أيدى الجميع معًا دون تزاحم. أو بالدقة تزاحمت ولكن فى مودة. ووسط ضجيج القفشات والضحكات تهادى صوت أنين السلم الخشبى وانفلتت نادية ثم عادت مسرعة: عم البرنس. وانفلتت سونة كالملسوعة مسحت فمها. كتمت ضحكاتها. قفزت فوق رؤوسنا. وفى ثانية واحدة كانت فى غرفتها وبابها يغلق عليها...

انكتمت أنفاسنا جميعًا... ونحن نسمع خطوات ثقيلة واثقة من نفسها ودقات أكثر ثقة على الباب. الباب يفتح ويغلق.

فجأة قامت أم لوزة وهى تغمز لنا بعينيها... ودقت باب سونة:

- مساء الخير يا معلم. أنت يا خويا قافل على مراتك الباب طول النهار، لا بتخرج ولا بتبص من شباك، ولا حتى بتقعد معانا، مش حرام تحبسها الحبسة دى.

وسمعنا ضحكة خشنة مسترخية، وصوت يجتهد فى أن يبدو متعاليًا:

- احنا كده يا ست أم لوزة. ناس فى حالنا. والمطرح مليان أغراب. وعزاب.

وصوت غير مهذب من أم لوزة لا بد أنها أتبعته بضربة معاتبة وقاسية على صدر الأسطى البرنس فقد علت ضحكته الخشنة وهو يكح بشدة بينما أم لوزة تصيح:

- فشر... جتك نيله... دول ولاد طيبين ومن أحسن عائلات.

وعادت أم لوزة... واكتلمت السهرة بعشرات من القفشات الجنسية الصارخة. وعندما تركنى الجميع بعد منتصف الليل أحسست أنهم قد نجحوا فى ليلة واحدة فى أن يمسحوا عنى كل الماضى. وأننى قد أصبحت فعلاً «مدحت»... الذى أراده حسن.

وفى الصباح خرجت إلى دورة المياه المشتركة ببنطلون البيجامة فقط، ولم أشعر بحرج وأنا أقف بجوار بابها نصف المغلق منتظراً خروج نادية...

وعندما دعتنى أم نادية لأشد معها نفساً أو نفسين من الجوزة قلت أننى لم أفطر فناولتنى لقمة أخذتها وأخذت نفسين على الطاير كما قالت أم نادية. لكن نادية تتململ فهى تريد أن تغير ملابسها لتذهب إلى المصنع. وحاولت أن أستجيب لرجاء عينيها لكن الأم أمسكت بى.

- روحى يا بت غيرى هدومك فى أودة سى مدحت. وضحكت بطريقتها المميزة المليئة بالحزن وقالت:

- أنا ماسكاه هنا علشان ما يدخلش عليكى وأنت قالعة.

واستلفت أم نادية منى ربع جنيه طلبته فى بساطة ودسته فى

صدرها فى لهفة... وقمت إلى حجرتى. وفى الغرفة كانت سونة جالسة على ثوب قديم تسرح شعرها المبلول بعد حمام صباحى مبكر. وأجلستنى بجوارها ندردش... بينما المشط الخشبى يتعارك مع شعرها المجعد وقطرات الماء تتطاير على وجهى لتشعرنى بألفة من نوع خاص تماماً...

الدور الأول
الباب المواجه للسلم

هنا تسكن الست أم لوزة. ولوزة.

وكومة من عظام مهملة دوما اسمها عم حسنى.

الزوج والأب. منجد سيارات. لا بد أنه قد أنفق أيام شبابه... الصحة والمال إرضاء لسعدية (وهذا هو اسمها). الزمن والأفيون هبطا به إلى هذه الحال.

حسنى هو الرجل الذى اختارته سعدية زوجًا من بين آلاف الرجال الذين عرفتهم (سألتها مرة فى جلسة صفاء ويدى تستريح فوق صدرها المتوهج بالرغبة: كم رجلاً استراح فوق هذا الصدر؟ قالت على الفور... ولا واحد. طيب كم رجلاً مر من هنا... ضحكت فى مرونة وقالت يمكن مليون).

ومن بين المليون غير مستريح اختارت عم حسنى ليكون أقلهم راحة.

- كان فى شبابه زى الفحل. وكان حليوة أبيض بطول وعرض، وآخر شياكة. مش عارفة إيه اللى بهدله كده.

لكنى عرفت السبب. فامرأة كسعدية (ذات المليون زبون كما أسميتها فى سرى) هدت حيل عم حسنى. وحاول أن يتابعها بالأفيون والحشيش محاولاً أن يحل وحده محل الجميع. دون جدوى. وأصبح الأفيون هدفا بعد أن كان وسيلة... وتآكل عم حسنى، بالضبط هذه هى الكلمة «تآكل» بين أحضان زوجة شرهة غير وفية ولم تعتد أن تشبع، وبين الأفيون الذى ألزمه حائط الإدمان وامتص كل ما بقى فيه من قدرة... وبين الورشة التى يسرقها الصبيان ناكرو الجميل منذ أن أصبح غير قادر على العمل.

- أهى مفتوحة تجيب لقمة.

(كان يحاول أن يكلمنى، لعله وجد فرصة نادرة، فثمة إنسان فى هذا البيت على استعداد لأن يسمع له...).

لكن لطمة كلامية عاجلته:

- لقمة! هى فين اللقمة دى. أنت من أمتى بتدفع ولا مليم أحمر... من سنين وأنت آكل، شارب، نايم ببلاش... كفاية عليك الهباب اللى بتاخده.

- مش الهباب ده اللى كان بيعجبك زمان.

ثم كانت الإهانة الكبرى التى حركت مشاعر قتلها الأفيون منذ زمن بعيد.

- اسكت... اسكت بلا نيلة، أنت طول عمرك خايب.

- أنا طول عمرى خايب. خسارة فيكى شبابى وعمرى وفلوسى.

انهار الرجل كومة من عظام غير ملتصقة، تهادى بين يدى وأنا أحاول تهدئته، أحسست أنه مفكوك وخشيت أن تتناثر واحدة من عظامه هنا أو هناك. أرحته على الأرض فى مكانه المفضل تحت شباك المنور بجوار الرف الخشبى الذى يجلس الراديو فوقه فى استرخاء أبدى. أدهشنى غضبه فى البداية. جلست بجواره أسترضيه.

حكى لى قصته. كيف لا يغضب وكل شبابه ضاع بين يدى هذه المرأة. كانت تموت فيه هكذا أكد لى... (وسرح طويلاً، وحكى كثيراً، ربما بكثير أو قليل من المبالغة لكنه كان بحاجة إلى من يحكى له. أحسست أنها المرة الأولى والأخيرة التى سيحكى فيها حكايته... حكاية حسنى وسعدية. هكذا أسماها وهو يبتسم. هى أيضا الابتسامة الأخيرة وقد أطلت علىّ من فوهة شفتين مليئتين بشقوق غائرة... سنتان أو ثلاث لونهما بنى صدئ. حكى كثيراً، تاهت كلماته، تدفقت فى أكثر من مجرى. قصة سيريالية غريبة. خمسة أو ستة سيناريوهات تتشابك معًا فى عبقرية نادرة... الفص شغال تمام والرجل المنكسر المفكوك وجد أخيراً من يستمع إليه).

الكلمات غير متماسكة... خيط طفولته... أبوه. ميراثه الكبير. بيت الأسرة. يتشابك فجأة مع فتوته أيام الشباب. أحلامه. طموحاته. كلوت بك. ثم يعود لأيام الدراسة. شقاوته فى المدرسة، خيزرانة المدرس ولكمات الأب... ثم يقفز إلى الورشة... وتتشابك

الخيوط تلتوى، تتعقد، أشعر بدوار وأنا أتابعه لكننى أستمتع، كان يتكلم كشخص غائب... أحيانًا يقول هو... فأسأله مين هو فيقول حسنى ثم يستدرك قائلاً أنا. شىء كالأفلام غير المحبوكة.

ومضيت رغم ذلك أستمع.

(كانت ترتعد عندما يكح. كيف تراهنا معًا على عدد المرات وكيف كسب الرهان. الأرقام القياسية التى سجلها. لكنها غولة لا تشبع. دومًا تريد أكثر. كل بنات كلوت بك تهاوين تحت أقدامه. سعدية خطفته. امتصته وحدها. ضحكت عليه. ناعمة كانت. بل ساحرة، عملت له عمل. نامت تحت رجليه. غسلت له أقدامه بماء الورد... «اتجوزنى يا حسنى أتوب وأعيش خدامتك طول العمر» تزوجها وأنبتا معًا لوزة... نضب المعين وهى تزداد شبابًا، كان الأفيون ضرورة. كان يحصن نفسه به وبالمقويات ليرضيها. أدرك أخيرًا أن معركته خاسرة. تركها وتعلق بالأفيون. فى الصباح ينزل ليأخذ الاصطباحة على القهوة المنتشرة على الرصيف المواجه فى أول الحارة. واحد سادة، وفص، ثم يتدحرج مستندًا على بقايا شبابه إلى الورشة فى الرويعى... يتضاحك الصبية عليه. غشاشون ولصوص. يسرقونه. يأخذ أى شىء... أى مبلغ بعد أن يسبهم مهددًا بأنه سيبيع الورشة. يعود للقهوة ينتزع منه المعلم كل ما معه ويبقى مدينًا، يسدد دينه بشتائم تنهال فوق رأسه من اللص صاحب القهوة. يغش الصنف ويغالط فى الحساب. بقية يومه يقبع تحت الراديو. لا يكلم أحدًا. يأكل ما يعطى له. يغسلون له جلبابه

ويتركون له فضلات الطعام... يتجاهله الجميع. حتى البنت لوزة تشتمه. أبداً طوال حياتها لم تقترب منه. لم تقل له أبداً يا بابا).

أشفقت على الرجل. وذات يوم ضربت لوزة من أجله. ضربتها بالقلم عندما أسرعت نحوى لتأخذ منى صابونة لوكس لتستحم بها (كان حلم الاستحمام بصابونة بريحة يهز مشاعرها المراهقة) تعثرت فى الكومة القابعة تحت الشباك وكادت أن تسقط. سبت ولعنت ورفست الرجل رفسة عنيفة. كفى انهالت دون تفكير فوق صدغها... بكت دون احتجاج. جرت إلى أمها تستنجد. أدهشنى تصرفى، ماذا لو ثارت الأم؟ ماذا لو طردونى من البيت؟ إلى أين أذهب؟ ماذا لو قامت خناقة وانتهت ككل خناقات سعدية فى قسم باب الشعرية حيث الصول صديقها الذى يدبر لها كل أمورها مع الحكومة؟ كيف أبرر موقفى أمام حسن وبقية الرفاق؟... هل سيفهموننى عندما أحكى قصة عم حسنى وسعدية وأزأوزه... وما دخلك أنت بكل ذلك.

دارت رأسى... شعرت بخوف حقيقى.

- أهلا سى مدحت.

جاءت الأم تتهادى فى قميص نومها المفتوح وصدرها يطل من فتحة أهمل إغلاقها.

- البت زعلانة منك. أصلها مش واخدة على الضرب...

وفيم يستمر رأسى فى الدوار خوفًا من شراسة الأم التى لا تحتمل شيئا ضد ابنتها. غمزت ذراعى قائلة:

- خد البت بالحننية. اضرب ولاقى. يالله روح صالحها.

ودفعتنى إلى غرفة النوم لأجد نفسى لأول مرة وحيداً مع لوزة.

- معلش يا لوزة حقك على.

كانت تبكى فى دلال وهى جالسة على الأرض مستندة على عمود السرير الأسود فى وضع سينمائى لا بد أنها أنهكت أحلامها كثيراً وهى تتخيله. فستانها مشمر لتتسرب من تحته وبجسارة ساقان... ثم فخذان مستلقيان فوق بعضهما فى إغراء.

تركت لى أم لوزة فرصة خمس دقائق، وربما عشر، ولما أطلت برأسها لتجدنى لم أزل واقفاً فى الغرفة كاللوح... دخلت لتشد يد لوزة وتنهضها:

- بس يا بت. يعنى إيه لما يضربك والا يكسر رقبتك. صالحها يا سى مدحت علشان خاطرى.

وإلى أحضانى دفعتها فقبلتها ببرود مندهش. لكن لوزة انفلتت وغادرت الحجرة بينما صوت أمها المتهكم يلاحقها...

- انبسطى يا ست أهو باسك «قبلة أخوية».

نطقتها باللغة الفصحى وبأسلوب مليء بالسخرية وكأنها تقول لى جتك نيلة فى خيبتك.

دخلت لوزة الحمام ومعها لأول مرة صابونة بريحة - تلاحقها تعليقات لاذعة من أمها تحذرها من أننى ألقى بنظراتى على جسدها من خلال باب الحمام الموارب بطبيعته...

وأمسكتنى أم لوزة من يدى، ياه أنت مثلج. كانت ساعة الغروب

فى يوم ممطر من أيام يناير الحزينة. لكن انفعالى وخوفى بعد أن ضربت لوزة زاد من برودة أطرافى.

... منذ دقائق اهتزت فى الغرفة دقات الساعة الخامسة منبعثة من الراديو وجاءت نشرة الأخبار. يدى فى يدها لم تزل... لكن عقلى تشتت مع الصراخ المتشنج للمذيع الذى يحاول عبثًا أن يبدو منفعلاً بما يقرأ. لعل الحس المرهف لسعدية هو الذى جعلها تدرك الرابطة بين صوت المذيع الأجش وبين تزايد برودة يدى. حاولت عبثًا أن تمنحنى دفء يديها لكن العقل والنفس تغشاهما برودة قاتلة... الموقف العام يتأزم والمصير المحتوم يقترب وينشغل ذهنى بمشروع بيان يجب أن يحدد موقفنا بوضوح تام ومهما كانت النتائج، وبينما الأصابع الخشنة تحاول إثارة انتباهى كنت بعيداً تماماً أصوغ جملاً متكاملة من البيان.

أدركت سعدية الرابطة... تحركت وهى تسب المذيع سبًا جنسيًا صارخًا، مدت يدها لتغلق الراديو بأعنف طريقة ممكنة... نزعت الفيشة بعنف وهى تواصل السباب.

وعندما أتى صوت لوزة عذبًا من خلال وشوشة وابور الجاز:

- قفلتى الراديو ليه. سيبيه علشان المسلسل.

- بس يا بت بلا مسلسل بلا زفت.

... كنت غارقًا فى بحر البرودة الخائفة. ما أقسى أن تمتزج برودة الجو، بقساوة الغربة، بصعوبة الموقف... هنا تصبح البرودة متكاملة. هل كنت أرتجف؟ الله أعلم، المهم أن أم لوزة انطلقت فى نشاط:

- تعالى يا حبيبى اتدفى...

ولم يكن هناك أى مكان يحتمل الدفء سوى السرير، فالغرفة لا تضم سوى سرير بأربعة أعمدة سوداء، وكنبة صغيرة عجفاء لعلها أكثر برودة من رصيف طريق مفتوح.

- اطلع ع السرير واتغطى.

جلسة السرير عند هؤلاء الناس هى جلسة الأحباء المقربين. قفزت إلى السرير هاربًا من ضعفى وألقت هى فوق أقدامى أطراف لحاف قذر، بارد هو أيضا كالثلج.

- يا بت يا لوزة، إذا المية سخنت هاتى الوابور.

وتمتد الذراع البيضاء المبتلة من خلف باب الحمام ويعلو صوت الوابور فى الغرفة ليملأها بأزيز مستقر... الصوت فى ذاته يمنح بعض الدفء. لكنى لم أزل مثلجًا.

ماذا جرى لى؟ منذ لحظات كنت متماسكًا. كنت «مدحت» كما أراده حسن وكما أراده الرفاق. وكما يعرفه سكان هذا البيت. هل هو صوت المذيع الشرس؟ أم قسوة الأخبار؟ أم لفتة أم لوزة «ايدك ساقعة قوى» هذه الكلمة كانت بداية خيط الضعف. قبلها لم أكن أشعر بشىء، لفتت نظرى فاستجبت لأننى كنت جاهزاً للاستجابة. شعرت بالبرد يسرى فى كل أوصالى. تذكرت نفسى... أنا الحقيقى وليس مدحت، بيجامتى الصوف الفاخرة، أسرتى، الروب دى شامبر فى ليالى الشتاء، أمى وأبى، بيتنا وحبيبتى. كلمة واحدة من سعدية نزعت «الفلينة» فتدفقت أحاسيس الاغتراب والشوق

والخوف. وتكومت على السرير أستشعر رغبة جارفة فى الدفء وربما فى البكاء... جذبت أطراف اللحاف القذر ليس لمجرد الإحساس بالدفء وربما أيضا فى محاولة للاختباء.

تدفق «الخاص» و«الذاتى» من فوهة زجاجة كانت مغلقة بإحكام وانهار مدحت تماماً. شعرت برجفة تهز أوصالى. ونظرت إلى ما حولى وكأنى فى كابوس مخيف.

غريب ذلك الإنسان يتماسك بلا منطق، وينهار فجأة وبلا منطق أيضًا. أكاد أبكى. تشابكت مشاعر غريبة، أحزانى الشخصية بأحزان القضية... غربتي... وغربتنا جميعًا، مأزقى تحت لحاف قذر فوق سرير امرأة غريبة والمأزق الكبير الذى نحياه. هل صحيح ذلك الطريق الذى نحياه؟ وهل يستحق كل هذا العناء؟

رفاقى فى المنفى يعذبون بكل القسوة الممكنة. لماذا يصمدون؟ هل يمكن للإنسان أن ينسحب دون أن يفقد احترامه لنفسه؟ هل من مهرب أم أن الصائد يترصد الجميع أقوياء وضعفاء، صامدين وهاربين؟ أنت جبان. بل هى مجرد أفكار. لكن ماذا يجدى الأمر كله؟ الشعب نائم. بل هو يتظاهر ضدنا. ضدنا نحن الذين نهب نسمات حياتنا من أجله. تبدو الأمور جميعًا بغير معنى. نحن نضحى من أجل من لا يريد. ونتكلم مع من لا يسمع. ونختلف مع من لا يقبل سوى الطاعة المطلقة. وتبدو الصورة مأساوية حقًا. لو أن الناس تحس بعذاباتنا لهان الأمر. لهانت كل العذابات. لكن الناس بعيدون عنا. وكلماتنا ماذا تجدى؟ هل تقنع أحداً؟ أم هى للتاريخ فقط كى يقول مؤرخ مغرور بعد

سنوات... كانوا يقولون الصدق.. الصدق ماذا تعنى هذه الكلمة؟... اسكت أنت. إنك تبرر ضعفك. مجرد برجوازى صغير ترتجف لدى أى انحناءة. الحاج محمد زوج خالتى تجسد الآن أمامى بكرشه الضخم يهتز فى مرح وهو ينصحنى... «هو فيه حد يحب شوية كلام... أنا أحب ست حلوة، أحب الفتة بالملوخية... إنما كلام فى كتب. إيه الهبل ده»... هكذا يريدونك أن تنحدر... اهبط معهم حتى تجد نفسك وقد نسيت أفكارك وتعيش حياة الفتة بالملوخية. حبيبتك ماذا ستقول لها؟ التقينا معا فى هذا الطريق بنينا أحلامنا معًا... لكن ما جدوى ذلك كله؟ الضربات تلاحقنا. قليلون نحن. أوراقنا تعانى كى تصدر. وكيف لها أن تخترق خيمة الخوف المهيب وأن تصد ادعاءات الإعلام الحكومى؟

- أنت تعبان يا مدحت.

قفزت سعدية إلى جوارى وهى تمسك بأطراف اللحاف لتغطى أطراف قميص النوم التى ارتفعت إلى أعلى.

- مالك؟

- أنا كويس. بس بردان شوية.

كان الوابور يتربع تحت أقدام السرير وفوقه حلة صغيرة مكشوفة تتزاحم فيها ثمرات البطاطا المغمورة بالماء.

- حالاً البطاطا تستوى. وتأخد واحدة سخنة وتبقى زى البمب.

واقتربت منى سعدية. اقتربت عن عمد. مدت يدها فوق كتفى. وبدأنا نثرثر فى مودة يغمرها حنان غريب.

من الحمام خرجت لوزة تموج بالأنوثة، هل يفعل الماء الساخن كل ذلك؟ أم هى لمسات الأيدى العطشى على جسد عار مثقل بالرغبة؟ أم هى الصابونة أم ريحة ألهبت الخيال الجامح دوما بالرغبة؟

الشعر المبتل تحتضنه فوطة ممزقة، لكنها تبدو وكأنها تاج فوق رأس أميرة صغيرة. كانت أجمل بكثير من كل يوم، عيناها بلا كحل أجمل... الوردة دومًا تبدو أكثر تألقًا عندما تبللها قطرات الندى...

- أنتم قاعدين فى الدفا لوحدكم.

وقفزت على السرير وامتدت أقدامها لتتعرى تحت اللحاف، وتتلامس قدماى مع أربع سيقان...

تمضى بنا الثرثرة بعيداً... البطاطا لم تستو بعد. لكننى استعدت بعضًا من أطراف شجاعتى تبادلنا النكت البذيئة، حكينا قصصًا كثيرة نصفها جنسى. كذبت كثيراً وأنا أحكى بعضًا من مغامرات مزعومة... عينا لوزة الساذجتان لمعتا فى انبهار، لكن ابتسامة الأم المرتسمة فى اطمئنان مشجع كانت توحى من بعض زواياها أنها تعرف أننى أكذب... وتستريح إلى ذلك...

وتمطى بنا الحديث إلى شباب سعدية، وكيف تبعثر فى أروقة مملكة كلوت بك. يومها الأول فى «الوعد»... كيف ذهبت برجليها. الجنود الإنجليز وكيف تخصصت فيهم.

- كنت أميز بين الإنجليزى والأسترالى والنيوزلندى. وكل واحد له سعر.

وعندما تسألها لوزة إزاى؟ أحاول أن أتفلسف لمجرد المشاركة فى حديث صعب المسالك.

- الأسترالى طبعًا يتعرف من قوته.

- أبدًا. كلهم أخيب من بعض. كنت باعرفهم من ريحتهم. (... ويتعرج الحديث... وتكبر سوسو (اسم سعدية فى الوعد) تدخر بعض المال سرًا من خلف ظهر المعلمة. لكن للمعلمة هيبة لا يتجاوزها أحد. ولا تتنفس سوسو إلا عندما تموت معلمتها فتشترى بيتًا من بابه وتتخصص فى مهنة غريبة... التدريب).

تغضب سعدية عندما تفلت منى ضحكة. أسترضيها وألح... كى تمضى فى حكايتها (سوسو لها بيت ولديها بنات، لكن المهمة الأساسية هى ترويض البنات... تحويل الأنثى إلى بائعة حب. ببساطة نادرة كانت سعدية تلقى أمامنا بخبرة التكوين الجنسى للمرأة وبخبرات المعالجة النفسية الصحيحة لهذا التكوين. الفرق بين فتاة وفتاة. والمشترك بين كل الفتيات، أستاذة بحق تلقى محاضرة بالغة القيمة. ولكن بأسلوب خاص وعار تمامًا، الفتاة قد تأتى برجليها. وقد تأتى مخطوفة. قد تكون صاحبة تجربة وقد تكون خام. لكنها فى كلتا الحالتين تحتاج إلى قدر كبير من الإلحاح والمحايلة. وأحيانًا بالعنف. البنت تريد أن تقنع نفسها أنها لم تقبل ذلك باختيارها حتى ولو كانت تتمناه.

وتتلخص خبرة سوسو فى كسر الحاجز النفسى ولو بالقوة.

- بالقوة يعنى إيه؟

سألت لوزة فيما يشبه الاحتجاج... ولعلها مماحكة «المراهقة» التى تطمح فى بعض التفاصيل.

- بالقوة. يعنى بالقوة، تحبى اوريكى إزاى؟

ونظرت إلى ضاحكة...

- جاهز يا واد؟

- مع لوزة لا... دى أختى.

ونظرت إلىّ سعدية فى حنان دافق. أحسست أن الدموع توشك أن تتدفق من عينيها.

- أنت ابن حلال.

وتمضى سعدية فى روايتها...

(المرة الأولانية ضرورى ولو بالقوة. وبعدين نسيبها، نمنعها أنت مش نافعة مش عاجبة الزبائن. مش كل بنت تعجب الزبون. لكن لازم تفضل فى البيت تشوف غيرها داخلين طالعين. كل واحدة من القدام عارفة أن لازم ترفع صوتها وهى داخل الغرفة معلنة لمن بالخارج أنها تذوب شوقًا. ثم تخرج لتحكى قصصًا عن فحولة الرجال ومتعة النساء... المطلوب أن يبقى الصيد فى هذا القفص فترة. ممنوعة من الخروج وممنوعة من مقابلة الرجال بحجة أنها غير مطلوبة. ونترك الغيرة لتنمو والرغبة لتختمر... الغيرة والرغبة تهزمان أى مقاومة... صدقنى أنا شفت كتير. كل الأصناف. مافيش واحدة صمدت أكثر من أسبوع أو عشرة أيام. مجرد إحساسها أنها غير مطلوبة يشعل فيها نارين... نار الغيرة ونار أخرى أشد... الرغبة.

وساعتها تتمحك. تبدى أنه ليس لديها مانع. أزجرها. وأرفض. أنبه على الجميع أمامها بألا يراها أى رجل. يوم آخر أو يومان وتطلب هى بنفسها. أرفض. تتوسل. أرفض. تنهار تماماً. أضربها. أمنعها ثم أتنازل وأسمح لها. ساعتها تكون قد أصبحت امرأة أخرى تماماً. صالحة لكى تدخل مملكة «الوعد». الغريب أن كل واحدة تقريبا تمر بنفس التجربة. مع ذلك ما من واحدة تفشى أسرارها للقادمة الجديدة. كل واحدة تتمنى أن تنغرس كل نساء العالم معها فى «الوعد».

... وبعد أن تتخرج الفتاة تتسلمها معلمتها «وهى عجينة فى ايدها تعمل بيها اللى هى عايزاه»... سألتها: ألا تحاول الفتاة الهرب بعد ذلك؟ نظرت إلىّ فى رثاء وكأنها تقول لى أنت مبتفهمش ليه... الواحدة بعد ما تتعود على «الوعد» لا يمكن تسلاه. تحلم بالجواز والهرب لكنها مجرد أحلام... لقد قيد الجنس المتواصل خطواتها بسلسلة أقوى من الحديد.

... والغروب تلك الساعة المقيتة من ساعات الأيام الشتوية توشك على الانفلات... أكلنا بطاطا ساخنة. سمعت عشرات الحكايات. حديث الجنس حرك فى أعماقى الرغبة بأكثر مما حركتها ساقاى المغمورتان تحت اللحاف بين أربع سيقان عارية... لكنى كنت لم أزل بارداً فى داخلى. الهزة العنيفة لم تزل تترك شحنتها على أعصابى المتوترة.

سعدية بدت هى أيضاً متوترة. ذكريات الماضى هل أثارت

شجنها أم أثارت حواسها؟ مدت يدها تحت اللحاف لتمسك يدى.

- انت لسه تعبان؟

- شوية.

- مالك؟

-مفيش.

- لأ فيه.

- أبداً. تعبان شوية.

(نطقتها. تعبان. ماذا جرى لى. مجرد كلمة تدمر كل شجاعتى خيط البرودة يمتد يشبك أوصالى ببعضها بارتعاشة مخجلة. خيال حبيبتى يهيمن. بيتى. من أتى بى إلى هنا تحت هذا اللحاف القذر؟ أية أقدام هذه التى تلاحق أقدامى؟ ساقى كيف هى مسترخية فى بلاهة بين ساقى امرأة أخرى؟ امرأة أم فتاة؟ وسط مشاعرى المتناقضة وبرغم خيط البرودة المتجسد خطًا مثلجًا ممتداً من رقبتى على طول ظهرى... ممتداً إلى كل أطرافى. برغم ذلك كانت أصابع قدمى تتحسس أى ساقين هما... الاتساق، النعومة، الصلابة، البرودة الدافئة. هما ساقا لوزة قطعا. لكننى متعب، لا بد أن عرقا تصبب. أو أن لونا أصفر طاف فوق وجهى... عيناى لم تزالا قادرتين على التمييز، رأيت إشفاقًا ودوداً على وجهها. أصابعها الخشنة المليئة بخواتم أعلم أنها صدئة ومحشوة بالتراب كانت تتقدم لتحتضن يدى. تدعك برفق ما بين أصابعى. وللخشونة طعمها الخاص ودفؤها المتميز..

- ولا يهمك. ما تخافش من حاجة أبداً. أنت فى عنينا من جوه.
وبتوسل طلبت إلى ابنتها أن تذهب إلى الموسكى لتشتري شيئاً.
تمنعت لوزة فى تخابث.

- أستهوى يا أمه. أنا لسه خارجة من الحمام.

- معلش. علشان خاطرى.

أصابعها كانت تعتصر فخذى فى قسوة. ويدها الأخرى أخرجت من صدرها منديلاً به أوراق مالية فكته بأسنانها، وكأنها تعلن أن يدها الأخرى مشغولة... أعطتها نصف جنيه.

- يالله يا حبيبتى.

قامت لوزة فى تكاسل. أزاحت اللحاف. لم تهتم بأن تغطى ساقيها. ولا أنا اهتممت بأن أسحب ساقى من بينهما. وقفت وسط الغرفة تلتف فى الملاية السوداء التى نادراً ما تستخدمها أمها، بدت رائعة الحسن. عيناها لم تقعا أبداً من فوق عينى أمها. نظرات تحد وعطف وتفهم كامل. لكنها محرجة وجارحة.

خرجت. فى نفس اللحظة قبلتنى سعدية. فتح الباب عادت تطل برأسها.

- الراجل قاعد بره (تقصد عم حسنى).

ردت سعدية بشتيمة بذيئة تناولت الاثنين.

وأغلق الباب.

أنا وسعدية. آخر ما كنت أنتظر. تأملت نهدى نادية، وردفى لوزة حتى سونة زوجة البرنس.. لكن سعدية...!

(عندما حاولت أن أبدى حماساً يتعين على أى رجل أن يتظاهر به لمستنى برفق تدعونى فى حنان صامت للهدوء).

انسابت أنغام هادئة. فى البداية شعرت بدهشة، سعدية بكل جلالها تقترب بهذا الهدوء. ليس مجرد هدوء لعله خشوع. همساتها لا تسمع. لم تنطقها لتسمع. هى مجرد ألحان مكملة لنغم بالغ العذوبة. احتوتنى تماماً بهذا الهدوء المهيب. شىء جديد تماماً. حلقت بى فى عالم من حنان مطلق. ورغبة ذات مذاق إنسانى صرف.

دفء غير ملتهب. لكنه أكثر إثارة من أى لهب. الفارق هائل بين كل رسوم الأطفال التي طالعتها فى حياتى وبين لوحة فنان مبدع، لكل خط معنى ومذاق، ولكل لون هدف ومن نسيجها المتكامل تستشعر المتعة المترفة تسرى كالحلم إلى كل أطراف جسدك... تتذوقها. تحس فعلاً بطعمها بين شفتيك. دون كلمات تسمع أصداءها فى أذنيك... تحس بها حتى أطراف أصابعك. المايسترو يعزف فى اقتدار الخبير. أنغامه تنساب دون عناء خاص. تسترخى فى أعماقى. أتوه. أحلق معه. أعزف أنا أيضاً باقتدار غريب. النغمات المتوافقة هى أروع الأنغام. من أين للمرأة كل هذا القدر من الحنان. وكيف يستطيع الرجل أن يكون وعاء له؟ تلك الأصابع الخشنة ذات الخواتم الصدئة... كيف تمتلك مثل هذه اللمسات؟ هذا الجسد القديم كيف يبدع كل هذه التموجات الحانية تستشعر التموجات ولا تراها. اعتدت فى تجاربى الأخرى أن أراها وأسمعها ولا أشعر بها.

تتلاقى الأنغام فى صعودها المقتدر. كل ما فى العالم من حنان يتبلور فى ارتعاشة جسدين معًا. كأننى أحلم. حاولت أن أفتح فمى لأقول لها أنها ممتعة وأننى أحبها. هذه هى الطقوس التي اعتادها الرجال. أقفلت فمى بلمسة من أصابعها. أى كلام سيفسد النغم المحلق. أرخت وجهها على الوسادة. لا بد أن أفعل شيئًا. ضممتها بعنف إلى صدرى. تجاوبت برفق. كانت عيونها تدمع. أمام دموعها انسابت إرادتى. واستراح رأسى تمامًا فوق صدرها. عيناها قالتا كل شىء...).

... (بعد خمس سنوات وأكثر استعدنا ذكرى هذا اليوم. أمسكت بيدى بعنف: كنت عارفة حكايتك. وعارفة أنك هربان. وأنهم عايزين يسجنوك. صعبت علىّ. مش عارفة إزاى أخذتك فى حضنى. لماذا الدموع؟ وده سؤال؟ لأنك الراجل الوحيد اللى حسيت أنه مش بتاعى... وأنه حيتخطف منى.

(تأملت المنطق. تخيلت البدوى الذى يبادر ضيفه بالطعام ليشعره بالأمان. يأكلون معًا عيشا وملحا).

... عندما عادت لوزة وجدتنا نأكل البطاطا. لم تفتها اللمحة الذكية.

- إيه الحلاوة دى كلها يا امه.

- بس يا بت.

- والنبى انتى أحلى من كل يوم.

وللمرة الأولى أكتشف أن الخجل يمكنه أن يتسرب إلى قسمات سعدية وتطرده عن عمد بألفاظ بذيئة.

... وعندما صعدت إلى غرفتى مستحماً من كل همومى، شعرت أنى مدحت ولست أى شيء آخر غيره. وأنه قديم هنا راسخ الأقدام منذ مائة عام فى هذا البيت، وسيبقى مائة عام أخرى.

أحسست بعبارة أنت فى عنينا من جوه تتجسد جفنا ضخما حانياً يحتوينى... يمنحنى الدفء والحنان والأمن.

الدور الثانى
الغرفة المواجهة للسلم

وكانت سونة مدفأتى فى ساعات صباح يناير الباردة. بجوارها اعتدت أن أجلس على جلباب قديم مفروش على الأرض المبتلة دومًا. نستند على الحائط ونثرثر فى لا شىء، بينما مشطها الخشبى يجتاح الشعر الأكرت عقب الحمام الصباحى، ورذاذ بارد يتناثر ليغمر وجهى فأستشعر المزيد من الألفة والمزيد من الدفء.

وسونة أنثى محايدة. لا تغريك بشىء محدد، ولعلك لو تأملتها لوجدت أن التفاصيل منفرة. الشعر أكرت، البشرة مزيج من السمرة والاصفرار الباهت، امرأة جافة، يخيل إليك أنها خالية تمامًا من الأنوثة، تتكلم فى برود، تعاملك بهدوء، تفرض عليك علاقة وثيقة لكنها مليئة بالحواجز، عود شاحب، تتنفس بصعوبة، تستسلم لك فى علاقة ودودة خالية تمامًا من الحرارة، تشعرك

بالبؤس الدافق، وبأن الشيء الوحيد الممكن تجاهها هو الإشفاق لكن الإحساس بالمودة يمنح الغريب دفء الألفة ويشعره بالاقتراب.

نثرثر كل صباح، كانت بحاجة إلى إنسان يستمع، وأنا رجل ممنوع من الكلام فلا بأس من أن أستمع، أما البرنس فيأتى من العمل مهدود الحيل، شاكيًا ساخطًا، يحتاج إلى عشاء ساخن، وأذن تستمع إلى شكواه المتكررة من المعلم والأسطوات، والسوق، والزبائن، والإرهاق، والزمن، يشكو وهو يبتلع الطعام، كأن له فمًا للأكل وآخر للكلام، ثم ينام وهو يشكو، ويستيقظ وهو يتأوه.

هى معه لا تستطيع أن تتكلم، ولا حتى تشعر بأى رغبة فى الكلام. كالعادة تزوجته رغم أنفها (كنت عيلة صغيرة فى المدرسة الإعدادية. كان نفسى أكمل تعليمى وأبقى مدرسة أو محامية، أبويا كان معلم قد الدنيا... يعيش فى عالمه الخاص ولا نراه إلا فى الأعياد أو الكوارث، أحببت مجدى ابن حارتنا لمحته من الشباك وهو يتوقف كلما اقتربت، تكلمت عيوننا كثيراً، كتب لى رسائل حب، تقابلنا عند جامع الرفاعى، وصعدنا إلى القلعة معا... أمسك بيدى وليس أكثر، تحركت أصابعه كثيراً على كتفى فأحسست أننى أذوب. فجأة لدغتنا عقرب... شاهدنا الشاويش محمود جارنا، كان عسكرى فى قسم الخليفة، تجاهلنا تمامًا وتظاهر بأنه لم يرنا، انفلتتُ من يدى مجدى وسريعًا عدت وقلبى يدق مئات الدقات كل ثانية لست أدرى ماذا قال الشاويش محمود لأبى - مات الاثنان قبل أن أجرؤ على سؤال أحدهما - فى تلك الليلة عاد أبى مبكراً ومعه

نجار دق مسامير كبيرة فى الشباك كى لا يفتح أبدًا، أحسست بالمسامير تنغرز فى قلبى دقة دقة، أخذ كتب المدرسة ليمزقها، سقط من أحدها خطاب مجدى، أبى لا يقرأ. أقسمت أنه موضوع إنشاء، لكن القلب والسهم المرسومان فضحا كل شىء، كنت أرتجف خوفًا من علقة ساخنة، ليته ضربنى، لقد فعل ما هو أسوأ. زوجنى أحد صبيانه).

كنت أعلم أن الزهور تذبل سريعًا فى بلادنا، لكننى فزعت عندما أكدت سونة أنها فى العشرين من عمرها. إذا كانت الوردة هى أجمل الأشياء فإن الوردة الذابلة تمنح النفس إحساسًا طاغيًا بالكآبة.

عشرون عامًا لهذا الجسد المستهلك، عينان بلا بريق، ابتسامات مطفأة، أثداء مدلاة فى شكل أسطوانى غريب يشبه كوز الذرة، يدان كعيدان القصب الكالح... وصفتها أم نادية بلسانها السليط قائلة إنها تشبه مقشة كنَّاس الحكومة، وكانت المرة الأولى التى ألاحظ فيها أن المقشة الميرى ذات مواصفات خاصة.

امرأة بلا رحيق من أى نوع، اعتصرها الزمن والهم واللاحب، وذلك الانزواء الإجبارى فى غرفة نصف مظلمة. والرضاء بالمقسوم. والمقسوم لسونة شىء صعب... زوج مستأسد فى ضعف، جسد ضخم متهالك، أوامره لا تقبل التأجيل أو النقاش، الخروج ممنوع نهائيًا، حتى الشباك المنزوى فى ركن الغرفة والذى يطل على حارة عجفاء تعمد أن يسد أغلبه بالدولاب...

وهى لا تتململ، لا تعرف القدرة على الرفض، لأنها تعرف معنى عدم استطاعة الولايا لأى رفض، وهو يذكرها وبشكل قاس ومرير بأنه تزوجها على غير رضاه، وبأنه يعلم أنها كانت تحب شخصًا آخر...

... وكل هذا القدر من الحزن والإذلال يستحم كل صباح فى ضوضاء مبكرة تتخذ طابعًا إعلاميًا واضحًا... الحمام المشترك مشغول كل صباح. وابور الجاز يقتحم علينا نوم الصباح اللذيذ بصوته المزعج، وخبطات وطرقعات الصفيحة وهى تملأ، والماء وهو ينسكب، الطشت والكوز يتلاطمان، الوش المستمر لوابور الجاز كلها علامات ظاهرة لحالة من القدرة اليومية يحب البرنس أن يتباهى بها وهو ينساب كل صباح خارجًا من الحمام فى زهو القائد المنتصر. ليس المهم أنه قد فتح عكا أم قرية صغيرة، ولا أن زهرته الذابلة عجوز فى العشرين من عمرها، لكن المهم هو ذلك الزهو المتألق الذى يتذوقه وهو ينهمر على الدرج نافخا صدره وكأنه جاب الديب من ديله... ولعل بهجته الوحيدة فى الحياة كانت تلذذه بنكات أم نادية حول حمامه الصباحى... وابتسامته المتعالية التي ترتسم فى كبرياء قبل أن ينفجرَ فى الضحك... أما سونة فقد كانت تشارك فى الأمر كله بابتسامة باهتة ليس فيها مشاركة فى النكتة ولا استنكار لها.

والبرنس هو واحد من هؤلاء الناس الذين يقضون حياتهم بالحد الأدنى من أوقات الراحة والحد الأقصى من ساعات العمل. عندما

تجلس إليه تشعر أن مأساته الحقيقية أنه يدور فى الطاحونة منذ طفولته ومن ساعتها لم يجد وقتًا للراحة...

وحتى فى يوم الجمعة يستيقظ مبكراً يؤدى نفس الطقوس، يخرج من الحمام نصف مبتل جلبابه الأبيض أجهدت سونة يديها اللتين تشبهان القلم الرصاص كى يصبح ناصعًا. ثم يجلس أمام الغرفة متربعًا، يحتل المدفأة التى اعتدت عليها كل صباح. سونة لا تجرؤ على الجلوس بجواره، يشرب الشاى فى رشفات طويلة عالية الصوت مليئة بالامتنان، وسونة واقفة مستندة إلى الباب ترمقه بنظرات غريبة خالية تمامًا من الحب وخالية تمامًا من الكراهية.

جلسته هذه هى متعته الوحيدة طوال الأسبوع، ساعة أو أقل ثم يتهاوى واقفًا يغلق بابه خلفه ليفطر... الأكل عورة هكذا تروى سونة عنه، وطوال الأسبوع يأكل وهو يعمل... وإلى القهوة المنطرحة على ناصية الحارة، فصلاة الجمعة فمشوار أو اثنان ويطير يوم الإجازة.

التناقض الغريب بين تهالكه الضعيف وبين حماسه اليومى أدهشنى... وذات صباح عقب مشاغبة من نادية ألمحت فيها إلى جلساتى المليئة بالمودة بجوار سونة... أسرعت سعدية لتنقذنى. وفى برود سألتنى: بينك وبينها حاجة...؟

أقسمت... لا... وهل يترك البرنس فرصة لأى منافس؟ فانفلتت واحدة من ضحكات سعدية النادرة دوت فى الغرفة ليعقبها صوت بذىء كررته أكثر من مرة وهى تترنم بما يشبه الغناء وأقسمت

قسمًا أكثر بذاءة أن البرنس مصباح بلا زيت وأن ما يجرى كل صباح هو تمثيلية يفرضها البرنس على زوجته ليوهم الجميع أن زوجته عينها مليانة... وأبديت تشككى بصورة أغضبت سعدية وأقسمت قسمها البذىء مرة أخرى أن تستدعى سونة لتسألها أمامى.

توسلت لها ألا تفعل، أكدت - كاذبًا - أننى أصدقها، ولكن صوتها العالى كان سابقًا على كل إلحاح وأتت سونة... الغريب أنها لم تعترض، لم تنف، لم تشعر بالحرج اكتفت بأن قالت فى مرح مفتعل... «أهو كله نظافة».

ولم أفتح الموضوع مع سونة ثانية، ولم تفتحه هى، مرة واحدة قالت والدموع تملأ عينيها... «نفسى فى حتة عيل»، أما أنا فقد أحسست بالإشفاق، وفى خضم الضوضاء الصباحية لم أعد أردد دعائى اليومى «ربنا يهد حيلكم» فقد اكتشفت أنه مهدود لدرجة أكثر من كافية.

لكن البرنس رجل دوغرى... ابن بلد، كلمته كحد السيف، يقول للأعور أنت أعور، كسب احترام كل سكان البيت، ويقال إن رواد القهوة التى على الناصية يكنون له احترامًا كبيرًا.

وعندما أكثر ذلك الفتى المتحذلق من التردد على غرفة أم نادية كان البرنس أول من أبدى تململه برغم أنه كان دائم التعاطف معها... سألنى صباح يوم جمعة... مين الولد ده؟ وكان الرجل يمرق من السلم منحنيًا إلى اليسار يخطف خطوتين فى خطوة

واحدة ليصبح داخل غرفة أم نادية حاملاً فى يده قرطاساً صغيراً تطل منه كيزان بطاطا مشوية... (ظهر الرجل، أو كما يحلو لأم نادية أن تسميه «الأستاذ محمد»، فى حياة المنزل فجأة، يتردد فى أوقات غريبة فى الصباح أو فى منتصف الليل، يقتحم الغرفة صاخبًا، يقفز بلا استئذان على السرير مدلدلا ساقين يغطيهما بنطلون قديم وحذاء أكثر قدمًا... تكررت زياراته حتى تململ المنزل، حتى سعدية صاحبة مبدأ «الانفتاح» بدأت تبدى اشمئزازها. وأم نادية أرادت أن تخيفنا فهمست فى أذننا ده سواق فى المخابرات. سعدية لا تهتز لمثل هذه الأشياء... مخابرات واللا زفت ميدخلش البيت احنا عندنا ولايا... إجابة أم نادية ليست مقنعة لأحد: هو بلديات زوجها، قابلها صدفة، عرف المنزل، يتردد لأنه بيعطف على الأولاد، كان رد سعدية حاضراً وصريحًا وبذيئًا فى آن واحد، وكان استهجان البرنس صارخًا، أبدى تململه بصوت متوتر خفيض، البيت مليان حريم وراجل غريب داخل طالع عليهم... مش معقول يا ناس، هو مفيش دم، حاول أن يملأنى بشحنات ضد الرجل وضد أم نادية. وعندما اكتشف أن بطاريتى باردة، ولا تستمتع بالقدرة على الشحن اتجه إلى الأستاذ مجدى الساكن فى الغرفة الملاصقة للحمام على اليسار. أحست أم نادية بكل شىء، وهى بالفعل سيدة مسكينة كانت بحاجة إلى رجل يدخل عليها وفى يده أى شىء... فالأولاد كالجراد يأكلون أى شىء، دائمًا جوعى، وهى دائما بلا نقود.

ولهذا حاولت أن تسكتنا برفق، وأن تخيفنا فى مودة وهى تهمس فى أذن كل منا «الأستاذ محمد سواق فى المخابرات». ارتجفت أنا وتظاهرت باللاخوف لكن مسحوقًا باردًا انتشر فى أعماقى... أما البرنس فقد سب كل شىء مؤكداً أن أم نادية كاذبة وأنها تحاول أن تخيفنا. ولفترة طويلة ظل «الأستاذ محمد» محور أحاديثنا وهمساتنا، لقد شرخت العلاقة فى الدور العلوى وأصبح البعض ضد البعض، وفقدت الحياة قدراً كبيراً من حلاوتها. وكان على البرنس أن يحتمل نصيبه من النهاية الحزينة لهذه القصة.... ذات صباح خرج مجدى مبكراً من غرفته على غير العادة (هو عادة لا يستيقظ قبل الظهر ليملأ الدور كله بأنغام تدريباته اليومية على الكمان. بعد العصر يختفى، ينساب فى رقة محتضناً كمانه ولا يعود إلا فى الفجر).

لم يتوقع أحد شراً، فقط دهشنا ونحن نرى مجدى يدعك عينيه ليوقظها بصعوبة، واستند على باب غرفته فى توتر فاتر، عندما ظهر «الأستاذ محمد» صاعداً على السلم اصطدم به، ساعتها فقط أيقنت أنه فنان حقيقى، حاول أن يزعق فخرج صوته حالمًا مثيراً للسخرية، كان يشتم الرجل وكأنه يعزف... وعندما سأله الرجل فى تحدٍ «وأنت مالك؟» تلعثم... ثم سكت ووجهه يشتعل احمراراً ولعله فى هذه اللحظة فقط سأل نفسه موبخًا إياها «صحيح... وأنا مالى؟».

يومان فقط وبعدها طابور من الرجال فى الفجر، كسروا هدوء الظلام بضوضاء مفتعلة، أفزعوا الحى كله. ارتجفت وأنا أسمع دبيب

الأقدام الصاعدة، أيقنت أنهم قادمون لأجلى... أكلت بضع ورقات بافرة عليها العناوين والاتصالات والمواعيد. ألقيت بنظراتى تكنس الغرفة على عجل مفتشة عن أى شيء... لكنهم كانوا يعرفون طريقهم. كسروا باب مجدى. اقتطعوه من سريره وهو بالبيجاما. كان يرتجف فى كبرياء، صامتا لم ينطق، خرجنا جميعًا... أنا خرجت لأتفرج ولأطمئن ولكى لا يثير غيابى شبهة أحد... لكن سعدية استخدمت كل عنفها فى لكمة إلى صدرى، شتمتنى بصوت عال مرتعش «انتو متفرحوش إلا فى المصايب، بتتفرجوا على إيه؟» وفهمت أنها لا تريدينى أن أظهر وانزويت فى غرفتى. وخرج البرنس ومن خلفه رأس زوجته يطل فى حذر، سأل أحد الضباط فى براءته الودودة «فيه إيه يا سيدنا الأفندى» وانزعج الضابط الذى لم يعتد الإجابة على أية أسئلة ورد ردًا عنيفًا، البرنس لم يفتح فمه مرة أخرى فهو لم يعتد على مواجهة الحكام لكن رد الضابط كان إشارة بدء... فانهالت الركلات واللكمات. انزلقت سونة من الغرفة محاولة أن تصرخ. خرجت من غرفتى، توسلت إلىّ نظرات البرنس أن أبتعد بزوجته عن البهدلة. وكان ممتنًا للغاية إذ يهبطون به هو ومجدى عندما رآنى أحتضن سونة فى حنان وأدخلها غرفتها.

ثلاثة أيام كئيبة. لا مجال لوصفها. الحزن العميق المهيب ابتلع كل شيء، بذلنا كل جهد فى تخفيف الصدمة عن سونة، أما مجدى فليس له أحد يسأل عنه. دون جدوى حاولنا أن نعرف أين ذهبوا بهما. أعطيت سعدية خمسة جنيهات فقد خجلت أن أسلمها لسونة مباشرة.

الساعات مضت بطيئة... كسلحفاة ضخمة تتمطى مكانها دون أن تغادره، أم نادية جمعت أولادها وأغلقت بابها عليهم خوفا من أى صدام...

أصبح الدور العلوى كئيبًا. بابان مغلقان... وسونة الباكية دومًا وأنا. فى اليوم الثالث حضر الصول صديق سعدية الذى تعتمد عليه فى كل تعاملاتها مع قسم باب الشعرية... انتحى الصول بسعدية همس فى أذنها بكلمة أو كلمتين، مدت سعدية يدها إلى صدرها وأخرجت نصف جنيه اندس فى يد الصول: نظر إليه فى امتعاض وخرج.

قفزت سعدية إلى ملاءتها... ثم قفزت عبر السلم إلى أعلى مدت يدها وسحبت سونة ودون مقدمات «تعالى نجيب جوزك».

(كان البرنس مرميًا بلا صاحب فى قسم باب الشعرية. أشبعوه ضربًا أمامنا، وأشبعوه ضربًا على السلم وفى الحارة، ثم فى السيارة، ثم احتاسوا به، ليس مطلوبًا، وليس مهما حتى يدبر ضده شىء، لقد ضربوه وأخذوه بحكم العادة. توقفت سيارتهم أمام قسم باب الشعرية وبصوت آمر قال أحدهم للضابط النوبتجى خد ده عندك، أخذوه. رموه فى الحجز أياما ثلاثة. لا أحد يريده، لا أحد يتذكره، لا أحد يعرف حتى اسمه. داخ مأمور القسم السبع دوخات وهو يسأل ماذا نفعل بالبرنس. الاسم جلب له الكثير من السخرية. لا أحد يعرفه. لكن لا أحد يجرؤ على الأمر بالإفراج عنه. فقد يكون متروكًا فى القسم لحكمة ما. فجأة اهتدى أحد المسئولين المحنكين إلى حل...

سأل: هل له أوراق؟... لا. هل هنالك أمر قبض؟... لا. أمر

إيداع... ؟ لا. هل استلمته بإيصال؟... لا. هل أثبت دخوله إلى الحجز فى دفتر الأحوال؟ لا. إذن فالمسألة بسيطة أخلى سبيله).

وأسرع الصول إلى أم لوزة يخبرها ويأخذ الحلوان.

... فى الطريق قابلوه قادماً يستند على الحائط... يوشك أن يتهاوى، أسندوه على أكتافهم، نادونا من أسفل أسرعت حافياً... فتحت أم نادية بابها لأول مرة، لعلعت زغرودة من سعدية. انفلت من عينى سونة إحساس جديد. لعلها أحبت زوجها الآن فقط. استند البرنس إلى كتفى انهمر بذراعه متكئًا على كتفى، عيناه المنكسرتان المليئتان بالقصص تنظران إلى فى حنان. درجة درجة صعدنا. أسرعت سونة وسعدية تعدان الغرفة، ولوزة أعلنت وهى تجرى أنها ستصنع شايًا، أم نادية لاحقتهن بصوتها معلنة أن أهم حاجة حمام ساخن يرم عظمه ويفوقه، جلبابه الأبيض كان قد أصبح رماديًا وتموجات مختلف درجات اللون الأسود تعلن للجميع أن الحمام ضرورة فعلاً...

أحسست كم هو منهك من ثقل استناده على كتفى. عندما وصلنا وجهنى كدفة تقود مركبًا ضخمًا نحو غرفتى. دخلنا وقبل أن يلحق بنا الآخرون تنفس قائلاً اقفل... أقفلت الباب بقدمى. وقف. فرد ظهره لأول مرة... نظر إلى بعمق ثم تهدم إلى أحضانى فى نشيج مرير... بكى طويلاً. كان نحيبه ينساب من الأعماق فى زفرات متقطعة تشعر بها وكأن قطعًا من الحجارة تتدحرج فوق منحدر. دمعت عيناى. أحس بدموعى فازداد نحيبًا.

حكى لى كيف ضربوه، المهانة التى أحس بها وهم يضربونه أمام

زوجته، الشتائم التى انهالت فوقه (الحمد لله اللى مامدوش إيدهم على سونة) كرر لى امتنانه أننى أخذتها إلى حجرتها..

تكلم فأفاق... الجميع بالخارج يتهامسون ولا أحد يجرؤ على فتح الباب. احترموا رغبة الرجل فى أن يمارس حزنه بالقرب من رجل آخر. وأن يعبر عن آلامه وفق طقوس الرجولة المعتادة... وليس أمام النساء.

تحدثت معه طويلاً... الضرب ليس إهانة له... أية شجاعة أن يضرب حيوان بوليسى تحميه السلطة والكثرة والبطش إنسانًا أعزل. طويلاً تكلمنا، الرجولة ليست فى ألا يضربوك، لكن الرجولة الحقة أن تحتمل إجرامهم فى تعالٍ... وحكيت له كيف صمد كالجبل أمام ضرباتهم (لم ترمش لك عين يا معلم) فمسح دموعه. وخرجنا. عمل بنصيحة أم نادية. تقبل منها بمودة صابونة جديدة بورقتها... واستحم فعادت له الحياة.

وفى الصباح ابتسمت نائمًا وأنا أسمع خبطات الطشت والصفيحة وصوت وابور الجاز، واتسعت ابتسامتى عندما لمحت المرح يطفو واضحًا على وجه سونة.

مرح حقيقى ترتسم حوله ملامح رضاء حقيقى.

لكن البرنس وجد نفسه، أصبحت مأساته أداة لتأكيد ذاته، حكاها آلاف المرات (لم ترمش لك عين يا معلم) تعبير أعجبه كثيراً خلق فيه إحساسًا طاغيًا بالرجولة. الغريب أن الضجيج الصباحى قد توقف. (والأغرب أننى لدى عودتى بعد سنوات وجدت سونة وقد أصبحت أمًا).

الغرفة الملاصقة للحمام
على يسار الداخل

مجدى . ، .

عود سيسبان أخضر . نغم حالم ينساب في مرونة وسط غابة موحشة وعالم فج ، عندما تراه منحنياً على كمانه تتخيله مجموعة من النغمات المفعمة بالأسى وقد تشابكت معًا فى حزن مهيب لتصنع رجلاً . يعيش للموسيقى ويعيش بها .

لكن الموسيقى فى بيت كهذا شيء نشاز (أسموه مجدى المزيكاتى . وأشبعوه تنكيتاً خلال ساعات مرانه الطويلة) .

الموسيقى بالنسبة له حلم وحياة ومستقبل ومعاناة (حرمانه شديد القسوة . ملابسه وغرفته وأكله . . . كل شيء ينم عن فقر متمكن يستقبله صاحبه بترحاب ومودة) .

طوال ساعات الظهر وما بعد الظهر يحتضن كمانه خلف بابه المغلق (بابه هو الباب الوحيد المغلق دائمًا) تنساب أنغامه حزينة

ومريرة، تستشعر طعمها المر فى فمك... تتسلل عبر مسامك لتنهمر نحو القلب مباشرة فتخلق فيه مناخًا متضاربًا من الحنان الحزين والشجن المعذب.

لكن الإنصات عند هؤلاء الناس ترف لا يحتمل. يهربون من آلامهم بالحديث والثرثرة. الإنصات يعنى التأمل. أى بؤس أن يتأمل الإنسان فى تفاصيل حياة رديئة وبائسة. التأمل يقتاد أناسا كهؤلاء نحو هاوية معتمة، يهربون منها دومًا إلى اللاتفكير والصوت العالى والبذاءات الضاحكة. وأم نادية لم تكف يومًا عن الأنين، تخطف سيجارة من علبتى وتصيح (ربنا حكم علينا نصحا الصبح على وابور سونة، والظهر على دوشة المزيكاتى).

لا بد أن مجدى يسمعها. أبدًا لم يرد عليها. أبدًا لم يبادلها كلمة. ربما صباح الخير فقط يخطفها وهو منفلت إلى الحمام أو منه، أما مساء الخير فإن أحدًا لم يسمعها منه لأنه لا يعود قبل الفجر.

إنسان منطوٍ، يشعر أن العالم غير عابئ به، فيخلق لنفسه عالمًا خاصًا. وحيد... لا يمل من وحدته. عود سيسبان حقًا، نحيل ينحنى إلى الأمام فى دلال رقيق، ربما لأنه يفضل أن يظل أبدًا فى وضع العازف... ينساب دون صوت، ليس مثلنا من مجتمع الطرقة، الوحيد من السكان الذى يغلق بابه على نفسه. واحد منا لم يجذب انتباهه... أو هكذا خيل إلينا فى البداية.

صباح يوم من الأيام نزلت مسرعًا لأشترى الصحف، وبينما أندفع مع انحناءة السلم المظلمة دوما اصطدمت به مستنداً فى انحناءته الرقيقة على الحائط يتحادث همسًا مع نادية.

انزعجا. طمأنتهما ابتسامتى الودودة أن السر فى بير (عندما عادت نادية من المشغل فى المساء افتعلت فرصة لتحدثنى على انفراد. أقسمت أنها أول مرة، وأنه لم يلمسها. فقط تكلما معًا وعدها أن يعلمها العزف على الكمان. اضطرتنى أن أقسم لها أننى لن أقول لأحد).

أما مجدى فقد رمقنى فى جلستى إلى جوار سونة وتبادلنا حديثًا طويلاً عبر لمحة بصرية سريعة، وبعد الظهر سمعت باب حجرته يفتح ولمحت رأسه المدبب ينفلت من الباب الموارب ثم يعود... (كان يبحث عنى ويتردد. ثم استجمع شجاعته وأتى).

(الحجة ساذجة... عود كبريت. ابتسمت ودعوته للجلوس. على آخر طرف من السرير يجلس فتشعر فى كل لحظة أنه ينزلق فعلاً وسيقع... ابتسم هادئًا ساكتًا. يداه تعبثان ببعضهما البعض... وانحناءاته الطبيعية تسكب كل نظراته إلى الأرض.

أخرجته من حرجه. حدثته عن نادية قلت له إنها فتاة لطيفة طيبة. حذرته من التمادى فأم نادية لا ترحم. فهمنى سريعًا. أحسست أنه يشعر بالحاجة الملحة إلى صديق وأنه عثر عليه).

... ظهر اليوم التالى دعانى إلى غرفته. فتح بابها لأول مرة لزائر (لا بد أنه نظفها خصيصًا مستعداً لهذه الزيارة. فالأشياء

مرتبة ذلك الترتيب المفتعل الذى يعطيك انطباعًا بأن أحداً لم يلمسه بعد. السرير تطل من أسفله كراكيب كثيرة... حذاء. سبت. حلة، كوب به بقايا شاى. براد. جرائد قديمة...).

عندما انفلتت منى نظرة إلى هناك، سبقها بضحكة ليس فيها افتعال قائلاً... أصل الدولاب تحت السرير.

الكمان سيد سكان هذه الغرفة معلق بالاحترام الواجب فوق الحائط، أما بقية الغرفة فيحتلها كرسى أسيوطى كبير يسميه هو باعتزاز كرسى السلطان، وصندوق صابون قديم مليء بالكتب... ولا شيء آخر.

أجلسنى على كرسى السلطان وانهمك هو فى استخراج أشياء من تحت السرير، وابور الجاز، علبة الشاى، البراد... ثم قفز خارجًا متمتمًا باعتذارات غير مفهومة. وحيداً وجدت نفسى، وامتدت يدى تلتقط كتابًا من الصندوق (عبد الرحمن الرافعى تاريخ الحركة الوطنية): أنا إذن بين يدى مثقف. على الغلاف اسمه: مجدى خميس مدرسة كفر الدوار الثانوية. قفز إلى الغرفة فجأة ممسكًا بقرطاس سكر. لمح الكتاب فى يدى قال معتذراً... ده كان زمان أيام الشقاوة (حتى القراءة تحتاج لاعتذار وتبرير...! ولم أفهم).

شربت الشاى مضطجعاً فى كرسى السلطان. وهو كعادته منزلق على آخر طرف من السرير. سألته لمجرد ألا نظل مغلقى الأفواه:

- أنت من كفر الدوار؟

ارتجف ولم يجب. صمت قليلاً كأنه يستجمع أطراف شجاعته.

استجمعها. ضم قبضتى يديه معًا... تنفس عميقًا ثم نطق وكأنه يسدد بقدمه كرة قوية تصطدم عن عمد بحائط من زجاج...

- أنت مين؟

(أنا مين؟ لماذا؟ ولماذا كل هذه المعاناة وهو يسأل؟ هل عرف هو الآخر شيئًا عنى؟ ثم من هو؟ وما معنى اعتذاره حتى عن كتاب الرافعى؟).

استعدت بعض أنفاسى. ورسمت الابتسامة البلهاء المعتادة أجبت فى لهجة التساؤل...

- أنا مدحت... ليه فيه حاجة؟

كزجاجة مقلوبة نزع عنها الغطاء انسكبت الكلمات تتزاحم.

(قال إنه لا يعرف من أنا، وإنه لا يصدق أننى من طنطا، يعرف طنطا شارعًا شارعًا ولم يسمع اسمًا كاسم عائلتى ولا بالشارع الذى أعطيته عنوانا لها... يلاحظ أننى لا أخرج بالنهار وأن أحدًا لا يزورنى... وأننى لا أذاكر كما أدعى).

ظل يقدم أدلته كمحام يترافع فى قضية خطيرة. رقبته أصبحت ضعف حجمها. عيناه متوترتان. لكن صوته لم يختلف أبدًا عن صوت الكمان...

اختتم مرافعته ليعيد سؤاله المرهق:

- أنت مين؟

(كنت قد تمالكت نفسى. تأملته طويلاً وهو يترافع. أحسست أنه خائف. شىء ما يبث الرعب فى خلاياه... أشفقت عليه. لعله

طائر مهاجر مثلى؟ لكنه مبتدئ على أية حال... لكن من هو؟).

- أنت مين؟

تكرر السؤال. وفى برود مبتسم أجبت:

- وأنت مالك!

وكأن دشًا من الماء البارد انهمر فوق رأس المحامى غير المدرب، فأحس بسخف موقفه، ساد صمت. اختفى التوتر ببطء من نظراته. كنت مضطجعًا باطمئنان كامل على كرسى السلطان ودخان سيجارتى يتصاعد فى كبرياء. هدوئى أشعره بالخجل. أخيراً قال:

- أنا آسف. آسف جداً.

(كنت برغم هدوئى المفتعل أشعر بالحرج والخوف، لقد أربكت مجدى، لكننى لم أجب على سؤاله. وما لم أقدم له إجابة مقنعة سيظل السؤال معلقًا فوق رقبتى.

ومن فرط ارتباكى قررت أن أستمر فى الهجوم... كررت السؤال الذى أثار ارتباكه).

- أنت من كفر الدوار؟

(الزجاجة ما زالت مقلوبة. والغطاء ما زال منزوعًا. تتدفق الكلمات كأنها تتسابق، محبوسة هى منذ أمد تبحث عن صدر حنون تستريح إليه وتتمدد فى الهواء الطلق، انهمرت الكلمات. تزاحمت، كل منها تريد أن تهرب قبل الأخرى من صدر فنان يضيق بالأسرار).

- لست سياسيًا ولم أكن. ابن عمى قتلوه. كان أخى وصديقى ومعلمى. علمنى كل شىء من صناعة الطيارة الورق، إلى صيد

السمك، إلى ركوب العجل. أكبر منى بكثير. لكننا لعبنا معًا... تربينا معا فى بيتنا، أبوه مات وهو صغير. بسيطًا كان وعاقلاً أيضًا. ينصت طويلاً إلى عبثى المبتدئ على الكمان ويشجعنى بإلحاح ويقنع أبى أننى لا أضيع وقتى... الموسيقى لغة الإنسان المقبل... هكذا كان يؤكد. لم أزل أذكر جلساتنا الطويلة على شاطئ الترعة، سناراتنا مدلاة إلى الماء تستجدى سمكة صغيرة لكننا نستمتع بالهدوء والثرثرة. حكى لى فى هذه الجلسات أشياء كثيرة. أحلامًا كثيرة. أن يتم تعليمه... أن يتزوج... كان يعمل طول الوقت لكنه أبدًا لم يدع أنه مشغول. يعمل بالمصنع. يذاكر. يذهب للنقابة. يلعب معى. يستمع إلى عزفى. يقرأ كتبًا كثيرة. يتناقش فى السياسة. وكان الإضراب. قبضوا عليه. وأعدموه. فى يومين انتهى كل شىء. ذهب أبى ليودعه، كان مبتسمًا وهادئًا. أرسل لى وصية أن أستمر فى العزف فالموسيقى لغة المستقبل. حتى هذه الأشياء الصغيرة تذكرها قبل أن يقتل. بحثنا عن قبره طويلا وفشلنا. ذات مساء خرجت من بيتى دون هدف، فجأة تخيلته قادمًا من ناحية القهوة. يهز يديه كعادته يمشى كأنه يتأرجح. وجدت نفسى أمسك قطعة طباشير. كتبت على الحائط يسقط القتلة. فى اليوم التالى وجدتها ممسوحة. كتمت غيظى وأعددت كمية من الطباشير الملون. عزفت على الكمان بدموعى لأستمد الشجاعة من لغة المستقبل ثم خرجت. بالطباشير ظللت أكتب على كل جدار... يسقط القتلة. لم نجد قبره. فليكن كل جدار شاهدا له. أمسكنى مخبر. جرنى إلى

القسم. ضربونى. فتشوا البيت كانت كتب الرافعى دليلاً ضدى والكمان أيضًا كان دليل إدانة. وكمان بتاع مزيكة؟ وعندك كتب؟.

وإلى قسم البوليس عادوا بى. لم ينس الضابط صورة الكمان المعلق على الحائط. كان يوصى الجنود حاسبوا عليه دا رقيق وبتاع مزيكة. ويكون تهكمه إشارة لكى يزداد الضرب حماسًا. لم أعد أشعر بشىء. فى البداية تألمت وبعدها كنت مجرد كرة يتقاذفها مجموعة من الشياطين. طرحونى أرضًا، بطنى لامست البلاط. يداى ممدودتان إلى الأمام، ركز الضابط أنظاره على أصابعى. بها أرتكب جناية العزف على الكمان. داس عليها بحذائه وتوقف فوقها ليثرثر مع صاحبه وهو يدخن سيجارة. صرخت. الألم قاتل. الخوف على أصابعى أشد من الألم. أدركوا نقطة ضعفى. تناوبوا الوقوف فوق أصابعى قلبى انخلع بعيداً. أنفاسى ضاقت. الصورة انقلبت، هم الآن فى السقف وأنا معلق فى الهواء... أصابعى أفيال ضخمة، ألم أسطورى يجتاح المكان، أنا شىء آخر. شخص آخر يتعذب. أنا فقط أتألم من أجله. الأصابع ليست لى. وهى لم تعد أصابع. وينتهى الحلم المخيف وأنا محمول إلى بيتى.

أمى كادت أن تموت من الخوف على. وأبى واصل وجومه المستميت منذ لحظة وداع ابن أخيه. تركونى وذهبوا. أمى لمست جراحى ومن فرط حنانها أحست بالألم. تفجرت آلام قاتلة. أحسست بنفسى عادت إلى ذلك الجسد المنهك من التعذيب. الآن

فقط أدركت أن الشخص الذى ضربوه هو أنا وأن آلامى من داخلى وليست من أجل إنسان آخر.

وفى المساء التالى أتوا. كنت لم أزل راقداً فوق الألم. وزعت فى المدينة منشورات فمن وزعها؟ على الجدران كتابات من كتبها؟ من شركاؤك؟ من شركاء ابن عمك؟ من أصدقاؤه؟ من كان يزور؟ كنتم تخرجون معًا إلى أين؟

أخطأت فقلت كنا نصطاد سمكًا. أعجبتهم الفكرة. علقونى من يدى كسمكة أهملها الصياد فى طرف سنارته. نسونى ساعات طويلة وأنا معلق. عاد الشخص الآخر يتعذب وأنا من أجله أتألم. عند الظهر تركونى.

لكن زياراتهم تكررت. كنت أنا الفريسة المتاحة. كل منشور يوزع. كل شعار على جدار يأتون... وقررت أن أترك لهم كل شىء. البلد والبيت والمدرسة.

حملت كمانى ورحلت. حتى أمى لا تعرف مكانى. كل أسبوع أرسل لها خطابا. منذ شهرين زرتها عند أقاربنا فى طنطا. ارتمت فى أحضانى بكت طويلاً وبكيت. من فرط شوقها استحلفتنى ألا أعود، الصقور تبحث عنك. المخبرون يملأون الشارع. اختفاؤك صور لهم أنك خطير، وأنك خلف كل تذمر، المنشورات كثيرة، سيضربونك من أجلها جميعًا.

كان اللحن الحزين ينساب فى عذوبة. هادئة كانت أنغامه. لم يعد خائفًا. وجهه امتلأ بالبراءة والطفولة. قال إنه يحاول أن يذاكر.

سيدخل الثانوية منازل. أوصاه ابن عمه أن يكمل تعليمه. يأكل خبزه من العزف للسكارى ضمن فرقة موسيقية فى أحد الأندية الليلية. ما يؤلمه حقًا أن أحداً لا ينصت له أو لغيره. (نحن مجرد مزة للسكارى).

(وانتظر منى أن أحكى له حكايتى مقابل حكايته. ونبقى خالصين. لكننى فاجأته بسؤال آخر. هل حكى حكايته لأحد من سكان هذا البيت. فقط لنادية قال إنه لا يستطيع العودة لبلدته وقال لها اسمه كاملاً... وبينما هو يتكلم بهدوء انفلت أمام عينى سهم أحمر يمتد من نادية لأمها ومن أمها للأستاذ محمد. وأشفقت على مجدى).

وكان لا بد للحديث أن يتوقف، أى حديث يتوقف مهما استطال. ومهمتى أن أبحث عن نهاية لا تجبرنى على أن أحكى له شيئًا ولا توحى له بأننى أهرب من شىء. مددت يدى لالتقاط كتاب من كتب الثانوية العامة وأجبرته أن يقبلنى على الفور مدرسًا خصوصيًا. ووعدنى بعد إلحاح بأن يذاكر، وأن يتقبل مساعدتى.

(الغريب فى الأمر أن مجدى لم يعد إلى سؤاله... من أنت؟ كان بحاجة إلى الاطمئنان فاطمأن. وإلى صديق فوجده. ورويداً رويداً فتح مجدى باب غرفته واندمج مع الجالسين فى الطرقة، وأصبح واحداً من هذه الأسرة).

وجاءت النهاية سريعًا. فقد جلس البرنس إلى مجدى واستطاع أن يشحن بطاريته وتصادم مجدى مع الأستاذ محمد.

ربما حبا فى نادية، وربما خوفًا عليها وخوفًا من وجود أحد ذيول المخابرات فى المنزل.

وكان الصدام.

ضحكنا بعده كثيراً. وظللنا نضحك طوال الليل وأم لوزة تمسك بقلبها قائلة اللهم اجعله خير.

كان منظر مجدى وهو يحاول أن يبدو غاضبًا ومنفعلاً يثير الضحك فعلاً. كان يصرخ فى هدوء غريب، صوته ارتفع حقًا ولكن دون أى قدر من الشراسة حتى شتائمه كانت متحضرة وكأنها تتلى فى فصل مدرسى، ولا تليق بتاتًا بشجار فى منزل كهذا وفى حارة كهذه...

- أنت مش مهذب. معندكش أخلاق.

ولا يملك الناس إلا الضحك. أما الأستاذ محمد فقد اكتفى بالصمت. وخرج ولم يعد ليومين. جميعًا تصورنا أنها نهاية علاقتنا بالأستاذ محمد. حتى أم نادية لم تعاتب مجدى، كانت تضحك معنا وكأن الأمر لا يعنيها.

وفى مساء اليوم الثالث أتوا... وأخذوا مجدى. وأقسم البرنس بعد أن عاد أن الأستاذ محمد كان يقود السيارة.

لم يعد مجدى.

وعاد محمد للظهور. دون سابق إنذار صعد السلم حاملاً كيسًا به تين شوكى، دخل كأن شيئا لم يحدث لكن فى عينيه إنذاراً صامتًا، تسلق سرير أم نادية... دلدل أقدامه كعادته...

أحسست بكعب حذائه فى حلقى.

الغرفة المنزوية أمام الحمام
على يمين السلم

أم نادية . . .

مسمار صدئ مثبت بطريقة عابثة فى حائط العذاب الأبدى .

أم لأفواه خمسة ، زوجها مسجون لجريمة سرقة .

كأسرة أى لص شهدت أيامًا هنية مليئة بالخير ، وأياما كلها عذاب .

(تروى عن زوجها قصصا كالأساطير ، تستطرد فى استرجاع أيام العز ، أيام كانت النقود تجرى فى أيديها وتلعب بالفلوس لعب . ثم تفيق من الحلم لتسبه بشناعة فعندما يمتلئ جيبه بالنقود لا يعرفها . يسد فمها ببعض المال ثم ينصرف لإنفاق الباقى على سهراته وصديقاته . متوحش معها . ترتجف منه ويرتجف الأولاد لمجرد سماع صوته . يلهو طوال فترات إطلاق سراحه ، ولا تشعر أنها زوجته بحق إلا عندما يسجن .

تزوره فى السجن بانتظام، يقسم لها من خلف الحاجز الحديدى أنه تاب وأنه يحبها وسيقبل أقدامها عندما يخرج، لن يعرف واحدة سواها. ثم يخرج ليضربها فى الليلة الأولى نفسها).

(... هذه المرة أيضًا أقسم للقاضى أنه برىء. كل مرة يشتمه القاضى لكن قاضى المرة الأخيرة كان صامتًا. كان القفص مليئًا برجال مثله والقاعة بنساء مثلها وأطفال كأطفالها... كل من فى القفص أقسم أنه برىء... القاضى يستمع ولا ينطق).

فى نهاية الجلسة نطق... مجرم عائد. خمس سنوات سجن.

انهار أبو نادية، كل مرة كان يحكم عليه بثلاثة أشهر أو ستة أشهر، خمس سنوات هذه المرة. بكى. الوحش المتجبر بكى. انهار أمام أطفاله... أوصاها بالأولاد... للمرة الألف أقسم أن يتوب.

(وصيتك الأولاد يا أم نادية... وصيتى؟! طيب أأكلهم منين. وتتوه أم نادية مع الحياة. تلتقط رزقها ورزق أولادها، الأفواه الخمسة من لا شىء، تدبر أمرها أكلة بأكلة. تخرج كل صباح تغسل، تنظف بيتًا... تعمل أى عمل، تبيع نفسها... كله ماشى وكله أكل عيش... اعتدت على حيلها الصغيرة وتقبلتها كأمر واقع... ترسل ابنها الصغير: ماما بتقولك هات عشرة صاغ سلف، معاك ربع جنيه فكه؟ عندك شوية سكر؟ تستلف وابور الجاز ممتلئا ثم تعيده فارغًا حتى آخر قطرة. وبرغم كل جهودها تبقى المعضلة الأزلية كيف تأكل الأفواه الستة كل يوم ثلاث أكلات وحتى أكلتين. نادية تعمل فى المشغل بجنيه وربع فى الأسبوع حلمها الكبير أن تدخر لتشترى

ساعة. لن يتحقق هذا الحلم فأجرها هو الإيراد الوحيد الثابت للأسرة... والباقي يعتمد على شطارة الأم التي حازت دومًا شرف النجاح - وبمختلف الحيل - في أن تدبر للأفواه الستة طعامًا قل أو كثر).

نادية أجمل أنثى في هذا البيت، رقيقة، صدرها أول ما يجذب الانتباه... عصفوران شقيان يقفزان مع كل حركة... في رشاقة تختال مدركة كم هي جميلة، بوعي الأنثى الناضجة مبكرًا تتعامل، قادرة دومًا على أن تذيب أي رجل بلمحة من طرف عينيها العسليتين، أو بحركة خفيفة من صدرها اليقظ دوما.

كل صباح تخرج إلى المشغل وتعود بعد العصر... تصعد السلم وكأنها منهكة تستند إلى الحاجز في استرخاء متعب ومثير معا. لكنها ما إن تصل حتى تقفز كالعفريت وتملأ البيت كله حيوية... تنط إلى غرفتي تطلب شوية شاي ثم إلى غرفة سونة تشحت الوابور، ثم إلى أسفل لتسمع المسلسل عند أم لوزة، ثم إلى أعلى لتحكي قصصًا عن المشغل لا تنتهي. فراشة نشطة ومرحة، ضاحكة دومًا، تبدو على سجيتها لكنها ليست ساذجة وليست بلا أنياب (ذات يوم اشتبكت أم نادية في عراك مع جارة في طرف الحارة. امرأة مظلمة كالحة الوجه، تزيده سوادا بخطوط عريضة من الكحل... تمتلك لسانًا طوله سبعة أمتار ويدًا أطول. يخشاها الجميع، تهجم كالغولة على خصمتها وتنهار فوقها بجسدها الضخم يداها تلتفان على شعرها وأسنانها تقوم ببقية المهمة... أم

عاشور بعبع الحارة كلها، يخشاها الجميع ويتحاشاها الجميع، عندما تبدأ الردح فإن أحداً لا يوقفها. تستخدم مختلف المعدات ابتداء من الطبلة إلى الصاجات إلى الزغاريد إلى مختلف قواميس الشتائم وفى بعض الحالات الاستثنائية تستخدم ضد الخصوم سلاح «الاستربتيز» تخلع ثيابها... ليعلم الجميع أنها ليس لديها ما تخشاه أو ما تخجل منه.

مع هذه الغولة اشتبكت أم نادية. أشاعت عنها أم عاشور أنها ماشية على كيفها وأنها لا تخدم إلا فى بيوت العزاب، وأن عاشور قد رآها عند الأزبكية مع رجل... حاولت أم نادية أن تسد هذا الفم الثرثار بقليل من العتاب المسكين... عيب يا ست أم عاشور احنا جيران وأنا ولية وغلبانة وباجرى على خمس أولاد... أم عاشور غولة لا تعرف منطق التودد، ردت على الكلمات المسكينة بشتائم بذيئة وأغلقت بابها فى وجه أم نادية ولحقتها من النافذة بسيل من الشتائم والاتهامات، لحقت نادية أطراف المعركة... كانت أمها تتراجع مهزومة باكية. انقلبت نادية وحشاً صغيراً لكنه مفترس على أية حال. نادية الرقيقة الوديعة أطلقت سيل مدفعية ثقيلة باتجاه أم عاشور. صوتها الهادئ أصبح رعداً، انهمرت من فمها طلقات الشتائم... شتائم من كل نوع معروفة ومبتكرة... كانت الفتاة الصغيرة تتألق فى عبقرية نادرة وهى توجه شتائمها ضد خصم كأم عاشور مستخدمة محصولاً لغوياً بالغ الخصوبة والإتقان.

ترددت أم عاشور، تلعثمت، سكتت. ثم شنت هجوماً مضاداً،

لكن الصوت الفتى والإبداع اللغوى المبتكر والمتقن أذهل أم عاشور. وأذهلها أكثر أن هذه المفعوصة هددتها إذا ما فتحت بابها بأنها ستكسر رأسها... هاجت الغولة، اندفعت للخارج تدافع عن هيبتها ماذا سيبقى لها لو تراجعت أمام عيلة كنادية... فتحت بابها واندفعت كالصاروخ نحو نادية، يبدو أنها تعثرت، أو أن نادية كانت ماكرة بما فيه الكفاية. المهم أن يديها تمكنتا من شعر الغولة واستخدمت السلمتين الفاصلتين بين الباب والشارع كمصيدة، تعثرت عليها أم عاشور وانهار الجبل، تكومت الجثة السوداء على الأرض فى ارتباك، قفزت نادية وأمها فوق الكومة وأشبعتاها ضربًا وعضًا، وارتفع صراخ الغولة يعلن استسلامها، تدخل القهوجى والبقال ورجال كثيرون، سحبوا نادية وأمها بعيدًا بينما يعلو صوتاهما بزغاريد الانتصار وسيل الشتائم المتوعدة ينصب على رأس الغولة...

فستان نادية تمزق تمامًا، العصفوران انطلقا عاريين، هى لا تعبأ، ولا أحد يعبأ، تعثرت على السلم وأنا أسرع إليها بأحد قمصانى، كانت سعيدة بانتصارها، أنفاسها ترتعش من التعب والتوتر ووجهها أحمر كالقرنفلة، صدرها يقفز بفخار، العصفوران يزدادان شقاوة، عريهما يمنحهما المزيد من الانطلاق. تلقفت القميص، لبسته، لكنها تركته مفتوحًا وظل صدرها كما هو عاريًا، كانت مشغولة بانتصارها. بعد نصف ساعة عادت كما كانت هادئة وديعة سألتنى برقة «أنت عايز القميص... أصله ينفع بلوزة؟».

انتهت الخناقة وبقيت آثارها... أم عاشور صبت كل شتائمها على البيت كله سكانًا وأصحابًا... يتركون المرأة على حل شعرها... ذكرت الجميع بالأستاذ محمد وبأنهم ساكتون عليه، راضون بهذا السكوت... اللعنات انصبت على الجميع وذكرتهم بسكوتهم... الأوصاف انهمرت ضد الجميع. بعد هزيمتها زادت شراستها، كل صباح تقبع خلف شباكها كالأسد الجريح تجتر اللعنات نفسها بصوتها الجهورى. أصبحت وجبة صباحية ثابتة، ينتظرها كل سكان الحارة... والجرح الذى بلا دواء هو الأستاذ محمد.

(لا أحد يعرف كيف تسلل إلى الأسرة. نادية التى هزمت أم عاشور ترتجف أمامه، تعلم تمامًا ويعلم الجميع أن عينه عليها هى. عينه فارغة. نظراته فاضحة. ألفاظه تفوق الجميع بذاءة. يعاملهم بتعالٍ وكأنه سيد البيت... بقروش قليلة يستعبدهم، يعرف أنهم بحاجة إلى هذه القروش... يحدثهم طويلاً عن نفوذه... المخابرات كلها تحت أمره... كل الضباط يحبونه، يعرف كل أسرارهم وأسرار زوجاتهم. دخل منازلهم ويعرف خباياهم ويأتى كل يوم بقصة جديدة يبعثر الأسماء والرتب والأوهام فى تعال غريب بينما الأسرة كلها تنظر إليه فى ذهول. الأم والبنت تعلمان جيداً ماذا يريد. يريد نادية ثم يذهب. نادية تعرف وتتحاشاه، الأم تعرف وتؤجل الأمر تريد أكبر قدر من قروشه قبل أن يذهب وتود لو يرضى بها هى...).

وجاءت قصة مجدى. وبعدها إلحاح أم عاشور الملعونة. لتجعل من الأستاذ محمد موضوعاً للحديث المستمر فى الطرقة.

حزنت أم نادية معنا من أجل مجدى. شتمت محمد معنا. لكنها تخشاه. رجل ذو نفوذ. ذهب بالشاب فى شربة ميه. كيف تتحداه هى. ممكن يوديها فى حديد ومعها أفواه خمسة تريدها. وعدها بأن يفرج عن زوجها بنصف المدة وأن يجد له عندما يخرج عملاً بالمخابرات. نظراتنا جميعًا أوحت إلى أم نادية أن عليها أن تختار بيننا وبينه.

اختارتنا دون تردد.

(بس ده راجل مفترى. أنا ولية مقدرش عليه. اعملوا اللى انتو عايزينه. سى مجدى زى ابنى. وأنتم أهلى. بس نعمل إيه. أم لوزة نظرت إلينا جميعًا. وإلى أنا بالذات. كانت صامتة طوال الوقت. المرة الوحيدة التى لم تستخدم فيها لسانها الطويل فى حل مشكلات الحياة. وزعت أنظارها بين الأرض وبينى لتفكر وتطمئننى أنها لن تسمح بتكرار ما حدث لمجدى... بعد صمت قالت: أنا حاتصرف... قالتها مرة واحدة ولم تكررها. نسينا أنها قالت ذلك. وتركنا الأمر كله...).

... عاد الأستاذ محمد. استقبلته الطرقة بالوجوم. دخلنا وأغلقنا علينا أبوابنا. أقدامه المدلاة فى زهو كانت تدق رؤوسنا أحس كل منا بالضعف ينغرس فى أعماقه. أحسست بالخزى... حتى سائق المخابرات يرعبنا جميعًا.

أم لوزة، لدهشتنا استقبلته بترحاب. لوزة نفسها رحبت به. وبدأت معركة اصطياد الثعلب.

(ذات مساء ليس ببعيد ارتفع صراخ لوزة عاليًا ومفزعًا. اندفعت موجتان من الناس. نحن من أعلى فالصراخ يأتى من بير السلم. وسكان الحارة والمارة ورواد القهوة وزبائن البقال اقتحموا باب البيت.

أم لوزة سبقتنا ومعها لمبة جاز. كان الأستاذ محمد محاصراً فى عمق انحناءة بير السلم عاريًا تمامًا...).

(... يومًا بعد يوم تودد إليه لوزة. ابتسمت له. احتكت به على السلم وهو طالع. سبقته بسلمتين. ظلت تحافظ على هذه المسافة. أردافها توشك أن تلاصق وجهه، شعرت بلمسة من يده، قفزت ضاحكة دون احتجاج. فى اليوم التالى اصطادته وهو نازل. نزلت معه. عندما جاوزته امتدت يده إلى صدرها ضربته على صدره فى دلال، وجرت.

ثم كان بينهما موعد. فى عمق ثنية بير السلم المظلمة لا أحد يقترب منها - احتضنها وأنفاسه تنقطع من فرط الشوق. أراد نادية وتمنعت وإذا بلوزة ترتمى تحت أقدامه. طلبت إليه أن يخلع ملابسه حتى تحضر حصيرة. عادت لتجده عاريًا تمامًا. تحسست الجسد العارى فى اشمئزاز. عندما امتدت همسته اقلعى... صرخت بأعلى صوتها. الأم منتظرة بلمبة الجاز وارتفع صراخها عويلاً جذب سكان الحارات المجاورة. ارتبك الثعلب مد يده ليرتدى ملابسه لكن أم لوزة

كانت قد استولت عليها منذ اللحظة الأولى.. وأتى الجيران رجالاً ونساءً وأطفالاً... حتى الغولة أتت... الأمر لا يحتاج إلى وصف رجل عار يريد أن يفترس إحدى بنات الحارة... عاريًا كما هو، تعرض لضربات الجميع... وعاريًا كما هو، ساقوه أمامهم إلى القسم... زفوه بالسباب واللكمات والموكب في كل خطوة يزداد اتساعًا. الوحش يبكي. يداه حائرتان تخفيان ما لا يجب أن يراه الناس أو تحميان الوجه من الصفعات والبصاق. المتطوعون في هذه الحالة كثيرون، رجل متوجه ليشترى شيئًا لأولاده أو جالس على قهوة... أو ينتظر أتوبيس يسأل عن الحكاية... ثم تمتد يده باللكم... أو شفتاه بالبصاق وأولاد الحلال كثيرون... البرنس كان سيد الموقف. انتقم لنفسه تمامًا... وانتقم لمجدى... خرجت من حذرى. خالفت التعليمات. سرت على حافة الموكب. سعادة غريبة تغمرنى... أمام القسم انفض الموكب. فرقهم عسكرى بإشارات غاضبة وضاحكة معًا. دخلت سعدية والبرنس ولوزة وعشرات الشهود... الصول - صديق سعدية - فتح المحضر. حاول المسكين أن يهمس فى أذنه أنهم زملاء وأنه مخابرات. نهره الصول بعنف وسأله عن بطاقته... أية بطاقة والملابس كلها ضاعت... عاريًا كما هو حرر له الصول محضر تشرد. ومحضر هتك عرض... وعاريا كما هو، ألقوه فى الحجز. نفس الحجز الذى نام فيه البرنس ثلاث ليالٍ.

عندما عاد الموكب إلى البيت يزف انتصاره بالزغاريد بكيت... تذكرت عود السيسبان الأخضر... أين هو الآن؟ انتقمنا له دون أن

يدرى، فمتى ننتقم للآخرين؟ إلى حجرتى وأنا أعالج أحزانى التى تفجرت سريعة كعادتها تسللت سعدية... فاجأتنى تمامًا وأنا مستغرق... وجدت نفسى فى أحضانها. قبلتنى بحنان. أحسست بلمساتها الدافئة. همست فى أذنى ونحن فى قمة النشوة... أنت فى عنينا من جوه.

الغرفة على يمين السلم
فى مواجهة غرفة سونه

أنا...

تعرفوننى جميعًا منذ البداية.

لست مدحت، مدحت مجرد اسم سرى. أسماء كثيرة نادانى بها الناس، شكرى، حسن، صفوت، صلاح.

أى اسم ثم قصة تنسجها، تحكيها لنفسك ثم للناس، ترددها حتى تصدقها وبها تتعامل، وتجبر نفسك أيضًا على أن تتعايش مع شخص جديد، يولد، يتكون، تتحد مع معالمه، ثم يقيم فى داخلك، ليس أمامك سوى أن تطيعه. وأن تتحرك. وتتصرف وفق هواه.

أليس غريبًا أن تكون بأكثر من اسم؟

اسمك فى الحزب، واسمك فى المكان الذى تعيش فيه، وهناك أيضًا ذلك الشىء المنزوى تمامًا فى أعماق بئر سلم الذاكرة... اسمك الحقيقى.

أى حقيقة... وأى اسم؟

فى لحظات يخيل إليك أنك فعلاً مدحت... وأن الحقيقى هو ذلك الشاب الذى تحبه نادية، والذى عاش لحظات الحب الممتع مع سعدية، أو أنك ذلك الآخر الذى يحضر اجتماعات المساء يناقش السياسة ويعيش بها... أما ذلك المنسى القديم المدون فى شهادة ميلادك الرسمية، فهو الزائف.

اسمك يتغير وفق الظروف. إذا سقط منك لا تنحنى لتلتقطه. لا تصحح أى خطأ ولو صغير. ففى هذه الأحوال ما من خطأ يمكن أن يصحح، والاسم السرى مثل كوب زجاج هش يسقط لينكسر... اتركه وابتعد وإلا أصابتك شظاياه...

وهكذا فأنت تعيش بغير نفسك، بعيداً عن ذاتك، تخلق شخصاً آخر، وتنسج من خيالك قصة حياة متكاملة، ثم تصبح أنت ذلك الآخر. ثم تتركه، تغير السكن والجيران، تنسى الجميع وتبدأ حياة جديدة مع أناس جدد، ومع شخص آخر جديد يتمدد مقيماً فى استرخاء غريب فى أعمق أعماقك.

وقد يذهب مدحت، قد تنساه وقد تنسى أصدقاءه، لكنه لا يموت أبداً، يبقى فى أعماقك، ومهما حاولت أن تتجاهله يبقى، أو تبقى على الأقل قطعة منه. أحياناً تطفو بلا سبب واضح، تلح على ذاكرتك بدون مناسبة... وفجأة يأتى مدحت وتتوالى معه كل الذكريات.

وفى أحيان تقودك قدماك بالقرب من مسكنه، فى هذا الطريق كان يسير، هنا كان يتمهل لينظر خلفه، عند هذا البقال اعتاد أن

يشرب كوكا كولا ويلمح أقصى الطريق ويتأكد، لكنك مع ذلك تنكر هذا كله وتمضى، لا تعرف أحداً ولا تريد لأحد أن يعرفك.

وربما التقيت بواحد من هؤلاء الذين عرفوا مدحت، يناديك باسمه، قد تتجاهله وقد تحييه فى برود، فهو غريب عنك، أنت لم تعرفه من قبل، الذى يعرفه شخص آخر اسمه مدحت.

(ذات مساء... بعد عشر سنوات أو أقل، كنت مع مجموعة من الأصدقاء دعوتهم إلى العشاء فى الملهى الليلى لفندق كبير، فجأة هبط علينا الجرسون بزجاجة شمبانيا، فهبط قلبى إلى قدمى... صعقت فثمن الزجاجة فادح، حاول أحد الضيوف إنقاذى محتجاً. لم نطلب شمبانيا، ابتسم الرجل فى احتقار قائلا «دى تحية من كابتن مجدى لمدحت بك... تلفتنا جميعاً، ليس فينا مدحت بك، سقطت عيناى على ابتسامة وديعة، هناك وسط الفرقة الموسيقية... عود السيسبان أصبح عملاقًا، يقود الفرقة، يحتضن الكمان فى اقتدار، ينتزع التصفيق حتى من السكارى. عرفته أولا من ابتسامته، ثم من هذه الانحناءة الودودة على الكمان، أرسل لى تحية بعينيه، لم أحاول أن أفسر الأمر لأصدقائى... ضحكنا وشربنا الشمبانيا وأنا غارق فى الإصغاء للعزف... صمتت الفرقة. أمسك أحد فتيانها بالميكرفون وبالإنجليزية الخاصة بالنوادى الليلية قال «كابتن مجدى رئيس الفرقة يعزف منفرداً تحية لصديق قديم»...

أبدع عود السيسبان، أنا وحدى تحت الدموع فى عينيه، لكن الجميع تعلقت أنفاسهم بأوتار الكمان التى انسابت ألحانها فى

ترانيم حزينة... كنت معه، عدنا معًا إلى هناك، جلست على الأرض مع سعدية وسونة ونادية وأمها ننصت له... دوى التصفيق، أنا وحدى لم أصفق، كنت هناك. وأتى مجدى ليحتضننى، التفت إلينا كل من فى الصالة، همست فى أذنه اسمى ليس مدحت. ضحك قائلاً أعرف، وكنت أحس ذلك من البداية، ثم عرفت اسمك أخيرًا يا دكتور عندما شاهدت صورتك على غلاف أحد كتبك. أصدقائى رحبوا بمجدى فى استعجال، أراحونا وغرسوا أعينهم وكل خيالاتهم فى جسد الراقصة المترهل. تركونا وحدنا... حكى كيف استقبلوه بعد القبض عليه... العذاب، الاستجواب، التعذيب، مأساته أنه لم يكن لديه ما يعترف به... لم أكن أصغى إليه تمامًا، فأنا أعرف القصة... أحس بذلك فقال ضاحكًا: لماذا أحكى لك؟ لا بد أنهم فعلوا معك أكثر... بلعت ريقى محاولا أن أبتلع معه كل الذكريات السخيفة. أردت أن أغير الموضوع، ابتسم فى خجل عندما أكدت له أنه أصبح عازفًا رائعًا... هل زرت سعدية؟ طبعًا. وقالت أنك زرتها مرة واحدة عقب خروجك من السجن، أنا زرتها أكثر من مرة. أخذت زوجتى إلى غرفتى القديمة التى تسكن فيها الآن نادية. تزوجت ولديها طفلان، وفى ابتهاج حقيقى أضاف: والبرنس أيضًا عنده ولد وبنت... كتابك الأول عند سعدية تحتفظ به فى الدولاب ملفوفًا فى جرنال قديم، تحت صورتك عليه عند بائع الجرائد، دفعت فيه جنيهًا كاملاً وهى تسب، لم تزل تسب حتى الآن، فلا أحد يقبل أن يقرأ لها فيه. لوزة تزوجت وتسكن بعيدًا،

أولاد أم نادية يطلبون فى كل مرة شلن كى يقرأوا لها صفحة أو أقل، وهى لا تفهم شيئًا مما يقرأون... استرخى فى الكرسى ومدد قدميه، تذكرت كرسى السلطان، ضحك مرة أخرى بصوت عال. انتهت الراقصة من هز جسدها المترهل، عاد لنا الأصدقاء. وكان لا بد له أن يعود ليعزف، شد على يدى. قبلنى مرة أخرى، لا بد أن تأتى لزيارتى، زوجتى تريد أن تراك...). وأيام الهروب تمضى بطيئة، الزمن فيل ضخم يتحرك ببطء قاتل، الخروج بالنهار ممنوع، لكن أمامك مهام كثيرة بعد حلول الظلام، أن تختبئ ولا يقبضون عليك أبدًا فهذه مسألة سهلة، لكن الصعب أن تواصل نضالك السياسى والحزبى وأنت مختبئ، أن تلتقى بالناس، أن تغامر فى كل لقاء، وأن تتحمل مسئولية أى خطأ قد يقع فيه واحد من هؤلاء الناس الذين تقابلهم... الصعب أن تجعل من اختفائك عملا نشطًا وليس مجرد هروب...

لكن ساعات النهار تمضى على مهل، فأنت فقط تستعد للظلام أو تقبع فى انتظاره، أحيانًا تعلق أبصارك بقرص الشمس وكأنك تتوسل إليه أن ينحنى بسرعة نحو الغروب، لكنه يمعن فى الإبطاء... الدردشة المضنية مع سونة أو أم نادية تنثر الصدأ حول عجلة الزمن وتمنعها من السير، الثوانى تتمطى فى ملل، تستطيل حتى توشك أن تمسك بها، أحاول أن أتفلسف وأربط الزمان بالمكان، فلو كنت فى مكان آخر لمضى الزمن بسرعة أكبر وربما أحسست بالندم لإسراعه، أتذكر مقالاً معقدًا قرأته وأنا صغير، لم

يعلق فى ذهنى سوى العنوان «الزمكان» وسوى أنى لم أفهم منه شيئًا إلا محاولة ربط الزمان بالمكان.

لا بد من ساعات طويلة أقضيها فى غرفتى، أسرح، أستعيد نفسى بعيداً عن سعدية وسونة وأتذكر مهام ما بعد الظلام.

ومن نافذة صغيرة فى غرفتى أطل على عشرات الأسطح، ساعات طويلة أقضيها متأملاً الأسطح بكل ما تمتلئ به من كراكيب وسكان، وتنبت هواية غريبة، أن أتأمل الغسيل المنشور فوق الأسطح، منه تعرف جيرانك وتعرف أيضًا كل خصائص حياتهم، الملابس من كل الأنواع، جلاليب، فساتين، وأكتشف ملاحظة عامة... الرجل اختار اللون الأفضل. الجلباب دائمًا أبيض وترك للمرأة فى أغلب الأحيان اللون الأسود... وتفاصيل أخرى تلاحظها... السطح المجاور تتهادى فوقه كل يوم أنغام من ألوان وأقمشة فاخرة، فتاة أنيقة للغاية تسكن هنا، وسط هذا الفقر الممعن، قطعة من حبال الغسيل أتت من الزمالك... تساءلت فى سرى أية واحدة تكون ممن أراهن فى الشارع؟

(ذات يوم كانت سعدية محشورة إلى جوارى، تطل معى من النافذة الصغيرة، رأسانا فقط يجدان مكانًا خارج النافذة، بينما الجسدان يمتزجان معا، ربما فى رغبة متبادلة تحاول أن تستر نفسها بادعاء البحث عن شيء خارج النافذة، مضت تتحدث عن صاحبتها مباشرة ودون مقدمات وكأنى أعرفها... زى القمر، بس أخوها شرانى، ومضت تثرثر، أخوها صبى القهوجى، يضربها كل يوم

علقة ليأخذ فلوسها، وبيشتغل كمان مرشد للبوليس - لدغتنى الكلمة واحتملت اللدغة فى صمت - هو اللى بلغ عن أبو نادية، وعن الشامى تاجر الأفيون، خفت آلام اللدغة قليلاً، وتمضى الثرثرة، اسمها فاطمة لكن مسمية نفسها دينا... بتشتغل فى الأريزونا...).

والتأمل ليس بهدف محدد، إنه مجرد محاولة لقتل الوقت، أن تضيع وقتًا يجب أن يضيع، والمشكلة أنه يرفض أن يضيع...

تفكر... تقرأ... نعم. لكن القراءة ليست مجرد قرار، تقرأ ساعة، ساعتين، أربع. أو حتى خمسًا ثم ماذا؟ ثم أمن المكان ونوعية الشخص الذى هو أنت الآن لا يسمحان بوجود كتب... (لقد لفت نظرى عند مجدى كتاب واحد للرافعى... فماذا لو أحضرت أنا بعضًا من الكتب التى أريد أن أقرأها؟) وقد تقرأ أو تكتب لساعات طويلة، لكن المطلوب هو الإجهاز على كل ساعات النهار، ليس ليوم واحد أو ليومين وإنما لأشهر عديدة.

وعندما تتعطف عليك الشمس وتذهب... يأتى يومك الحقيقى، حياتك، رفاقك، حزبك، نضالك، الاجتماعات، المناقشات... تنسى مدحت وذلك الآخر القديم الذى كان يوما ما اسمك الحقيقى وتصبح شخصًا ثالثًا... تتذكر فقط أنك واحد من كتيبة... أنت شخص آخر، تعيش حياة أخرى ولهدف آخر... تتكلم لغة أخرى، تنطق بطريقة غير التى تتعامل بها مع سعدية وسونة... تتنفس رحيقًا آخر.

(تركيبة غريبة من ثلاث شخصيات متناقضة ومتداخلة... تحملها فوق ظهرك وتمضى بها... وتعيش معها).

وأقبل مساء ممطر، خرجت من اجتماع احتدم فيه نقاش ممل، البعض يحب كثيرا أن يستمع إلى نفسه، يتكلم وكأنه ينطق بالحكمة، ويتأمل مع كل كلمة ليرى وقع عبقريته في نفسك. وعندما انتهى الاجتماع كان رأسى ممتلئًا بصداع قاتل. كان البرد شديداً. رفعت ياقة البالطو لتحمى رقبتى من لسعة الهواء المثلج، فى هذه اللحظة مر إنسان أمامى. لمحت الوجه... هذا الوجه رأيته من قبل، وجه مثلث أتذكره جيداً، شارب باهت، عينا ذئب مريض أعرفه، لكن أين رأيته؟ انتظرت بضع خطوات ثم التفت خلفى، لم أر شيئًا فى الظلام.

سرت طويلاً أحاول أن أفرغ الصداع من رأسى، وأحاول أيضًا أن أستعيد مدحت لأعود به إلى المنزل... اقتربت من الحارة، على كرسى بالمقهى لمحت الوجه نفسه، رجلاً بلا ملامح لكنك لا تنسى شكله، لم يلتفت أحدنا للآخر، أعطيته ظهرى وأنا متأكد أنه يتابعنى دون أن يلتفت.

ولأول مرة كانت قدماى تترددان فى الصعود... أحسست برعشة من ظلمة السلم الباردة، ماذا لو كانوا مختبئين فى ثنية بير السلم؟ لم يكن هناك أحد، كنت أطمئن نفسى وأصعد، لكن عينى الذئب المريض تحملقان أمامى فى الظلام، عقلى يحاول أن يعمل بسرعة. هل هى النهاية؟ صعدت درجتين وأنا متردد، باب سعدية مفتوح وهى واقفة تطل من أعلى. أسرعت

نحوى بلمبة الجاز، عيناها باردتان وخائفتان، همست فى أذنى الواد سأل عليك. واد مين؟ الواد المرشد أخو البنت فاطمة الـ.... عينا الذئب المريض تحملقان الآن بعرض السلم كله. أنا خايفة عليك، لكن ولا يهمك أنت فى عينى من جوه... وحياة ربنا ما يلمسوك أبدًا... لم أكن أستمع إليها. قفزت إلى غرفتى. أمامها مددت يدى إلى ثقب صغير أسفل الحائط خلف السرير، أخرجت بضع أوراق بافرة. كنت مشغولاً عنها بحفظ العناوين والأسماء المكتوبة على البافرة... إنها الأماكن البديلة التى يجب أن أذهب إليها عندما يتحتم أن يختفى مدحت... حفظت العناوين بينما هى تتكلم: بنت أختى ساكنة فى باب البحر جوزها فى الجيش ممكن تقعد عندها زى ما أنت عايز... طلبت منها كبريتا، مدت يدها إلى صدرها وأخرجت ولاعتها العتيدة، أحرقت الأوراق، أوشكت أن أودعها. تذكرت فجأة أن فى درج المكتب مدخرات نادية (كانت كل أمنيات نادية أن تشترى ساعة... ادخرت معى كى لا تلتقط أمها النقود، بعد عدة أشهر أكملت جنيهين وربعًا) أعطيتها النقود لتسلمها لنادية. سأبيت الليلة بالخارج. سأعود مساء الغد. لو حدث شيء انتظرينى فى النافذة وسوف أفهم. كنت أتكلم كجنرال مهزوم يحاول أن يبدو متماسكًا. ضمتنى إلى صدرها. كانت تبكى. خلى بالك من نفسك. لو حصل حاجة روح لبنت أختى.

خرجت إلى الاتجاه المضاد للقهوة. مشيت ببطء. استدرت. عينا الذئب المريض لم تكونا هناك. كدت أتردد وأعود. الصداع يقتلنى. لو عدت الآن سأمضى الليل بأكمله مستمتعا بأقصى درجات الدفء فى أحضان سعدية... لكن قدمى سارتا إلى الأمام.. «الواد المرشد

أخو البت فاطمة الـ.... سأل عليك» هل فهمت؟ ألا تفهم أنت؟

مساء اليوم التالى كنت قد رتبت نفسى. تقرر نهائيا أن يختفى مدحت، حتى لو لم يكن هناك شيء. لقد انكسر الكوب. لم يعد بإمكان مدحت أن يعيش مع سعدية ونادية. وعينا الذئب المريض حتى لو لم تظهرا مرة ثالثة فقد ظهرتا مرتين وهذا يكفى ويزيد.

فى الطريق كنت أنسج قصة أبرر بها غيابى لفترة أمام من لا يعرف الحقيقة من السكان، أبى مريض فى طنطا تلقيت تلغرافًا، لا بد أن أذهب فوراً. سأختلى بسعدية، أحس أننى بحاجة إليها... لا بد أن أودعها. نسيت نفسى. يد تمسك بى، ارتجفت. هى النهاية إذن؟ لكن اليد حانية، يد نادية التى كانت منزوية فى أول الحارة ملفوفة بملاية سونة.

«سى مدحت. ارجع البوليس جه سأل عليك امبارح، كانوا كتير قوى. كسروا الأودة وفتشوها. خالتى سعدية بتسلم عليك كتير، مقدرتش تيجى أصلها ضربت الواد المرشد أخو البت فاطمة وخايفة ليكون واخد باله منها هى ولوزة، علشان كده بعتتنى أنا، وعم البرنس واقف مستنيك من ناحية الحارة التانية. كل اللى فى البيت بيسلموا عليك...». كنت أسرع باتجاه باب الشعرية وهى تلهث إلى جوارى وتتكلم... خالتى سعدية بتقولك متخافش على الأودة واللى فى الأودة... كنت صامتًا، ماذا يمكن أن أقول؟ كنت أخشى أن تسألنى لماذا؟ أن تسألنى أى سؤال. فأنا الآن فى هذه اللحظة بالذات لا أملك أية إجابة ولا أستطيع أن أنسج أية قصة. كنت أستعيد فى ذاكرتى العنوان الجديد فى حلمية الزيتون... سأقيم هناك مع رفيق طالب بالجامعة على

أساس أننى أخوه... أكرر فى سرى الاسم الجديد. نادية لم تزل تلهث إلى جوارى. صدرها يهتز أمامها. يوشك أن يتدحرج بعيداً عنها ويسبقها. تأملتها فى حزن. خدودها حمراء من التوتر ومن المشوار الطويل... عيناها تقولان أشياء كثيرة. لو كان ممكنا لاحتضنتها وقبلت عينيها. صمتت فى ارتباك عندما أحسست أننى أنظر إليها... أوشكنا أن نصل إلى الميدان... وكان يجب أن تعود، فجأة أمسكت بيدى فى توسل «بتحبنى يا سى مدحت»؟ (لم تنتظر رداً) لو كنت بتحبنى صحيح خد دول... ودست فى يدى نقوداً. حاولت أن أرفض أحسست أن الرفض سيترك فى أعماقها جرحاً... لم أكن بحاجة ملحة إلى هذه النقود لكننى لا أملك أن أرفضها. راحة الأحباء أن يعطوا... اتنين جنيه من خالتى سعدية وجنيه من عم البرنس واتنين جنيه ونص منى (كل ما ادخرته يا نادية ولا أمل لك فى شراء الساعة).

ضغطت يداى على يد نادية. توقفنا حتى أوشكنا أن نستلفت الأنظار... نطقت لأول مرة. متشكر يا نادية، وسمعتها - وهى تمضى - تقول... خلى بالك من نفسك علشان خاطرى.

... إلى سكنى الجديد اتجهت. آن لمدحت أن يختفى. لقد اختفى فعلاً، تاركاً فى عنقى ديناً لجيرانه لن أستطيع أداءه مهما فعلت...

دين من ذلك النوع الذى لا يؤدى لأشخاص معينين وإنما ينمو ليصبح أملاً، وعرقاً، ودماً.

القاهرة: ١٥/ ١١/ ١٩٧٨

البصقـة

حكاية الحكاية

هذه المرة ذهبت إلى القلعة دون دهشة. دخلت وكأننى عائد إلى بيتى بعد سفر قصير. ولم يكن هناك ذلك الضابط المعجب بنفسه، والجميع يعرفوننى وأعرفهم. والمثير للدهشة أنهم منحونى ذات الزنزانة، إذ ليس فى الأمر أى اختيار فباب هذه الزنزانة مواجه تماما لشباك ينفتح على البيه المأمور إذ يجلس فى مكتبه. ومن ثم لا يمكن فتح بابها إلا بإذنه.

ولم يكن الأمر بحاجة إلى تحقيق فى إحدى غرفات السجن بالمخالفة للقانون، كما أن شحنات الكهرباء التى كانت تغلف المناخ العام تضاءلت. والتهمة يتبدى لأول وهلة تفاهتها وتلفيقها.

زرت لندن بدعوة من إحدى جامعاتها لألقى محاضرة عن الأوضاع فى مصر، ودهشت إذ وجدت القاعة فوق الممتلئة، كثير

من الحاضرين سودانيون اعتبروا أن حضورهم نوع من التحية أو المجاملة، وعدد آخر من طلاب من جنسيات مختلفة وقليل جدا تحديدا أربعة أو خمسة مصريون متوترون جدا وآخرون مصريون أكاديميون أتوا ليعرفوا رؤية ما لما يجرى فى مصر. لكن المتوترين قرروا أن يمارسوا نضالا كلاميا ليست القاعة مكانه الملائم، ولا المحاضرة تستلزمه.

ساعتها عرفت معنى عبارة سمعتها فى كافيه ريش يصف بها أحد الزملاء جماعة من الشبان الذين أثبتوا بحق وصدق أن التطرف اليسارى عبث أطفال، أما العبارة فهى «الكتاكيت المفترسة»، النضال الهوائى والخالى من المغزى صمم على إفساد أثر المحاضرة لأن المحاضر رفض الموافقة على ضرورة تشكيل كتائب مسلحة لمحاربة نظام السادات. قلت أنا عائد بعد أيام إلى القاهرة فتعالوا إلى هناك لنكمل النقاش هناك وليس فى لندن حيث تتسترون بأسماء زائفة وترتدون قبعات ونظارات سوداء لإخفاء مساحات من الوجه. هاجوا، قلت سأحكى لكم حكاية وقلت قامت فرقة التجمع المسرحية بعرض لمسرحية جميلة للفنان ناجى جورج ضد «كامب ديفيد» هاجم فيها بشدة زيارة القدس وما تلاها وانتهت المسرحية فإذا ببعض الكتاكيت المفترسة أربعة أو خمسة يهتفون داخل القاعة «انتو تحاربوا بمسرحية واحنا نحارب ببندقية» فقلت لهم أنتم تحتمون هنا بمقر التجمع تعالوا معى إلى ميدان طلعت حرب واهتفوا وأنا سأهتف معكم فصمتوا جبنا. وهاجت الكتاكيت اللندنية المفترسة أكثر، فزدت

الكيل وقلت لهم هل تعرفون نظرية «الأستك» الواحد منكم يجذب طرف الأستك يتمدد به إلى أقصى أقصى اليسار ثم يتركه بعد أن يشبع هواية الكلام الملتهب ليندفع الأستك كله إلى أقصى اليمين، وقلت سأراكم متشحين باليمين أو ساكتين هادئين وبدون قبعات ونظارات سواء فى القاهرة. ضجت القاعة بالضحك وصفق الأحبة السودانيون طويلا. فازدادت الكتاكيت سخونة، وأخيراً هاج كثير من الحاضرين ضدهم فسكتوا ثم تسللوا واحدا إثر الآخر. صباحا وفيما أستعد للمغادرة أتى إلى الفندق الدكتور مصطفى وكان أستاذا بكلية الطب فى الجامعة ومسئولا عن حشد الطلاب السودانيين الشيوعيين، وسلمنى شريطا يسجل المحاضرة وما تلاها من شغب متبادل. ألقيت بالشريط مع كومة من الكتب والمجلات تراكمت معى خلال الرحلة. وبعد وصولى بيوم أتى العسس. ضابط من أمن الدولة اسمه «العقيد مصطفى» لم يفتش وقال لمرافقيه لا تتعبوا أنفسكم فالدكتور لا يمكن أن تجدوا عنده أى أوراق أو مطبوعات.. وإلى القلعة. وفى اليوم التالى إلى النيابة وهناك فوجئت بأن التهمة هى أننى ألقيت محاضرة حرضت فيها على الكف عن الكلام الذى لن يغير شيئًا وأن علينا أن نشن كفاحا مسلحًا. نفيت، فكانت الإجابة أننى مسئول عن كل ما جرى بعد المحاضرة وأننى رتبته مسبقا، كى يردده بعض زملائى الحاضرون وأبدو أنا بعيدا عن المسئولية. حاولت أن أتذكر أين ألقيت شريط التسجيل دون جدوى وحتى لو تذكرت سيقال أننى رتبت ذلك.

.. الآن أنا في ذات الزنزانة، كل شيء كما كان منذ عامين أو أقل قليلاً. التغير الوحيد أن اللمبة الضخمة المعلقة قرب السقف اختفت وحل محلها ضيف ثقيل الظل ففي سقف الزنزانة فتحة مغطاة بقضبان حديدية وعسكري مسكين مكلف بأن يظل منحنيا ليرى ماذا أفعل. ولكن ماذا يمكن أن أفعل؟ أجاب أحد الضباط «أهي غلاسة والسلام، أمال يعني عايزنا نسيبك كده؟». أما أنا فقد اكتشفت مساحة صغيرة في أحد الأركان لا يراها العسكري المسكين فبدأ يصرخ أنت فين يا مسجون، ولم أجبه، فصرخ «بأعلى صوت «انتباه» وأقلق صراخه المأمور ومن حوله.. ثم اكتشفوا الحيلة. وكانت لعبة مسلية. يوم أو يومين فتحت دفاتر ذاكرتي وأمسكت بقلم إرادتي بهزيمة السجن والسجان وبدأت الكتابة مرة أخرى في ذاكرتي، رواية حاولت أن أنسج منها خيطا ينتقم من حماقة الملفقين. فقد كان ذات الفيل الضخم الذي يعاند دوران الساعة جاثما بحجم مساحة الزنزانة، وبعد عدة أشهر حضر شاب سوداني إلى بيتنا يحمل نسخة من إحدى المجلات العربية التي تصدر في أوروبا، وقد نشرت وبشكل مفصل المحاضرة والحوارات أو بالدقة المشاغبات التي تلتها ثم حوار طويل أجراه معي مراسل سوداني للجريدة زارني في الفندق عقب المحاضرة مباشرة وفيه حددت آرائي بالتفصيل حول ما أثارته الكتاكيت المفترسة من صرخات.

المحامي د. عصمت سيف الدولة حمل المجلة إلى المحامي العام والذي كان قد سئم من هذه القضية المبللة بتلفيق واضح وسئم من

عبارة مكررة يسجلها المحقق عقب كل زيارة يقتادونى فيها إليه وهى «وأغلق المحضر على ذلك ويعود المتهم إلى محبسه».

.. وأطلق سراحى، لكننى لم أكن متعجلا هذه المرة لكتابة ما تحفظت عليه فى ذاكرتى، ولعلى نجحت فى أن أتناسى دفتر الذاكرة لعدة أشهر.. وفجأة فعلت ذات الشىء، كوب القهوة، المكتب المغلق ثم خمس أو ست ساعات كتابة. ثم حملت الرواية بنفسى إلى رفاق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى دار ابن خلدون ببيروت، جادلنى المسئول حول العنوان وقال سيتهكمون عليك وصممت، فقال كما تشاء ولكن الفنان الذى سيصمم الغلاف سأل متهكما هل ستوزعون كلينكس مع البصقة. وصممت، لأننى كنت أريدها فعلا بصقة على ذات الوجه الذى وجهتها إليه فى الكتابة.

محضر ضبط

بمعرفتنا نحن الرائد إبراهيم مختار قمنا مصطحبين القوة اللازمة لتنفيذ الأمر الصادر إلينا بتفتيش منزل الدكتور مدحت سلام وضبطه وإحضاره.

وقد عثرنا فى درج المكتب الخاص به على خمس ورقات بخط اليد معنونة «حب وحب». يعتقد أن بها ما يفيد التحقيق. وقد أقر المتهم أمامنا بحيازته لهذه الأوراق وأنها بخط يده.

واصطحبناه مع المضبوطات إلى الإدارة.

توقيع

مذكرة داخلية

السيد العقيد مجدى

أتشرف بأن أبلغ سيادتكم أنه لدى قيامنا بضبط المتهم الدكتور مدحت سلام بناء على الأمر الصادر منكم، ألح المتهم المذكور على الاطلاع على أمر القبض الصادر من النيابة العامة. فأفهمناه بوجود أمر جماعى بالإدارة.

ولدى إحضاره ألح أكثر من مرة على الاطلاع على أمر النيابة فأفهمناه أنه طرفكم.

نرفع هذا للعلم.

توقيع

المضبوطات

بيانها كما يلى:

عدد خمس صفحات مسطرة مكتوبة بالحبر الجاف الأزرق بخط اليد عبارة عن قصة حررها المتهم بعنوان «حب وحب» واعترف بأنها تخصه وأنها بخط يده.

وبمناظرتها تبين أن بها ما يفيد التحقيق.

توقيع

حب وحب
قصة قصيرة

د. مدحت سلام

بلمسة واحدة من أصبعه استراح الباب فى أنين مرتفع وكأنه يعلن للكافة أنه يقترب. وفجأة وجد نفسه فى عمق الغرفة. صباح تتقلب بصعوبة بالغة. ورائحة عرق ثقيل عطن تطل من ثنايا قميص نومها الأحمر الفاقع والمرتفع - ربما فى تعمد - لأعلى هضاب الجزء الأوسط من جسد ضخم مترهل.

نادى حسن بصوت لا يكاد هو نفسه أن يسمعه «ست صباح... كنتى عايزة حاجة»؟ لم ترد. الماكرة تتظاهر بالنوم. وأطراف ومضة تطل من ثقب مفتوح فى زاوية إحدى عينيها، كان يعرف أنها ليست نائمة، منذ دقائق قليلة طرقت عليه باب الحمام ونادته. ماذا تريد منه؟ هل تريده؟ ولماذا هو بالذات؟ لديها صديقها المعترف به من الجميع الأسطى محمود الأويمجى. هل تريد أن توقع به؟ أن

تغريه بالاقتراب ثم تصرخ وتعمل فضيحة وتلم عليه الناس وتعمل شريفة على حسابه؟ هل تريد أن تثبت لنفسها أنها لم تزل أنثى يتطلع إليها شاب مثله؟

... مع استمرار تردده ازدادت محاولتها للتظاهر بالاستغراق في النوم. وتعالت تنهدات خشنة لعلها تشبه صهيل فرس عجوز.

ازداد تردده. أمسك بطرف حبل العودة، وتراجع. نفس الخطوة الواحدة التى كان قد اقترب بها. فعاد إلى طرف الباب المفتوح... رسمت على جانبى شفتيها ابتسامة صغيرة، لعلها تشجعه على الاقتراب مرة أخرى... لكنه كان قد حزم أمره... لعله الخوف. ولعله الخجل، بل لعله ذلك الجسد الضخم الخالى من أية قدرة على الإغراء.

لِمَ لا أنتظرها فى غرفتى أو على سريرى وأتظاهر أنا بالنوم؟

وغرفته المنزوية فى ركن الطرقة المشتركة كانت مفتوحة أيضاً بينما تمدد على سريره الصغير فى انتظارها، كان يعلم أنها ستأتى، نظراتها منذ ثلاثة أيام أكدت له ذلك.

*

عبق الريحان اقتحم عليه محاولته للاختلاء بنفسه.

ريحانة رائعة تسللت عبر ذلك الثقب الضيق المسمى بالحياة... تمددت فى أعمق أعماقه. سناء اسمها، ألف مرة ومرة أغمض عينيه ليتأمل صورتها. وجه رائق بلا مساحيق يكتسب من شبابه نضارة رائعة ذات لون وردى يصعب تقليده بالمكياج، شعرها الأصفر منطلق إلى ما تحت الأكتاف. عيناها فى لون الريحان.

أمس أمسك بيدها، شعر بلمسة ندية، كأنك تصافح وردة، أطلت عليه بنظرة صافية، استراحت كفها بحنان غير مصطنع، وبلا تردد مفتعل. تلامست معه كأنها قطة تأوى إلى حضن صاحبتها، جلسا على مقعدهما الحجرى يواجهان النيل. أطلت عينه من أعلى تحاول الالتقاء بصدرها، تكشفت البلوزة عن تلك القناة الفاصلة بين ثدييها، سحر العالم يتجمع فى هذه الانحناءة التى تكفى وحدها كى تلهب الخيال بصدر لا مثيل له. ارتفعت الريحانتان فى نظرة عاتبة تصحبها ابتسامة ودودة.

- باحبك يا سناء. (أخيراً وجد الجرأة كى يقولها).

- عارفة. (قالتها ببساطة غريبة).

- نتجوز. (يا للحماقة، هو لا يملك شيئًا، موظف ينفق نصف مرتبه كى يواصل دراسته فى الجامعة).

- لا. (حازمة كحد سكين قاطع. لكنها ودودة وخالية من أى تحد).

- ليه؟ (قالها محاولاً أن يضع فيها كل ما يستطيع من علامات الانفعال... لعله يؤثر فيها).

ببساطة متأنية، استراح رأسها على صدره، وأمسكت هى بطرف الحديث.

- حسن. أنت صديق عزيز. ولولا ظروفى الخاصة لكنت أفضلك. لكن أنا فلسطينية وزوجى سيكون فلسطينيًا وزفافى سيكون هناك فى أم الفحم وسط بيارات البرتقال. أبى كان يحلم كثيراً. وكذلك أمى، ماتا وأنا طفلة الواحد بعد الآخر. لم أزل

أراهما كل ليلة جالسين أمام خيمة منهكة، أبى ينتزع من هنا وهناك أعواد قش قليلة ليشعل ناراً نستدفئ بها. حتى القش كان شحيحاً. والبرد القارس يدفع أبى لأن يضمنى فى عنف حنون إلى صدره كل ليلة وهو لا يمل من ترديد حكاياته المسترخية الكسولة عن بيارتنا فى أم الفحم، وبيتنا هناك... أحلامه فى أن أكبر (ولو كان لديه ولد لاعتمد عليه فى حلم العودة)... وزفافى سيكون هناك حتماً... أجمل فتيات أم الفحم سيرقصن الدبكة، هو أيضا سيرقص شاهراً سيفه (سيفه لم يزل معلقاً على حائط بيتنا) راكبا حصانه (حصانه الأبيض لم يزل كما تركه واقفا أمام الدار) قضى حياته يحلم. فمات أسوأ حياة للاجئ، بلا حلم... لِمَ لا أحقق له حلمه؟ لِمَ لا يكون زفافى فى بيارتنا. يرقص حبيبى شاهراً سيف أبى، وترقص بنات أم الفحم الدبكة...

وتقطر دمعة رشيقة كرذاذ أنيق فى صباح ينايرى غير بارد. تمسحها وهى تبتسم قائلة بلا أسف حقيقى... ألم أقل لك أنى مشكلة؟ لكنه حقيقة لم يشعر بأى مشكلة. بل أحس أنهما يقتربان أكثر فليشاركها حلمها، ولتشاركه حياته. بل لعله كان ينوى ذلك وقبل أن يأتى كان يستعيد فىَ ذاكرته بيتى شعر:

وأقمنا فى تحد عشنا

لهب أنت ونيران أنا

فتنة أنت ولولا ثورة

جمعتنا ما عشقنا بعضنا

أوشك أن يرددهما. لكنه أحس أنهما أصبحا بلا طعم، فالمأساة أعمق كثيراً من ترنيمة شاعر يصطنع فيها أمنية غير متقنة.

أصابعه الآن تائهة فى شعرها المسترخى فى حزن ظاهر.

قال دون أية محاولة للكذب:

- سناء، تزوجينى، نحارب معًا، نموت معًا.

أمسكت بيده وقبلتها فى براءة حقيقية...

- ما الذى أتى بالموت إلى هنا. أنا أتحدث عن العودة وحفل زفافى، وأنت تتحدث عن الموت. هل تعرف لماذا يستسلم البعض ويخون؟ لأنهم لم يجدوا فى أعماقهم القدرة على الأمل...

*

... وبينما كانت سناء تسترسل فى حديثها اقتحمت صباح الغرفة... تظاهر بالنوم. كان يريد أن يكمل حلمه الجميل، وكانت تعلم أنه مستيقظ وأنه يلعب معها نفس اللعبة ولكن بإتقان الصبية غير المدربين. تناولته ومضت به إلى غرفتها. ببساطة مدت يدها وأخذته، كما تمد يدك إلى علبة سجائرك لتأخذ واحدة.

لم يكن متأهبًا... لم يكن قد استفاق بعد من حلمه الأنيق، وهو لم يتصور نفسه يومًا منغمسًا وسط كتل متراكمة من لحم مفعم بعرق صاعق الرائحة، صباح ليست بالجميلة. ولم تكن أبدًا جزءًا من أحلامه، أوشك أن يخيب رجاءها وأن يبدو فاشلاً. أزعجه ذلك الخاطر. كيف سيرفع رأسه أمامها. كثيراً ما تبادل معها النكت والقفشات المكشوفة وألمح أمامها بقدراته اللامحدودة؟ لكن هل يمكن

للعود أن يبقى صامداً أمام نار مشتعلة. تلك المرأة التى تقتات الجنس كل يوم مع عشيقها الأويمجى. تلتهب الآن لهفة وكأنها صامت دهراً كاملاً... أشعلت فى كيانه ناراً. بشفتيها ويديها ولسانها... وحتى أطراف قدميها... بالصوت المتنوع النغمات يتماوج مع جسد قادر هو أيضًا على التجاوب معه. اكتشف أنها تتدفق حنانًا، وأن فى لمسات أصابعها الشرسة رقة عنيفة. وأن صوتها الخشن الذى اعتاد السعال أن يقاطعه يحتوى بعضًا من الألفة المحببة. أدرك لحظتها أن الجنس ليس فقط فتاة جميلة ولا حلمًا غضًا. هو شىء أعقد من ذلك بكثير. وأن لهيب امرأة يمكنه أن يشعل الطرف الآخر حتى ولو لم يكن يريد... انغمس بكل كيانه. تاه فى ثنايا الأحضان اللزجة. والأنفاس الساخنة. واللمسات الملتهبة. احتواه العنف الصارخ وانهمر سيل من الكلمات الجنسية بعضها مغموس باللهفة والآخر شتائم بذيئة فهو لم يكتشف كم كانت تريده منذ زمن. شهقت بصوت عال. هذه المجنونة ستلم علينا الجيران. لم ير فى حياته امرأة كهذه، كلما ازدادت شوقًا ازدادت وحشية... أصبحت لمساتها وخزاً وحنانها ضربات قد تكون موجعة لكن ألمها يخترق المسام فى خدر لذيذ، استمتع بما لم يتخيله فى حياته، العنف المشبع بالارتواء. والشتائم المليئة بالحنان، فى البداية لم يكن راغبًا، الآن انجرف معها فى تيار الرغبة المنفعلة... مارس هو أيضًا القسوة فازدادت شوقًا، أثقل عليها فازدادت اشتعالاً... وخاضا معا معركة ضارية تفضى إلى غيبوبة ممتعة... جمع ثيابه فى صمت وقفز عاريًا إلى الحمام... ثم إلى حجرته.

استرخى على السرير منهكًا... كانت سناء تقترب بلا حزن. لعلها تعرف أنه لم يرغب حقيقة فى صباح، وأن أحلامه الصحيحة مركزة فيها هى... لعلها تعلم حقيقة هذه التركيبة المعقدة التى تمزج بين رجل وامرأة يريدان بعضهما دون محبة حقيقية. كل منهما يصرخ بالرغبة لكن للقلب اختياره.

أمضى حلمًا آخر مع سناء، الريحانتان تطلان عليه فى رقة حانية، تلك القناة الأبدية الإغراء تنساب بين نهديها... عبق الريحان العميق يغمره، شىء غير مصنوع، أنوثة من نوع خاص تحتويك فى تأمل عميق وحنان خالٍ من أى افتعال.

كاد أن يعتذر لها... عيناها أمرتاه بالصمت.

قرر أن يحكى لها كل شىء عندما يراها... صنع لنفسه كوبًا من الشاى لمجرد أن تموج الغرفة بحركة مصطنعة تطارد هذا الإحساس العميق بالندم، هو أبدًا لم يخطئ فى حق سناء... هكذا أكد لنفسه بصوت مرتفع.

لكن... هل صحيح أن صباح كانت تشتاق إليه كل هذا الشوق؟ وهل كان العنف تعبيرًا عن رغبة أم هو اختيار؟ وماذا عن الأسطى محمود (يصعد إليها فى غرفتها عينى عينك، تناديه بأعلى صوت وكأنها تتحدى الحارة كلها... اطلع يا أسطى اشرب القهوة. إن تأخر قليلاً تلاحقه، القهوة بردت يا أسطى، ثم يصدر جهاز إرسالها الصدئ ضحكة خشنة مستطيلة تمتد بطول الحارة وعرضها).

اليوم، أخذت ما يكفيها أسبوعًا أو أكثر، أكدت له ذلك فى بذاءة نادرة، تسلل إلى داخله انفعال رقيق فيه مزيج من المتعة الضائعة والاعتداد بالنفس، أشعرته برجولة خارقة، فمنحته طعمًا خاصًا من الاشتهاء المستمر، والرغبة التى لا ترتوى.

هذا الافتراس المتبادل غلفه بغشاء من الانتعاش المفتعل، من الآن سيتعامل معها بلا تواضع. حاولت أن تفترسه فأثبت أنه الأكثر قدرة... دهش من نفسه كيف أمكنه أن يتجاوب معها. تساءل عن الفارق بين نظرات الريحان الممتنة دومًا فى حنان دافئ. حنان يخشى أن تزداد حرارته حتى لا يخدش الطرف الآخر ولو بأقل قدر من الإيلام... بين اللمسات الندية التى تفوح منها نبضات مسكرة... وبين هذه الغولة المتفجرة سخونة وعنفًا...

على أية حال... لقد تراكمت فى مؤخرة رأسه كميات من الإحساس بالارتياح المشبع بالكبرياء كان أكثر من رجل قادر... أطفأ جذوتها بين يديه، علمها كيف يكون الارتواء، الآن هو سيد الموقف. من الآن سيعيش فى سلام، لقد كانت بين يديه تتوسل فى ضعف متوحش، ولكن هل من سلام مع الغولة؟

فجأة سمع نافذتها تفتح... انقطع سيل أفكاره مع صدى إرسالها المرتفع أكثر من كل مرة: «يا أسطى محمود... اطلع اشرب القهوة».

سقط كوب الشاى من يده.

فشغل نفسه طويلاً يجمع شظايا الزجاج المكسور.

الاستجواب

كما يحدث فى المسلسلات التلفزيونية توقفت السيارة بسرعة مفاجئة، وقبل أن تتوقف تمامًا كان هو يفتح الباب. ثلاثة أو أربعة سلالم قفزها صاعداً، عامل الأسانسير قفز هو أيضا. فى مرآة الأسانسير بدأ يسوى شعره بيديه، عدل رباط العنق، لمح السلسلة الذهبية تطل فى خجل حقيقى من فتحة القميص أبعدها طرف أصبعه إلى الداخل، فماذا سيقول السيد المفتش لو رآها؟

أنين الأسانسير لم يكن قد توقف بعد أمام الطابق الثانى بينما انفلت مسرعًا... عندما أطل برأسه أحدث الارتباك المنتظر فى كل العناصر المتراخية فى كسل روتينى أمام الأبواب، شد الجميع قاماتهم، لم يلتفت لأحد، خطوتان واسعتان وكان فى غرفته.

(أبدى لنفسه قدراً من الإعجاب بحركته المرسومة منذ اقتحام السيارة للمبنى حتى استرخائه المريح على مقعده. هكذا تماماً يجب أن يفعل كل يوم... كان اليوم أكثر إتقاناً. لا بد أن يتظاهر دوماً بأنه مشغول ومتعجل. بهذا يراه الرؤساء وفق الانطباع المطلوب. منذ أن احتل هذا المقعد وهو يحلم بالمزيد، الاقتراب من الكبار يعني أنه بقفزة واحدة يمكن أن يصبح واحداً منهم. نسى أنه اختصر الطريق نحو هذا المقعد بالمصادفة، رئيسه انسحب بعد سلسلة من الضربات الخائبة، أحدث ضجيجاً كبيراً بلا نتائج، وحده اكتشف أنه لا جدوى. لم ينتظر حركة التنقلات، انسحب قانعاً بمكتب فاخر للتصدير والاستيراد، ما يدهشه حتى الآن... من أين أتى هذا الرجل بالمال.

المهم هو الآن على هذا المقعد مبكراً على الأقل أربع سنوات أو خمس، أتت سوزى لتشاركه بهجة الاستعلاء بالمنصب الجديد. اشترت بنفسها ستائر جديدة للغرفة، غيرت لون الحبر فى قلمى المكتب. اللون الأخضر شيك ويوحى بالأهمية. أرسلت من البيت زجاجات سفن - أب ليشربها متميزاً عن الجميع. وضعت على المكتب صورة طفلتهما الصغيرة. أكملت بلمسات خفيفة فخامة المكان. وأضفت عليه قدراً كبيراً من الأهمية).

بتكاسل شديد امتد أصبعه إلى أسفل حرف المكتب داس على الجرس المختبئ لمسة واحدة... (عود المخبر القابع بالخارج على «كود» خاص، رنة جرس واحدة تعنى قهوة. اثنتان... سفن أب. ثلاثة

يحضر الضابط المناوب، بهذا يضفى على الجو العام بعضًا من الأهمية، وهكذا يرسخ قدميه قريبًا من القمة).

أتت القهوة سريعًا بينما هو يمدد ساقيه فى استرخاء ويتناول بملل ملفًا أنيقًا (منذ صعد إلى هذا المقعد فرض على الجميع أن يضعوا أوراق العرض فى ملفات... الحجة هى الحفاظ على سرية الأوراق... والهدف إضفاء لمسة تطوير جديدة تقترن باسمه) الملف خفيف، بضعة أوراق فقط، أعلاه اسم «د. مدحت سلام»... آه، هو إذن أمام قضية الموسم - أو هكذا يجب أن تكون - مأساته أنه منذ الترقية لم يضرب ضربة حقيقية، خبطات «بنت وقتها» لكنها سريعًا ما تتلاشى. يريد شيئًا «يرن» ويصل باسمه إلى آذان الوزير، يتردد اسمه مرة أو مرتين أمام الوزير، ثم... هو اليوم متعجل - لعل ذلك من حسن أو من سوء حظ هذا الدكتور - عيد زواجه، سوزى ألحت عليه ألا يتأخر، حمادة أخوها يدعوهما إلى المسرح ثم العشاء. لا بد أن ينتهى إذن قبل التاسعة، ولو اقتضى الأمر سيطلب إلى سوزى أن يسبقوه إلى المسرح ويلحق هو بهم.

(عيد زواجه. حمادة يحتفل به معهم، حمادة كان السبب فى هذا الزواج... أو بالدقة كان الطعم الذى اصطاد به سوزى. بعد أن ماتت أمه، أحس بضرورة أن يتزوج. مل حياة العزوبية، ومل أكثر الحياة فى الغرفة المظلمة فى بيت أم سيد بالفجالة، مكانته لم تعد تسمح له بالسكن هنا، ولا هو قادر على أن يدفع خلو شقة. عندما نقل إلى هذا المكان شعر بالحرج وهو يملى عنوان منزله، أملى عنوان

ابن عمته فى شارع رمسيس. ازدادت الأمور تعقيداً عندما ذهبوا يستدعونه من هناك فى منتصف الليل. أم سيد بوجهها القبيح ورائحتها التى تشبه رائحة خبز عطن حاولت فى خريف عمرها أن تجدد ما كان فى شبابها، عندما كان طالبًا. فى فورة شبابه كان بحاجة إلى أية أنثى، حتى أمه كانت تلاحظ، لكنها رحمها الله سكتت فهى دائما مديونة بالإيجار لأم سيد، وغضبة واحدة تكفى لكى تنتظر غياب «بسلامته» فى الكلية ثم تلقى بها وبكراكيبها إلى الطريق.

الدنيا تغيرت، الأم ماتت. والطالب المفلس دومًا، أصبح ضابطًا. احتمل عامًا ثم لم يعد هناك من مفر. لا حل سوى الزواج، أخذت أحلامه تعمل فى دأب كإبرة تريكو نشطة ترسم صورة لفتاة غنية وشقة فاخرة وسيارة... حياة مريحة، لكن إبرة التريكو توقفت أمام عقدة... الغنية أرستقراطية والأرستقراطية سيسأل أهلها ابن مَنْ هو؟ وماذا لو ساقهم البحث إلى خالته وزوج خالته، أو إلى غرفة بيت أم سيد... عند هذه العقدة ظلت الإبرة تدور دون مخرج حقيقى.

وقعت أحداث الجامعة، أكوام من الأسماء يجب القبض عليها، فى حملة إسكات للجميع. كان اسم «حمادة» من نصيبه. الفيلا غاية فى الفخامة ولكن بلا أى قدر من الذوق، وتعطى لدى أول نظرة انطباعًا بشراء مفاجئ لا يعرف صاحبه كيف يتلاءم معه. الأب المنزعج راجل ابن بلد، تاجر جلود، لعله كان إلى وقت قريب معلمًا

أو حتى صبى معلم ثم أجبره الشراء على التفرنج... رآها تخرج بقميص نوم شبه عارية تلف جسدها العمودى على عجل بروب هو أيضا شفاف يصلح فقط لمنزل لا يقترب منه الغرباء...

كان الأب يسأل فى تأدب منغمس بالخوف... فيه إيه يا حضرة. وكانت هى ملخومة بتسوية شعرها الأكرت وحبك الروب على عمود خال من أى تضاريس أنثوية، الغريب أن تعمل إبرة التريكو الآن بحماس... سهم سريع انطلق فى شكل لمحة إلى يديها ليست مخطوبة ولا متزوجة، سألها حضرتك مين؟ أجاب الأب سيدة بنتى، أخت محمد... الإبرة تعمل بنشاط. كان رقيقًا فأصبح أكثر رقة أمر رجاله بالانتظار خارج الغرفة... ذهب «حمادة» ليغير ملابسه... الإبرة تضىء الآن بإشعاعات ذكية... كان يقلب فى أوراق مدرسية كثيرة، أخرج واحدة من بينها... دسها فى يد الفتاة آمرًا إياها أن تمزقها دون أن يراها أحد. دستها فى الروب وظلت تمزقها بأصابعها التى تشبه مسامير رفيعة وصدئة، تلاقت عيناهما غرس فى نظرته قدرًا من المودة بينما يردد الأب أنت ابن حلال.. ربنا يسترها وياك. أفهمته نظرتها أن الورقة قد مزقت. همس فى أذنها ارميها فى التواليت وشدى السيفون. لمسها مرة أخرى وهى توشك أن تخرج... أوعى حد يشوفك. من الظهر العمود أيضًا مستقيم بلا أدنى انحناءة... لكن الإبرة لا تزال تعمل. أنهى عملية التفتيش سريعًا... قبل أن يخرج ومعه حمادة منحه الأب دعاء مكتوما وأعطته هى نظرة امتنان، لكن الغريب أن أحدًا لم يسأل أبدًا عن

هذه الورقة. حتى حمادة لم يسأله فيما بعد... وحده يعرف أنه لم يكن بها أى شىء.

الإبرة الآن تعمل بإحكام... المعلم أتى بنفسه إلى المصيدة، زاره فى مكتبه يسأل عن الولد. أقسم المعلم وهو يرتجف أن الولد لا علاقة له بشىء، ربما نطق بكلمة أو بأخرى. أو شارك فى الاعتصام بالجامعة لكنه لا علاقة له بالسياسة احنا مش فاضيين للسياسة. كان هو يعرف ذلك. الولد بلا ملف. ولا أى تحريات. اسمه ورد ضمن كومة أسماء سجلها المرشدون المندسون فى الاعتصام. سيفرج عنه حتمًا بعد أيام... الإبرة تحركت مرة أخرى. بينما هو يودع المعلم عند باب الأسانسير... أكد له أنه سيبذل كل جهده لتسوية الأمر. ليفرج عن الولد خلال أيام. وأكد أنه نجح فعلاً فى شطب اسمه من القضية... إبرة التريكو تكمل الآن نسيجها. همس فى أذن المعلم قبل أن يخطر داخل الأسانسير راجيًا أن تحفظ الآنسة سر الورقة وإلا هو نفسه حيروح فى داهية... أكد له المعلم أن السر فى بير... أغلق باب الأسانسير وهو يواصل دعواته له.

عندما أفرج عن الولد استدعاه إلى مكتبه. عامله برقة. أومأ إليه أن يكلم البيت بالتليفون... ردت سوزى، تبادلا كلمات المجاملة التقليدية، زاره الأب ليشكره. رد له الزيارة فى المحل. شاهد ألوف الجنيهات تدخل وتخرج من خزينة مستريحة فى وقار حقيقى على قاعدة عالية... وحزم أمره...).

انتزع نفسه من خواطره. أنهى فنجان القهوة وتناول الملف... قرأ الورقة الأولى بلا اكتراث. ثم قرأ المذكرة الداخلية... أمسك

بالقلم الأخضر «تخطر النيابة تليفونيا بالتوصل إلى معلومات هامة تفيد علاقة الدكتور مدحت سلام بالقضية موضوع التحقيق. ونظراً لخطورة الأمر واستعجاله نطلب إصدار الأمر بالقبض عليه تليفونياً لحين تقديم التحريات صباح الغد».

وضع القلم مكانه فى حزم وكأنه يغمد سيفًا، وأمسك بالمضبوطات تدحرجت عينه المدربة سريعًا عبر أسطر القصة... التقطت زاوية بصرية اسم سناء وكلمات أم الفحم... فلسطين... ثم عودة. هو إذن يكتب عنها... تحريات رجاله صادقة. لا مجال الآن لإنكار معرفته لها. وتأرجح الرضا فى نفسه، وتأرجح معه الأمل فى أن يحقق ولو مرة خبطة حقيقية.

هبطت عيناه بملل غبى على بقية أسطر القصة توقفت عند صباح وحسن... (نفس الشىء أم سيد وهو. تمامًا كما كان يحدث له. كيف يمكن لهذا الدكتور أن يصف بالضبط ما كان بينهما. هكذا كانت تعتصره. بكل هذا القدر من العنف الملىء بالخدر المدهش... علمته منذ أيام مراهقته الأولى كيف ينتزع اللذة من براثن الرائحة العطنة والجسد المترهل والعنف البذىء... إلى أن تزوج سوزى. حاول أن ينسى، حاول أن يعتاد على هذا الجديد... الرقة المفتعلة. النظرات الخالية من أية متعة، الهمس بلا رقة، التلامس بلا حنان، المجاملات السمجة الخالية من أى ارتواء، علاقة يعتاد زملاؤه الضباط أن يصفوها بأنها «ميرى»...).

كانت يده قد امتدت بلا مبالاة وضغطت مرة واحدة. فتح الباب ودخل المخبر بالقهوة... اعتدل فى جلسته تأهب لملاقاة الصيد. أومأ للمخبر بلا كلمات.

بعد لحظات فتح الباب... دخل الصيد.

*

وجد الدكتور نفسه وحيداً فى غرفة فخمة، خلف المكتب الأنيق ظهر رجل قصير يتأمل فى لا شيء خارج النافذة. لحظات سكون. ثم استدار المقعد فى حركة تلفزيونية... وتواجها.

فى صدر كل منهما انغرست ابتسامة صامتة، انعكست عبر صورة تذكرها كل منهما فى نفس اللحظة، صورة الفنان جميل راتب وهو يلعب دور الثرى فى المسلسلات التلفزيونية ويستدير بالكرسى فى حركة مفعمة بالأرستقراطية المصطنعة... ارتسمت ابتسامتان باهتتان... إحداهما تعكس قدراً من الخجل (خجل ممثل مبتدئ فشل فى الأداء) والأخرى قدراً من الاحتقار (احتقار لا يستطيع صاحبه أن يتحدث به أو يفصح عنه).

- اتفضل يا دكتور.

وجلس الدكتور. استمر مجدى يقلب الأوراق متظاهراً بالاهتمام الجدى والتفكير العميق... تظاهر بأنه يتنهد، تماوجت نظراته مرات عديدة بين «الصيد» و«المضبوطات». أعطى ما يكفى من انطباع بالرهبة.

كان الدكتور قد أعد نفسه قبل دخوله الغرفة ليشن هجومه...

لماذا أنا هنا؟ كيف تقتحمون بيتى بهذه الصورة؟ أنا لست لصًا؟ أرجو إبلاغ النقابة؟ أين قرار النيابة؟ لكن البرود المتقن والاستقبال الهادئ غلفاه هو أيضًا، أحس كأنه دخل إلى عيادة طبيب... فسكت.

(كن هادئًا، باردًا كالثعبان، ثم الدغ. هذه أول دروس الكورس الذى تلقاه على يد المحاضر الأمريكى. وقد أتقن مجدى الفصل الأول من المسرحية. كان هادئًا وباردًا، فهل سيستطيع أن يلدغ؟ هكذا سأل نفسه أكثر من مرة قبل أن ينطق).

- إحنا متأسفين يا دكتور إذا كنا تعبناك معانا أو تجاوزنا الإجراءات، لكن تأكد أن الهدف هو الصالح العام... ولولا خطورة الأمر لما اضطررنا إلى إزعاجك...

(خطورة الأمر، نطقها بسيطة، باردة، بلا طعم خاص لكنها انغرست كصاعقة حادة فى قلب الصيد. هكذا يبدأ الثعبان اللعب).

غاص الدكتور فى مقعده. أوشك أن يتساءل عن هذا الأمر الخطير... لكنه فضل الصمت فأتاح الفرصة للثعبان أن يميل برأسه أكثر ويواصل...

- ما هى علاقتك الحقيقية بالإرهابيين الفلسطينيين (هكذا مباشرة وحادة وعارية من أى غلاف كرجل يشهر مسدسه ويطلق رصاصة).

- أنا، أبدًا (أوشك أن يسكت، إفراز بارد فى داخله استحثه على أن يقول شيئا). ليست لى أية علاقة بهذه الأشياء... أنا كاتب.

(لا تدع الصيد يثرثر، اخنق الكلمات فى صدره حتى تنفجر بغير حسابات... هكذا تعلم فى الكورس).

- بوضوح وصراحة أليست لك علاقات بهم؟

- أبدًا. أنا...

- تكلم بصراحة يا دكتور. احنا عارفين كل حاجة ولدينا ما يكفى من الأدلة. لكن احنا بنعطيك الفرصة كى تتكلم، هذا حقك القانونى. لأنه طبعًا فيه فرق كبير بين أن تتكلم أو أن نتكلم نحن.

(دوامات تدور مسرعة فى رأس الدكتور، تبحث عن أية علاقة قديمة أو جديدة، مباشرة أو غير مباشرة...).

- أنا مليش أى علاقة بالمسائل دى. أنا كاتب. وحتى اهتماماتى بالسياسة قليلة، وربما أقل من العادية.

- نحن لا نتكلم عن اهتمامك بالسياسة... ولكن عن اهتمامك بالسلاح (لدغة متقنة، لأنها مباغتة وتبدو وكأنها عفوية وباردة... لو كان أستاذه هنا لهنأه).

(الدوامات تتشابك فى عنف. ماذا يريد هذا الرجل؟ لا بد أن فى الأمر خطأ ما... ليصرخ بأعلى صوته معلنًا براءته، ربما كان هناك مدحت سلام آخر... استعدت إرادته، استجمعت نفسها... أوشكت أن تنطلق فى صوت مرتفع...).

قبل أن ينطق كان الثعبان يباغته.

- الورقة دى بخطك؟

- أيوه. طبعًا. دى قصة...

- كويس إنك اعترفت إنها بخطك لا جدوى من الإنكار. هناك خبير خطوط على أية حال...

(الدهشة الآن تحولت إلى ما يشبه الكابوس... هو الآن لا يفهم شيئًا. جاءه طيف من كافكا... طرده سريعًا).

- كلمنى شوية عن سناء.

- مين سناء؟ (محاولا أن يستجمع أفكاره المبعثرة).

- بلاش لف يا دكتور. إنت عارف كويس أنا أقصد مين. اتكلم.

- فى القصة ورد اسم سناء. لكن ده عمل قصصى. أى اسم

(قالها محاولاً أن يرسم على وجهه ابتسامة توحى بالطمأنينة فخرجت خائفة بلهاء ولعلها أعطت انطباعًا معاكسًا. فزم شفتيه فى ألم).

- اسمع يا دكتور. أنا راجل دوغرى. ونفسى أساعدك. لكن أنت مش عايز تساعد نفسك رغم أن وضعك فعلاً خطير... والأدلة ضدك كثيرة.

- أية أدلة؟ (لا بد أن صوته ارتفع قليلاً. هكذا أنبأته أذناه. أنبه شىء ما فى داخله لا داعى للصراخ. أنت تستفز الرجل).

- مش وقته. وفى الوقت المناسب ستواجه بالأدلة. لكن أنت ليه كتبت القصة دى؟

(التغيير المفاجئ للموضوع مسألة ضرورية. لا تدع للصيد فرصة الإمساك بخيط. يجب أن تدور حول رقبته بخيوط عديدة... حتى تفقده التماسك).

- لا يمكن للكاتب أن يجيب على سؤال كهذا. كتبتها لأنى أردت أن أكتبها.

- يا دكتور حرية الكتابة مكفولة. ولكن فى حدود القانون.

(قرر الدكتور أن يتكلم، أحس أنه يتنفس عندما يتكلم، وأنه يتخلص من هذه الخيوط التى تضيق عليه خناقه بلا مبرر ولا منطق)... اعتدل فى كرسيه:

- الحقيقة أنا هدفى من القصة أن أقول أن الحب شىء معقد... ومغلف دائما بانطباعات ذاتية وآنية. وبما أن الذات الإنسانية ماكينة بالغة التعقيد فإن انفعالاتها الحسية والوجدانية تبدو معقدة... ربما متناقضة، وأن الحب ليس قالبًا... وأنه...

(الصيد أوشك أن يفلت. هو يتنفس الآن بحرية. يتكلم كأنه يحاضر. يفهم ما يقول... القاعدة ألا تترك للصيد فرصة للتنفس وألا تعطيه القدرة على الكلام فيما يريد. قرر أن يقاطعه).

- يا دكتور احنا مش فى حصة فلسفة، احنا فى تحقيق. اتكلم فى الموضوع.

كان قدر الأوكسجين الذى تسلل إلى أوردة الدكتور كافيًا لكى يقاوم، فرد فى صوت شبه مرتفع:

- لا. احنا مش فى تحقيق. احنا فى دردشة. علشان يكون فيه تحقيق لازم تكون فيه نيابة. ولازم يكون فيه اتهام محدد.

(يا خيبتك يا مجدى. الصيد يفلت منك. تذكر الدرس، إذا فشلت فى القتال... طلقة، طلقة، استخدم مدفعًا رشاشًا بعديد من الطلقات).

- اسمع يا دكتور احنا مش بنهزر. المسألة خطيرة. وأنا كان نفسى أساعدك لكن يبدو أنك ما تستحقش. عايز تعرف الاتهام... اتفضل. أنت متهم بالانضمام إلى تنظيم إرهابى فلسطينى يهدف إلى قلب الحكم بالقوة المسلحة. مسؤولتك فى المجموعة سناء حورانى. طبعا تعرفها. لدينا أكثر من دليل على علاقتك بها. تحرياتنا تعرف متى وأين تتقابلان. أنت بنفسك وبخط يدك قدمت دليلاً على علاقتك الوثيقة بها... تحب أدلة أكثر؟

(كما يتدحرج قرش من يدك. يجرى على حرفه ثم يستقر بعيداً عنك، كذلك فعل قلبه، أحس به ينفلت، يهرب بعيداً ويستقر هناك بجوار باب الغرفة المغلق. أصبح الآن مشتتاً. يتحدث موزعاً نظراته بين اثنين... المحقق وذلك القلب الخائف المنزوى بعيداً عنه برغم أنه يستمع بوضوح إلى دقاته المتعجلة).

لقد قابل سناء. إحدى الأسر فى الجامعة دعته إلى محاضرة. تكلم عن الأدب. جادلته طويلاً حول مدى التزام الأديب. أعجبته. سحره وجهها الملائكى... لون الريحان المعتق فى عينيها لفت انتباهه، دعاها إلى زيارته فى مكتبه بالجريدة. تمردت ألفاظ كثيرة بين شفتيها. أشعرته بأنه قد شاخ ونام للنعمة. ابتسامتها الدافئة كانت تنتقده فى مودة وتمتدح كتاباته فى غير تملق. وتناشده الآن أن يكون كما كان فى الماضى قادراً على أن يقول ما يعتقد. تواعدا على لقاء آخر لكنها لم تأت. لم يتخذ قراراً بالإشارة إليها فى القصة. لا يدرى كيف نجحت فى أن تتسلل هى إلى أسطرها. ليقل كل شىء لهذا الرجل المتوحش وينتهى).

تكلم. كان الآن ضعيفًا. نسى ضرورة الاحتجاج على القبض عليه وتفتيش مسكنه دون أمر من النيابة (تعلم فيما بعد أنه ما لم تهاجم الأفعى فسوف تظل مرتعداً أمامها).

بعد إنصاتة قصيرة يرتسم عليها الملل انفجر الضابط انفجارة مصطنعة ومحسوبة:

- اسمع يا دكتور، أنا مش هنا علشان أسمع حكايات. أنا راجل مهمتى الحفاظ على أمن البلد. ماتضيعش وقتى أرجوك. ومع ذلك إذا كنت خالى الذهن تمامًا ولا علاقة لك مطلقًا بالست سناء إيه جابها فى القصة... وإيه اللى جاب أم الفحم وفلسطين والعودة واللاجئين والفدائيين والهباب الأزرق ده كله فى عمل قصصى برىء... ده منشور يا أستاذ. منشور سرى. إثارة وتحريض. أنت فاهم أن احنا هبل. وأنت نفسك قلت دلوقت أنك لم تكن تنوى تسليمه للنشر فى الجريدة وأنت متأكد أن الجريدة مش ممكن تنشره.

- أنا قررت عدم إرساله للجريدة لأنى أحسست أننى أكرر نفسى.

- تكرر نفسك... يعنى أنك مدمن كتابة حاجات زى دى. ولكنك فضحت نفسك هذه المرة بالكتابة عن مسؤولتك أنت عارف أنها مقبوض عليها. وضدها أدلة خطيرة...

(تصاعد الضجيج من ذلك القلب الهارب بعيداً. احتارت عيناه بين الأفعى وبين القلب المبتعد. توسلت نظراته إلى القلب أن يكف

عن الضجيج. كم يخشى أن يفضحه قلبه. تلاقت نظراته المتوسلة مع العين الرصاصية للأفعى. الأفعى تهاجم بشراسة. ما أسهل أن تهاجم رجلاً بلا قلب...).

(الأفعى لا تترك له فرصة الكلام. هو أيضا لا يجد ما يقول. الحبال التفّت تماما على عنقه. لا قدرة له الآن على التنفس).

- يا دكتور الورق ده خطير... أنت متصور أن إحنا مبنفهمش... الكلام فيه إسقاط واضح.

- إسقاط؟!

(نطقها بلهجة يختلط فيها مذاق التساؤل ونكهة الاستنكار بألم الدهشة).

- أيوه، إسقاط، تحب تشوف، ماذا تقصد مثلاً بعبارة لا سلام مع الغولة؟

صعق الرجل، تأوه قائلاً:

- لو بدأنا فى إخضاع عمل أدبى لمثل هذه المعايير لما أمكن لأحد أن يكتب، ولا أمكن لأحد أن يفلت.

تجاهلت الأفعى هذه الإجابة وواصلت الهجوم...

كانت أصبعه قد لمست الجرس دقة واحدة. دخل المخبر يحمل القهوة. قرر أن ينهى المقابلة فاستعد بطلب القهوة... تذكر إلحاح سوزى ودعوة حمادة، ولم يزل أمامه الأمل فى انتزاع شىء ما من الفتاة... الحلم فى أن يخبط خبطة حقيقية، لكن هذا الدكتور لا يريد الكلام فليتركه يومين أو ثلاثة فى القلعة لعله يجد ما يقول...

رشفة واحدة من الفنجان تكفى فهو بحاجة إلى بقيته... وجه طلقته الأخيرة.

- عايز مثال تانى يا دكتور... ماذا تقصد بعبارتك «هل تعرف لماذا يستسلم البعض ويخونون لأنهم لم يجدوا فى أعماقهم القدرة على الأمل».

- هذه عبارة عامة، وأنا أحس الآن كم هى ثقيلة فى عمل أدبى. إنها يمكن أن تتردد فى أى درس مطالعة.

- فى درس مطالعة نعم، لكن فى منشور عن فلسطين والسلام تبقى مسألة واضحة... جاوب يا دكتور! ماذا تقصد بالضبط؟

(لا أمل فى إقناع الأفعى. ولا أمل أيضًا طالما أن هذا القلب يزداد انكماشا فى مكانه البعيد بينما يرتفع منه ضجيج يوشك أن يصم أذنى صاحبه... لا أمل، فليصمت).

- جاوب يا دكتور ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئًا...

- .. هل تقصد شخصًا محددًا؟

(يا للبلاهة. أى سؤال هذا؟ وفى وقت واحد ارتسمت فى أعماقهما معًا ابتسامة باهتة لم تجد لا المناسبة ولا الجرأة كى ترتسم فى مكانها الطبيعى).

- لا.. لا أقصد أحدًا. والحقيقة...

- لا حقيقة ولا حاجة، أنا غلطان اللى ضيعت وقتى معاك، حضرتك تبقى تقول اللى أنت عايزه للنيابة.

... داس ثلاث مرات. اندفع عدد من الضباط إلى باب الغرفة، خطف الجاكت من الشماعة الأنيقة التى وضعتها سوزى خلف مقعده... أدخل ذراعه فى كم وترك الآخر معلقًا، أمسك بفنجان القهوة فى يده الخالية من الكم، هكذا يبدو منهمكًا ومتعجلاً. (كثيراً ما يفعلها مع سوزى، يطلب القهوة وما إن تحضرها حتى يسرع إلى الباب بنصف الجاكيت معلقًا فى ذراعه. تقف أمامه بفنجان القهوة يشرب رشفة ويتكلم بسرعة... تعدل له الكرافت، يبدى ضيقًا، يخطف رشفة أخرى ثم يجرى).

قال لمساعده بصوت نصف مرتفع، ولكن يكفى أن تسمعه آذان عدة، بلغ السيد المفتش أنى رايح بنفسى معاه، الظاهر الموضوع كبير... همس مساعده فى تملق بارد.

- مبروك يا أفندم.

سيخ ساخن فى قلب الصيد... أتى به إلى مكانه، فليس معقولاً أن يترك قلبه ويرحل، لكن... الموضوع خطير؟ مبروك يا أفندم؟ لماذا وعلى ماذا؟

اقتادوه إلى الأسانسير. هناك فقط تسلم المخبر فنجان القهوة. بدأ المصعد فى الهبوط. لم يهبط قلبه معه فهو غير قادر الآن على الحركة. الأفعى لبست الجاكيت وعدلت الكرافت عدة مرات.

وانطلقت السيارة... الضابط بجوار السائق وثلاثة فى المقعد الخلفى.

الاستجواب الثانى

تحرك السائق دون أن يسأل. لديه ما يكفي من ذكاء. الصيد والمخبران المخصصان للتعامل مع نزلاء القلعة. هو أيضًا لم ينطق. أغصان كثيفة تشابكت داخله لتضفى هناك ظلاً كابيًا. ليس حزينا، لكنه واليوم عيد زواجه لا يشعر بأى قدر من السعادة. بهجة السيارة والشقة التمليك الفاخرة وانسياب المال لم تتلاش، لكنها فقدت لمعانها. سوزى فتاة طيبة، تعاليها المصطنع ومحاولاتها غير المتقنة تدفعه إلى المزيد من التظاهر، تحولا إلى ممثلين يلعب كل منهما دوره ببرود المحترف أمام الطرف الآخر.

.. السيارة تغوص الآن فى ميدان العتبة. أضواء متضاربة من كل مكان. الصيد صامت، أما هو فالمناخ الرمادى الذى يشبه لحظات الغروب فى شتاء بارد ينتشر فى داخله كرائحة نفاذة. ليس من

سبب محدد، مجموعة أسباب صغيرة. الدكتور لم يتكلم. البنت عاملته فى براءة يغلفها احتقار تام، دخلت إلى غرفته كأنها تدخل محل كوافير... بنطلون جينز، حقيبة يدها معلقة بإهمال مبالغ فيه فى كتفها، جلست قبل أن يستدير بمقعده فأفسدت عليه إتقان الحركة، عندما واجهها كانت قد ألقت بحقيبتها على الأرض ووضعت ساقا على الأخرى... وشغلت عينيها بتأمل صورة طفلته الموضوعة على المكتب.

كانت الضحكات هى أغلب إجاباتها، عندما سألها عن الأسلحة قالت لدى مقص أظافر وسكينة المطبخ، وزملاؤها... كثيرون يملأون المخيمات.

اهتز واحد من الأغصان المتشابكة، مكتب الشئون العربية احتج فى صمت على تدخله فى شئونهم... لو حقق شيئا سيسحقهم، لكن ماذا لو طاشت الضربة كالعادة؟

غصن آخر يتحرك. هذه القصة الملعونة التى كتبها الدكتور حركت شيئًا كان مستقراً، الآن صور ثلاثة تسد الطريق الصاعد إلى ميدان الرفاعى... سوزى، أم سيد، تلك الفتاة التى سيواجهها الآن.

سوزى بتكلفها العاجز دومًا عن التقليد المتقن... شعرها المفرود رغم أنفه والمصبوغ بلون غير ملائم... صدرها المتدلى كبالونة صغيرة نصف منفوخة، ذلك اللون الخشن الذى تنهك نفسها فى طمسه بالكريم والبودرة ومختلف أدوات المكياج فلا يكتسب سوى المزيد من الخشونة...

أم سيد... أين هي الآن؟ علمته الحب. لا لم يكن يحبها. ما الفارق بين الحب والمتعة؟ هذا الدكتور الملعون الذى صدع رأسه بفلسفته الفارغة لم يقل فى قصته كيف تجمع امرأة بين الحب والمتعة؟ قبل أن يرتسم السؤال فى صدره كانت سناء تتدلى أمامه من فوق مئذنة الرفاعى... رآها. جلست أمامه، لم ير شيئًا مما وصفه الدكتور. لم يشم رائحة الريحان.

كانت البلوزة تتسلق عنقها فلم ير القناة التي قال الدكتور إنها أبدية الإغراء... هذا الدكتور اللى عامل مفكر ومحترم يتكلم عن الجنس بطريقة فاخرة. (أحس أنه كاذب وأن فى أعماقه كلمات ونزوات أكثر فجوراً) خضرة العينين. تملأ السيارة برائحة عطرة. هز رأسه ليفيق. سينتزع منها بعد قليل اعترافًا ما. لا بد أن تقول شيئًا. وإلا ضاع هو. سيصرخ مكتب الشؤن العربية بأنه يتدخل فى شئونهم، الفرع سيزعم أنه كان يعد لضربة هامة لكن الطلقة الطائشة منحت الطيور فرصة الهرب من أعشاشها. كلهم سيرمون عليه عبء فشلهم المستديم. لا بد أن يلقنهم درسًا. هذه البنت ستتكلم. أكد هذا فى حسم ليطمئن ذلك الغصن الذى حركته ريح القلق.

السيارة تتسلق نحو البوابة الضخمة، مسجد محمد على أمامها. الحارس على البوابة الأخرى لمح السيارة. فتح قبل أن يصلوا ليدق البوابة الثالثة معلنًا وصول سعادة البك.

لم يلتفت إلى الصيد. كأنه لا يعرفه. تركه مع الرجلين وأسرع إلى غرفته. من شباكها يلمح الآن الحوش المكشوف والزنازين

المغلقة. لا صوت. الحراس شدوا قاماتهم. يستعدون للاختفاء. عندما يصل مع رجاله ينفلتون جميعًا إلى الحوش الداخلي ليتركوا لهم حرية الاستجواب.

تمشى فى الحوش مرتين، لمح الدكتور يتوارى داخل الزنزانة ٢. هى فى الزنزانة ٣، كيف سيستجوبها. لا بد أن يخرج منها بشيء. لحظة الغروب الوشيك كشفت اللون الرمادى. تنفس هواء القلعة النقى. لمح مئذنتى محمد على. لمسة فرشاة رقيقة فى السماء بينهما بلون الشفق الوردى، نفس اللون الذى رسمه الدكتور. هل رأى الدكتور جسدها؟ كيف استطاع أن يصفه بهذه الدقة؟ كيف تكون القناة الأبدية الإغراء؟ عند سوزى لم يلمح أثراً لقناة... عمود مستقيم بلا تضاريس. قطعتا جلد صغيرتان تسترخيان بملل مستديم عند المنطقة التى تسمى الصدر وما من قناة بينهما. أم سيد هى الأخرى. كل خيالاته القديمة تخلو من وصف هذه القناة... دكتور أحمق. هو أيضًا أحمق لأنه يضيع وقته فى كلام فارغ.

خطا بحسم، هز رأسه ليطرد منه أفكاراً لا مجدية، فتح الترباس وفجأة أطل برأسه إلى الزنزانة. انتفضت فى هدوء.

- مش تخبط على الباب.

- أخبط ليه، انتى فاكرة نفسك فى لوكاندة! اطلعى بره.

كانت تلف حول جسدها روبا بلون سماء صافية. لا بد أنها اختطفته من على فراشها الممدد على الأرض. فقد كانت تحاول عبثًا أن تربطه، فى غمرة العيون النهمة اكتفت بأن تلفه بيديها حول

جسدها. لمح سوزى وهى تفعل نفس الشىء يوم القبض على أخيها... لمح الفارق.

أحس بها تتنفس بعمق، صدرها يلتهم الهواء. كلهم يفعلون ذلك فالإغلاق المستمر داخل الزنزانة المخنوقة يجعل أى انفلات نحو الهواء الطلق متعة حقيقية.

الهواء الذى تسرب إلى رئتيها انعكس فوراً على الريحانتين (الغريب أنه استخدم تعبير الدكتور نفسه) لمحة استخفاف تكاثرت رويداً رويداً. عادت عيناها كما كانت عند أول لقاء، نظرة التهكم الساخر المغلفة باحتقار غير مصطنع. آه لو استطاع أن يستجوب الناس داخل الزنانين وبلا أية قطرة هواء هناك سيقولون كل شىء. تأملها بذهن منقسم، نصف ينصب فى نظرة نهمة تحاول أن تخترق الروب لترى مدى دقة وصف الدكتور... هل هناك حقًا فى هذا العالم قناة أبدية الإغراء؟ النصف الآخر يستخف بكل شىء ويفكر فى كيف يستخلص منها اعترافًا. هل يحاول معها باللين؟ أى لين يصلح مع هذه السخرية المكتومة داخل نظراتها والتى لا تنتظر سوى أن يفتح فمه كى تصب كلماتها الساخرة. الرجلان خلفه مستعدان رهن الإشارة. لماذا لا يجرب العنف المباشر وبسرعة قبل أن يستقر الأوكسجين فى عمقها وتزداد جرأة. لا يدرى كيف توافق النصفان. دون أن يبلغاه بقرارهما... وبلا مقدمات ارتسمت على وجهه علامات غضب، عينه اليسرى ازدادت ضيقًا كما تفعل دومًا مع أى توتر (أيام طفولته كان الأولاد فى الحارة يسمونه أبو عين

ونص. عم إبراهيم البقال قال لأمه ده ولد تعلب. التعلب هو اللى بعين ونص، من يومها وهو يتصور نفسه ماكراً. لعله سعى لهذه المهنة بوهم أنه ثعلب).

- اسمك إيه يا بنت؟

(لم تفاجأ. لم تتوقع معاملة أفضل. سمعت قصصًا مروعة عن القلعة).

- ياه، لسه معرفتش اسمى، أمال جايبنى هنا ليه؟

- أنت بتهزرى. اتكلمى عدل.

- عدل زيك كده (براءة طفل رسمت على وجهها علامات مشوهة منها صورة نصف عين مطموسة).

الآن ما من قرارات تتخذ فميكروب العنف ينمو لا إراديًا. ارتفعت يده لتصطدم عنيفة بوجهها (صعدت يداها فى حركة مفاجئة لتغلف الوجه الذى ارتفعت حرارة لونه من الوردى إلى الأحمر. انساب الروب. فقط عندما انسكبت دموعها وتدفقت عبر النسيم المخملى للشفق فى أعلى القلعة تمتعت عيناه لأول مرة فى حياته بجسد أنثوى. أبدًا لم يحلم بشىء أجمل من هذا الجسد المرتجف، شريط وردى متماوج تبدى من فتحة الروب المنسدل... القناة الأبدية الإغراء. مليئة بسحر مخدر. فجأة أحس أنه خدع طوال حياته، وأنه لم ير امرأة من قبل. الرجلان انطلقا خلفها، بدأت اللكزات... اتعدلى. ردى على سعادة البيك. يكفى أن يبدأ وهما يكملان. نظراته لسعتها فى مكان ما عند صدرها، تركت

وجهها عاريًا لتغطى الجسد. ازداد حنقًا. الإبر التى برزت من عينيه فلسعت الجسد، اتكأت وخزاتها فى قلبه. يريد نظرة أخرى. فى ذهنه فكرة حمقاء. لم لا يستجوبها على انفراد، حتى أعوانه يمكن أن يشوا به. سمع دقات قلبه. وسمعها هى تقول... يوما ما ستندم.

الإبر تتكئ الآن فى منتصف قلبه تمامًا ارتفعت يداه إلى وجهها. الرجلان يسددان الآن إلى رأسها وظهرها. تركت لهم كل شىء وتشبثت بالروب. نظراته الوقحة كانت أشد إيلاما من أى شىء آخر.

كرر سؤاله.

- اسمك إيه؟

- سناء الحورانى.

- اسم ابوكى؟

- فاروق.

- وجدك؟

- عبد الله.

- خلاص، يبقى اسمك سناء فاروق عبد الله - فاهمة؟

(قهقهت. لا. لن تنسى حورانى. لماذا هو ضد حورانى؟) صرخت، كأنها لتؤكد لنفسها.

- سناء حورانى (أصعب الكلمات... هى تلك المغموسة فى الدمع المقهور).

الإبر تنغرس فى قلبه. يداها المتشبثتان بالروب تدوسان بحجر ثقيل على وتر يهتز عميقًا بداخله. نصفا عقله يتجاوبان معًا.

انطلقت ساقه إلى بطنها. رفسة أخرى من الخلف. انحنت إلى الأمام... ثم إلى الأرض. صرخ بوحشية لم يسمعها من قبل... أحضر أحد الرجلين عصا طويلة. يعرف جيداً هذه العصا. مارس بها وحشيته مع كثيرين، شريط طويل من الصور أسرع أمام عينيه. رجال كثيرون طرحوا فى هذا المكان. لجزء أقل من الثانية توقف الشريط أمام صورة لفلسطينى تسلموه من بلد صديق ليستجوبوه. نفس هذه العصا. فى أسفل ظهره أدخلها عميقًا خرجت مغموسة بالدم، صرخ: سأظل مهما حدث أكثر رجولة منكم. نصفا مخه يتحالفان ضده، يعلو صوته اسمك إيه يا بنت؟ شفتاها مغلقتان. يعرف الرجلان، أحدهما مسكين لكن الآخر بغل حقيقى، شذوذه الجنسى يمنحه وحشية بمذاق خاص فى استجواب الرجال، يتطوع بتصعيد التعذيب إلى أقصى وأقسى مدى... ومداه الحقيقى أن يخلع ثياب الرجال ويضربهم عراة. هو صاحب اختراع العصا. لكن الكلب لا يتجاوب الآن. لا شىء يغريه فى الفتاة. الإبر تدوس الآن على قمة قلبه تلح... تريد نظرة أخرى. أصدر أمراً بنزع ملابسها... تعاون المسكين والبغل، التصقت بالروب، صرخت فى جنون، ضربها البغل على رأسها، استكانت قليلاً. فى معركة حربية يكفي أن تأمر بإطلاق رصاصة واحدة ثم تنساب الطلقات بتداعياتها... هكذا يحدث الآن. كلمة واحدة منه، ثم يستدرج العنف بعضه بعضاً، قطعتان رقيقتان من الدانتيل بقيتا، لونهما بلون السماء

(سوزى تختار ألوانا صارخة) يد المسكين التى تشبه الجاروف شدت السوتيان إلى أعلى، تمزق من الخلف بعد أن أدمى ظهرها. أفاقت فصرخت، يداها الآن تلتصقان بالصدر. الجاروف انتزع القطعة الأخيرة، توزعت الإبر منسكبة من عينيه فى كل اتجاه. النصف الثانى يلح فى أن ينال شيئًا، أن يخرج من المعركة باعتراف ما... عينه افترشت كل الجسد فى استمتاع دنىء... أطبقت فخذيها فوق بعضهما بنفس العصبية التى ألصقت بها ذراعيها فى صدرها... بينهما تماوجت شعيرات صفراء خالية البال مع نسيم الغروب الرقيق، بين ستارة الدموع تحت العصا فى يده، قلبت نفسها تحتمى بتراب الأرض الأسمنتية. حصاة انغرست فى جنبها الأيسر. ازدادت تشبثًا التراب. جذبها المسكين من شعرها، البغل يتثاقل فما من دافع خاص. رأسها ثقيل، رأت حذاء يقترب من فمها لم تشعر بألم. كل إرادتها تمسكت بالتراب تحتمى به. كلمات تخرج من فم الضابط، حروف متناثرة مفكوكة من بعضها... هو يسأل عن السلاح. التنظيم، المسئول! حتى لو كانت تعرف لما وجدت القوة كى تنطق. سمعت أمرًا. قلبوها بالقوة. الضابط شتم البغل. كلمة واحدة بذيئة، الكل يعرف أنها الوحيدة التى تؤلمه. انهال البغل على رأسها بوحشية... دوامات. تحت العصا تتراقص... وتتكاثر. أحست بطرفها يتلامس مع بطنها... استجمعت كل ما بقى من إصرار وأرسلته إلى فخذيها أطبقتهما معًا. تصورت أنهما التصقا ولا يمكن فصلهما إلا بمشرط الجراح... الدموع تنسج غلافا زجاجيا. كأنها تتأمل مئذنتى القلعة من خلف زجاج

مبلل... بينهما الهلال كأرجوحة جميلة تهتز بعنف. ضربات متتالية على رأسها، لم تشعر بأى ألم. كانت سعيدة. تسلقت أشعة الهلال تأرجحت هناك. زغاريد عالية. رائحة خبز ساخن. حبيبها يركب الحصان الأبيض. يلف رأسه بالحطة، يحملها أمامه، بنات أم الفحم يرقصن الدبكة. لو كان أبوها حاضراً لاكتملت البهجة، كما كان يحلم، زفافها يكون فى بيارة البرتقال، الروائح الفلسطينية المميزة تغرق المكان... مع حبيبها هى داخل الدار، على السرير ذى الأعمدة النحاسية. سمعت صرخة عالية. دهشت لأنها صادرة من داخلها. لم تصرخ فى لحظة كهذه؟ الألم الصاعد من أسفل شد جفونها فتفتحت، تماما كوردة غير ناضجة تفتح وريقاتها قسراً... كانت العصا تقطر دمًا. بقعة حمراء صغيرة ترقد أعلى فخذها الأيسر... انتهى الاستجواب. لوهلة شعرت بالدهشة، ولم تدرك بالضبط أين هى. عندما جذبها البغل من شعرها إلى أعلى فهمت.

كان الضابط يفتح فمه لكنها لم تسمع أسئلته. صوت طبول الفرح يغطى المكان كله. لكن الهلال الآن بعيد. ستارة زجاجية عميقة تغطيه. هى على أية حال لا تريد الآن أن تتأرجح، فقط تريد أن تنام. ساقاها ترفضان القيام بمهمتهما لولا أن المسكين يجذبها لأعلى لارتمت على الأرض.

عارية هى الآن بين عيون مسترخية. ضمت الروب إلى صدرها وبقيت على الأرض كرتان من الدانيل الممزق.

- أنا مانى خجلانة منكم. ما انتم رجال (بلهجة فلسطينية نطقتها) (لم تدر كيف تحركت شفتاها. أحس بسكين غير مسنون

ينغرس فى حلقه. لم يجد كلمة يقولها. هرب النصفان معًا. الاستجواب انتهى بلا شيء. ولا يجد حتى كلمة الختام).

هى أنهت المشهد.

ارتطمت بخده الأيمن صفعة لزجة، تمددت لتغطى أكثره. كل ما بقى لديها من قدرة استجمعته فى بصقة أرسلتها مبللة بالدموع والتراب إلى وجهه.

امتدت يده إلى خده. لمح خيال ابتسامة يتمايل على وجه البغل وكان المسكين حزينًا. أشار بيده الأخرى فألقوها فى الزنزانة. رمى العصا.

السيارة تدحرجت به من أعلى القلعة. الراديو مفتوح. صوت المقرئ يملأ السيارة تمامًا. الرمادى أصبح الآن داكنًا. يده تحسست مرة أخرى خده الأيمن. شريط من الحزن العميق يلتف حول رقبته.

صوت المقرئ ينغرس الآن بداخله «قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون» تشاغل بفشله فى انتزاع شيء. أمر ذهنه ألا يسترسل فى الاستماع وأن يجد مخرجًا من المأزق. عاد المقرئ يلح. «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة».

صرخ فى السائق. انفلتت الصرخة دون أن يقرر. أحس بالخزى، هو الآن ضعيف، يده معلقة بخده. يد السائق تنحنى بالسيارة يمينًا باتجاه المنزل واليد الأخرى تسكت الراديو وهو يتمتم بالاستغفار.

الاغتراب

اتكأ فى ملل ظاهر على باب غرفة النوم. سوزى تحاول قدر طاقتها أن تصلح ما أفسده الدهر. قطع الماكياج المتنوعة متناثرة أمامها. تتأفف من لا شيء. شعرها يؤرقها أكثر، فبرغم الميزمبليه المتقن يبقى فى حالة تشنج دائم، لا هو كما كان ولا أصبح منسدلاً. يدها تتلامس معه برفق متوسل يحاول أن يمنحه بعضًا من الاسترخاء... ولا أمل. (فى كل مرة تستعجله وتلح فى الاستعجال، ثم فى اللحظات الأخيرة، يتساقط الزمن منها أمام المرآة دون حساب، كان الملل المرهق يملأه، بقى ساكنًا بينما تبدى هى آهات مكتومة كعادتها عندما تكون لديها شكوى مختزنة. اعتاد أن يسألها، هذه الليلة فمه مغلق. قرار إغلاقه ليس صادرًا عنه على أية حال. الأسود فى أعماقه أصبح داكنًا يغلفه ظلام دامس. الأغصان

الآن جافة. ميتة، لكنها تتشابك فى مشاركة مؤلمة. ما أسوأ أن تتعدد أسباب الحزن، وتتناثر فى أعماقك كقطع زجاج صغيرة لكل منها جرحه المتميز بألم ذى مذاق خاص... عادت تتأوه. لم تجد مفراً أمام سكوته، فانطلقت تشكو. جارتها فى الشقة المقابلة تتجسس عليهم. هى فاكرة نفسها إيه؟ لازم توديها فى داهية إيه يعنى أبوها المستشار... أخيراً قالت السبب. جارتها تجاسرت فسألت خادمتهم هل صحيح أن الست سوزى اسمها الحقيقى سيدة...؟ لم يجد ما يقول.

أخيراً لم يبق أى مبرر للبقاء أمام المرآة، استدارت ثلاث مرات. أحكمت للمرة الأخيرة وضع البروش الثمين، تأكدت من موقع الخاتم السوليتير. استجدت للمرة الأخيرة بعض المرونة من شعرها. ووضعت لمسة روج بلا معنى... مطت شفتيها مرات عدة - تناولت الفورير الثمين وسارت أمامه.

أمام السيارة عبثت طويلاً فى حقيبتها. عثرت على المفاتيح... من أعلى أسقطتها ببطء متعال إلى يده (طويلاً توقفت ماكينة العرض الداخلية أمام هذه الصورة. يدها فوق، تتدلى منها المفاتيح معلقة بالمسامير الصدئة التى تشبه الأصابع... السيارة باسمها، كذلك عقد تمليك الشقة، أيضاً شهادات الاستثمار. حتى الثلاجة اكتشف وهو يقلب فى أوراق قديمة أنها مشتراة باسمها. يدها ناولته المفاتيح فى تعالى من يمتلك. من يعرف جيداً أنه يمتلك. لم يلحظ عجرفة أصابعها من قبل... انطلق بالسيارة صامتاً. هى لم

تزل مشغولة بالماكياج أخرجت مرآتها الصغيرة، تحاول من جديد. تثرثر بما لا يلتصق بالأذن. كراديو مفتوح عند الجيران لا يتابعه أحد. سألته لماذا هو صامت. قال الشغل كثير ومقرف).

سألها إلى أى مسرح سيذهبون، قالت إن مودى (الاسم الجديد لحمادة) ينتظرهم أمام المسرح القومى. لم يعر الأمر اهتماماً. هناك فقط أدرك الفخ، تذكر التقرير الذى رفع من الفرع عن المسرحية. الولد يحاول أن يعبث به. لماذا اختار هذه المسرحية بالذات؟ تقبل الطعنة فى كبرياء. ابتسامة مودى الساخرة لم تمنحه سوى المزيد من القلق. لم يكن ينقصه إلا هذا السخف. سمع ضحكتين خلفه. أولاد سبق أن قبض عليهم يشربون السحلب الساخن لا بد أنهم يتندرون عليه... أحضر له مودى سحلب، نسيج السائل الأبيض فى شحوب ذكره بلونها عندما ارتمت مرتجفة على الأرض الأسمنتية بعد أن امتص كل ما بها من دماء. ترك الفنجان جانباً حاول أن يؤكد لنفسه أنه ليس حزيناً. ولا حتى متضايق. اليوم عيد زواجه. لا بد أن يلقن الولد درساً فيتظاهر بأن هذا الاختيار للمسرحية لا يعنيه فى شىء. رسم ابتسامة ساخرة قطعتها همسة من سوزى ليه بتحك فى خدك؟

مأساة ماكينة العرض الداخلية أنها تتوقف أحياناً. توقفت أمام ستارة المسرح عندما انفرجت لمسافة صغيرة. مثلها تماما انسدل الروب السماوى عندما ارتفعت يداها لتحمى الخد الوردى من الاحمرار. عيون الجمهور التى تسابقت لترى ما يجرى خلف ستار

المسرح أقل نهماً من عينه الشرسة عندما تماوج أمامها الشريط الوردى الساحر تطل منه قطع الدانتيل ذات اللون الموشى بالحنان.

بدأ العرض. لمح مودى يسقط همسة فى أذن خطيبته. على المسرح ضابط يشكو للطبيب عجزه الجنسى. وعلى المقعد المجاور الولد يقول لسوزى «حاسبى على نفسك» فتنزلق منها ضحكة بلهاء. مسمار انغرس فى كبريائه. الولد يلعب على المكشوف. تواصل العرض المسرحى ليكتشف الطبيب أن سبب العجز هو إدمان الضابط تعذيب سجنائه بأساليب معينة (كان هو يتابع) قطع الولد إحساسه بالتفوق بهمسة سافلة «حاسب على نفسك» لم يجد مبرراً للإجابة. فى ظهره الآن ثقب عميق تنطلق عبره تعليقات قذرة من الأولاد الجالسين خلفه يحاولون عن عمد إيصالها إلى أذن زوجته. الكلاب، يعرفهم جميعًا، وسيربيهم يوما ما. استراح إلى قدرته على الانتقام وواصل جلوسه المؤرق (المؤلف أحمق. يحاول أن يستثير الجمهور بسيناريو باهت. الواقع أكثر رهبة مما يحاول أن يقول ومع ذلك فالجمهور أبله ويبدى تأثرا. والممثلون خائبون، مهما افتعلوا الحماس. تخيل نفسه ينحى الجميع يصرخ بأعلى صوت... هكذا يكون الأمر ثم يضاعف التعذيب ألف ألف مرة).

هكذا حاول أن يدس فى نفسه إحساسًا بالكبرياء... وبأنه أقوى من كل هؤلاء المتحالفين ضده المؤلف والممثلين والولد مودى والكلاب الذين خلفه.

انتهى العرض، تثاءب فى إتقان محاولاً أن يصفع الولد باللامبالاة والتظاهر بالاسترخاء.

فى السيارة سألته سوزى انتو بتعملوا كده؟

- بلاش كلام فارغ. مؤلف تافه وممثلين فاشلين.

- بس بتعملوا كده؟

غيّر موضوع الحديث فأحست أنها تلمس جرحًا. لكنها صممت على سؤالها فسب ببذاءة سائق سيارة مجاورة أحست أنه يوجه إليها إجابة غير مباشرة.

وفى المطعم الفاخر تكاثرت الكؤوس لأسباب عديدة. الولد يريد أن يتباهى... وسوزى تريد أن تشرب استعدادًا لليلة انتظرتها وقتًا ليس بالقصير. شرب هو منغمسًا فى استرجاع أحداث اليوم دون أن يعيرهما كثير التفات. الولد يدير النقاش ببراعة المايسترو يتأرجح بالمناقشة بين عيد زواجهما، والمسرحية، ويوم جاء هو ليقبض عليه. هو يتباعد، الخمر بداخله تلح عليه ألا يدخل فى أى نقاش، وتنفى عنه رغبة الاستماع. لكن ثمة كلمات تخرج مسددة كسهم يلح على اقتحام الأذن... ثم ينطلق إلى قلبه... لا يدرى كيف. ولكن فجأة أشهر الولد سيفًا سدده فى الصدر تمامًا... بالضبط فى منطقة الألم الأسود. ماذا كان بالورقة التى أخذتها من كراساتى وأعطيتها لسوزى؟ (يا للوغد. انتظر خمس سنوات ليوجه السؤال. لماذا الآن؟ فى هذه الليلة بالذات؟ الولد أعد انتقامًا... عيد الزواج، المسرحية، ثم المواجهة. ماذا لو علم أيضا بأحداث اليوم؟).

– مش فاكر ! (أجاب فى استرخاء من لا يهتم. استرخاء بعضه متعمد وبعضه بسبب الخمر).

– لا. لازم تكون فاكر لأنى متأكد أن دى كانت تمثيلية، وأن الورقة مكنش فيها حاجة...

(انسكبت أمامه نظرة من عينى سوزى يمتزج فيهما الحزن بالألم ومعهما كثير من الاحتقار).

السيف المشهر فى صدره يلمع نصله مع ومضات الموسيقى التى ارتفعت صيحاتها تدعو الجالسين للرقص حاول أن يهرب فدعا سوزى للرقص. رفضت فى حسم (منذ أسبوع تواعدا فى لحظة صفاء دافئة. قالت لازم تفضى شوية ونسهر ونسكر ونرقص. أعطته موعداً فى عيد زواجهما. لكنها الآن ترفض).

الولد يعاود إشهار سيفه، لم تحتمل، صرخت... كفاية من فضلك.

هو بقى صامتًا كمتهم. أدرك الآن فقط أن الصمت نوعان: حكيم وعاجز.

وفى النهاية أتى الجيلاتى فأحس براحة. لحظة الهروب تقترب. الكريم شانتيه الوردى يتوج الكأس، وفى القمة قطعة كرز. فيما كان الجميع يلتهمون... الولد وخطيبته فى نهم، وسوزى فى ملل من يريد الخلاص من ضيف ثقيل... أحس هو بكأس الجيلاتى يتمدد... ينمو، يطرح أرضا، العصا فى يده. قطعة الكرز الحمراء بقعة على الفخذ الأيسر، أزاح الكأس جانبًا. خطيبة الولد كانت طوال الوقت

تكتفى بابتسامة محددة (كأى فتاة أوصتها أمها قبل أن تخرج مع أسرة خطيبها أن تكون حسنة السلوك).

لكنها نطقت أخيراً...

- حضرتك بتدعك خدك ليه؟

لاحظت سوزى أن بقعة حمراء راقدة عليه... وقالت إنها أرتيكاريا. حاول الولد أن يستظرف:

- طبعًا أنت ضد اللون الأحمر حتى لو كان فيك...

لم يحتمل أكثر. نهض. نهضت سوزى. سلموا فى برود.

*

شىء ما يتآمر ضد هذا الرجل...

أو هكذا - على الأقل - كان إحساسه هذا المساء...

عندما فتح باب الشقة كانت الطفلة تبكى. الدادة تغير لها ثيابها. دخل يطمئن عليها كانت راقدة على سريرها، عارية، تتألم من ملمس الأصابع الحانية. رقبتها تميل برأسها نحو الجانب الأيمن وتبكى... آلة العرض تمتلك أيضًا جهاز تكبير... الصورة تكبر، الشعر ينسدل. الصدر يثمر... الأصابع الحنونة تصبح عصا. يغمض عينيه ويخرج. سوزى تسأل مرة أخرى فيه إيه فى خدك بتدعك فيه ليه؟ أجاب التليفون برنين مستقيم... تناولت سوزى السماعة لتقول فى ملل آلو أرستقراطية مختلفة عن أية آلو أخرى... تشاغل عنها بخلع ملابسه لكنها أتته ونظرة صفراء تتدفق من عينيها.

- كلم.

- إيه. مين؟

- روح شوف البلاوى اللى أنت عملتها.

قال مساعده إنهم اتصلوا من القلعة. البنت عندها نزيف وحرارتها مرتفعة. يستأذنون فى إحضار طبيب. تحرك رأسه مع دوامة صغيرة. أدرك اللعبة. عندما يبدى مساعده لهفة كهذه. ويتكلم بالتليفون، ويحكى لسوزى القصة. ويريدون إحضار طبيب... فلا بد أن البعض يريد إحكام الطوق حول عنقه. شتم فى سره واكتفى بأن أصدر أمراً قاطعًا... لا. بكرة حتبقى كويسة. (كان يحاول أن يطمئن نفسه) حاولت سوزى وهى تخلع ملابسه أن تسأله عما حدث. أجاب بتمتمة غاضبة، اقترب منها ليسكتها. أحس ببرودتها تلسعه. الرغبة سقطت من كل منهما. لكنه قرر أن يحاول أن يخرج بعلاقتهما من توترات هذا اليوم الملىء بالجراح... حاول أن يلتصق بها. افتعل قبلة تعمد أن تستطيل... هى لم تتمنع لكنها ظلت أكثر تباعداً، تقدم له شفتيها كأنها تناوله فنجانًا من القهوة الباردة. ماذا جرى؟ هل حديث الولد عن الورقة أثار شكوكها فى الصفقة كلها؟ أم هى المسرحية...؟ أم الحديث التليفونى؟ طوال الأسبوع كانت تبدى توددًا دافئًا. تمنيه بليلة حانية فى عيد زواجهما. لو أنها رفضت. أو أبدت تمنعًا لهان الأمر. سيدير ظهره هو الآخر ويتظاهر بالغضب. لكنها تضعه فى قفص بارد ولا مهرب. هى لا ترفض وكأنها تتحداه.

ها أنذا ولو كنت رجلا حقًا... اقترب.

أحس بالمأزق، شريط سريع تلاحق... المسرحية، حديث الولد، المكالمة، قطع الدانتيل الممزقة. لا بد أن ينسى ذلك كله. أن يتحداه أن يخرج من المصيدة الثلجية.

بذل جهداً آخر. ضمها إلى صدره، استرخت بلا حراك، حذرته أن يتلف تسريحة شعرها، كلماتها كانت بلا مذاق كأنها تتحدث مع راكب عابر فى الأتوبيس، يده الآن تتلامس مع صدرها، ماكينة العرض الملعونة تدور الآن بصوت مسموع. أم سيد، سناء، طفلته، صدر سناء يتألق فيه ثقب كبير ينزف. القناة الأبدية الإغراء مغموسة بالدم. هو حتمًا لن يستطيع، وهو أيضًا لا يريد، لكن المشكلة هى كيف يتراجع...

تركته فى المصيدة الثلجية حتى نزف عرقًا يحمل رائحة المهانة... ترك رأسه يسترخى فى بلاهة على كتفها المتوتر... أخيراً فتحت باب المصيدة. تناثرت إلى أعماقه أسهم صغيرة، صفعة زجاجية تراشقت شظاياها فى كل جراحه القديمة: بلاش تتعب نفسك قوى كده، تصبح على خير.

الغواصة

أبصرت قدمه طريقها رغم العصابة التى التفت دون مقدمات على عينيه. انحدرت درجة ثم امتدت أمامها الأرض. نزعوا العصابة، قبل أن تفيق عيناه صفعت أذنه ارتطامة باب يغلق.

هكذا إذن تكون زنانين القلعة، سمع الكثير عنها فى ثرثرات رخية تناثرت بإهمال وبلا انفعال. مرتبة رمادية اللون منتحية جانبًا كرصيف مليء بالحفر. الجدران ممتدة لأعلى بلا فتحات. الباب يتخذ لنفسه طابع الجهامة برغم ثقوب صغيرة تخترق نقطة تلاحمه مع الحائط ليتسرب منها ضوء أكثر لمعانا من ضوء الزنزانة المنطفئ دومًا.

تماوجت فى ذهنه عشرات، مئات الأسئلة. قطع الطريق ذى الأمتار الثلاثة بما يفوق عدد ما لديه من أسئلة. أنهكه المشى فجلس.

منذ زمن بعيد لم يجلس على الأرض. لأول مرة يحس أن المرتبة موصل جيد للبرودة. وضع رأسه بين يديه وتاه. افترشت الدهشة بقية المساحة الخالية من الزنزانة وبقيت تناوشه وتنتزعه من همومه. لماذا أتوا بك إلى هنا؟ من أجل القصة أم من أجل سناء؟ أين هى الآن ما هى حكاية السلاح هذه؟ وخزه ضميره وخزة خفيفة عندما لام نفسه لأنه لم يكن حذراً بما فيه الكفاية فى الكتابة ولا فى استقبال فتاة خطرة كهذه فى مكتبه.

جمعت الدهشة أطراف ثوبها وذهبت. ضجرت من صمته وبلادته. استرخت أفكاره قليلاً، نامت، تركت ذهنه يتمطى فى رحبات الماضى تعرف على نفسه أكثر. تذكر أشياء لم يكن يتصور أنها باقية فى رواسب ذاكرته. حكى لنفسه قصصاً جميلة. كشف لها عن أسرار كثيرة كان يخفيها. آلمته ساقه من الجلوس فقام.

اكتشف أن هناك بطانية رفعها فطمأنه ثقلها إلى بعض الدفء. تركها تسقط فانزاح منها تراب كثيف، أيقن أن نصف وزنها تراب...

لا شىء آخر. ماذا لو أراد أن يشرب، أو يتبول، مرض السكر يفرض عليه ذلك عشرات المرات كل يوم.

أشياء صغيرة لم تكن تشغل باله من قبل. لم يفكر يوماً ولا فى سرحاته الأدبية أن تصبح رغبة الإنسان فى التبول واحدة من مشكلاته.

تأمل على الجدران نقوشاً كثيرة. تشاغل عن همومه بمطالعتها. كسائح يقطع الوقت بمتابعة نقوش فرعونية تستغرقه روعتها دون أن

يفهم منها شيئًا... لماذا تباعد عن السياسة؟... لم يتخذ قراراً، لكنه الصدأ ينبت على جلد المعدن ثم يتراكم دونما حاجة إلى قرار... «كل هم يزول» أبو الهيثم. (استراح قليلاً) ترى أين أبو الهيثم هذا؟. عاد قلبه إلى الانقباض «أرجو كل من يقرأ وصيتى هذه أن يبلغها إلى الدكتور... بكلية الشريعة بالجامعة الأردنية». ثم وصية كاملة يوزع فيها شخص ما ثروته بين أمه وأخته وزوجته وجماعة المسلمين والتوقيع: أبو يسن... «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». - أبو الضرغام - أبو العز الحريرى نائب الشعب - نبيل الهلالى محام - حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، حزب الجماهير الشعبية الكادحة - عاش أبطال إضراب النقل العام - فريدة النقاش، شاهنده مقلد - تحيا مصر (ونساء أيضا أتين إلى هنا. لا بد أن سناء فى جحر ما من هذا المكان).

أفزعه من استغراقه دق عنيف على باب مجاور. ثم دقة واهنة. أقدام تقترب فى استرخاء. حديد يطرق حديداً بعنف، لا بد أن الترباس ضخم. لحظة صغيرة ثم يعود الحديد صارخًا معلنًا إغلاق الباب. صوت يأتى من بعيد. أذنه تسحبه ناحية الباب فقد اكتشفت ثقبًا تستقى منه أصواتًا من الخارج. التصقت بالثقب.

- آلو... ادينى الإدارة... مساء الخير يا فندم... الحمد لله يا فندم... آسفين للإزعاج لكن البنت اللى فى نمرة تلاتة عندها نزيف وحرارتها مرتفعة. تأمر سيادتكم بحاجة؟ حضرتك حتشرف أهلاً يا أفندم.

تباطأت دقات قلبه فى اكتئاب حزين. ما أصعب أن توضع بنت فى مكان كهذا. كيف تفسر لرجل يسجنها أن عندها نزيفًا. كيف تواجه مشكلاتها الأنثوية وسط هؤلاء الذئاب (الأديب يطفو الآن. يريد أن ينأى به عن الواقع فيهرب به إلى محاولة نسج قصة عن فتاة سجينة. هو يزجره يأمره أن يذهب. أحس فى الهروب من الألم جبنا. فليتألم قليلاً من أجل فتاة لا يعرف من هى... ليقدم لها حزنه قربانًا للمشاركة الأبدية). ترى من هى نمرة تلاتة، ونمرة كم هو؟ النزيف يمكن أن يقتلها. طائر قبيح الوجه حط على ذهنه. أنشب أظافره فى رأسه يلح عليه، لعلها سناء هز رأسه ليطرد الطائر. هزه بعنف، بقى الطائر مكانه.

سمع صوت سيارة. انتبه إلى كلاكسات تأتى من بعيد. إنهم المسرعون على طريق صلاح سالم، علام هم متعجلون؟ كم منهم يعطى من فى هذا المكان ولو لحظة إشفاق، البعض يثرثر فى ما لا يهم. والبعض يتملق محبوبته بكلمات جوفاء. وآخر يلفت نظر طفلته إلى جمال مئذنتى القلعة، لعلها لو سألته من بناها ولماذا هى ضخمة هكذا لما عثر على إجابة. البعض يستمع بلا إنصات إلى صوت فيروز أو أحمد عدوية كل حسب ذوقه. يختلفون جميعًا. فقط يتفقون على أن ينفوا من ذاكرتهم أن فى القلعة سجنًا وأن فيه سجناء. بدأ يلومهم. يسبهم. برز فى خاطره نتوء صغير صفعه من داخله... وأنت كم ألف مرة أسرعت فى هذا الطريق. هل انحنيت بفكرك ولو لحظة نحو هذا المكان؟

أرهقه السير. تذكر حيوانات الحديقة. زارها منذ وقت قصير (الإنسان يزور حديقة الحيوان مرتين... وهو طفل ثم عندما يصبح له طفل. تذكر ابنه وابنته. ماذا قالت لهما زوجته. تذكرها هى أيضًا. دمعة انحدرت. الآن فقط أحس برغبة حقيقية فى أن يبكى. تذكر طفلته تحاول أن تمد يدها الصغيرة لتمسك بالأسد. لم لا يتجاسر الناس على الإمساك بالأسد. لو فعلها شخص، اثنان، ثلاثة لاعتاد الأسد على ذلك).

جلس متعبًا، السير فى زنزانة أكثر إرهاقًا من الجلوس بلا حركة، تسير خطوة لتصطدم بجدار ثم تستدير لتصطدم بالآخر... رأسه مسترخ بين يديه وركبتيه. الأديب يقترب ليسأل فى انبهار أى مكان هذا. أى أحداث شهد... اختال المماليك فى خيولهم المزركشة، عساكر الفرنسيين، الملابس الموشاة، الباشا، الخازندار، الكتخدا، الباشبزق، الخونكار، المحتسب، الدفتردار... المشايخ تهادت مواكبها أمامه. كثيرون تصارعوا هنا. اقتتلوا. حشوا رؤوس بعضهم البعض بالتبن وعلقوها فى الرميلة... أطلقوا الشنك والبمبات فى قتالهم وفى أفراحهم أيضًا...

أحلامه كان يمكن أن تتهادى كموج النيل بلا نهاية. لأول مرة فى حياته يجلس بلا انشغال ليطالع صفحات عقله. ويتأمل نفسه. ألم قاس يصعد من أسفل. آلاف من النمل تتسلق عموده الفقرى إلى رقبته تلتف حولها. توشك أن تخنقه. لم يظن يومًا أن التبول سيكون مشكلة... قرر أن يخترق حاجز الرهبة. سيدق الباب.

سيصرخ فى وجوههم. أليس من حقه أن يتبول (ابتسم على مضض عندما تذكر أن الذين صاغوا وثيقة حقوق الإنسان نسوا أن يضيفوا إليها هذا الحق).

تردد. ثم اندفع إلى الباب المغلق فى رسوخ سرمدى. يده تلامست مع الباب. قبل أن يرتد صوت الطرق إلى أذنه سمع الباب يفتح فى تؤدة، شخص ما كان ينتظر، أم هى مجرد مصادفة؟ المهم. وجهه تلامس مع نفحات هواء نقى وبارد. وتأملت عيناه وجها باهتاً بلا ملامح. شارب أصفر منسق بعناية اختفى من وجوه الرجال منذ الأربعينيات، ابتسامة فيها تشفٍّ واضح يتأرجح على أطرافه بعض من العطف.

نسى ما أعد من كلمات وصرخات... أمامه الآن ذلك المساعد الأنيق الذى همس فى أذن الأفعى «مبروك يا أفندم».

- أنا عاوز أعرف أنا هنا ليه؟ وحافضل كده لأمتى؟

مساعد الأفعى هو أيضا أفعى صغيرة أنيابه تفرز ابتسامة كئيبة.

- سعادتك لازم تعرف أننا لا نتصرف إلا فى حدود سيادة القانون.

- وسيادة القانون دى حتحبسنى لأمتى؟

- مش كثير... (صمت قليلاً ثم تطايرت كلمات من فمه كفقاعات صابون من فم طفل يلهو بفرح. كان يحرك شفتيه ببساطة وانتشاء وكأنه يتحدث عن رحلة سياحية)... شوف يا سيدى سعادتك حتروح النيابة بكره الصبح. حتاخد أمر حبس.

بعد شهر بالضبط من تقديم تظلم من أمر الحبس حتروح المحكمة. إن شاء الله حيفرج عنك. حترجع تانى خمستاشر يوم بعدها مكتب السيد الرئيس يمكن يعترض على قرار الإفراج. بعد شوية حتروح المحكمة تانى. تاخذ إفراج وتتفضل تروح بيتكم. قبل أن يسقط حرف الميم الأخير كان الباب يصفعه وسمع الحديد ينزلق على الحديد تركته الأفعى الصغيرة دون أن تكمل كلامها. دس عينه فى الثقب الصغير لمح قطعة من رجل تسير والرأس معصوب بقماش أسود (ضيف قادم. والتقليد ألا يرى أحد أحداً).

موجة أخرى من جيوش النمل تسلقت عموده الفقرى دق الباب مرة أخرى فتح له رجل يلبس صديرى فلاح وبنطلون جندى بوليس وقبقاب (الآخر اختفى تماماً. بعد فترة عرف قواعد اللعبة هناك طاقمان، أحدهما لا يظهر أبداً مع الآخر). لم يجب العسكرى على طلبه. أغلق الباب أولاً. التقطت أذنه صوتا خشنا يخاطب آخر.

- قول للبيه الضابط نمرة اتنين عايز الدورة... (الآن فقط عرف رقمه ترى أين تكون نمرة تلاتة).

وفى دورة المياه قرأ نقوشاً عديدة وأسماء كثيرة «الإضراب عن الطعام سيبدأ الاثنين القادم» (يتراسلون عن بعد كما يفعل سكان الغابات) لفتت نظره عبارة محفورة بعمق وإتقان «إذا كنت أنا أحتمل فلا بد أنك أيضا ستحتمل». وخزته العبارة. فتاة صغيرة لا يعرفها لقنته درساً.

*

... والزمن فى الزنزانة صحراء ممتدة... لا فواصل، ولا علامات مميزة. تمضى إليها ببطء المنهك من رحلة شقية وتستمر، لكنك لا تعرف كم قطعت ولا كم بقى - الدقائق خطوط مستطيلة بلا نهايات تتحول إلى خيوط تلتوى فتعتصر القلب. فى كل مكان يمضى بك الزمن. إلا فى الزنزانة أنت تدفعه. قطعة من حجر صلد تزحزحها أنت بإرهاق شديد ومجدب.

تربع على الرصيف... امتدت حياته مفروشة للمرة الأولى أمام عينيه.

كأنثى مراهقة تستمتع بوحدتها. تخلع ثيابها تتأمل جسدها فى مرآة. تحسس ذاته بأنامله. تعرف لأول مرة على نفسه. تجسدت حياته أمامه رحمًا ضخمًا يملأ الفراغ الصحراوى فى الزنزانة فيها كل ما فى الرحم من رخاوة وليونة دافئة، ونهم ذاتى للمتعة. كل شىء هنا... طموحه، نزواته، رغباته. تباعده عن المشكلات. تأمل قليلاً جداريه لمح ندوبًا وطحالب... غروره. خوفه. ذاته التى حفرت بأظافرها بئرًا عميقة. كلما صعد هو زادت البئر عمقًا... فى أعمق أعماقه دفنت، كنوزه... الأفكار التى تألقت أيام شبابه، المبادئ... القيم، ثم أهال على ذلك كله ترابًا صخريًا يزداد صلابة كلما تطلعت ذاته نحو طموح جديد.

أمسك بقطعة قماش حاول أن يزيح الطحالب والأدران، أدرك أنه يحتاج إلى جاروف ضخم. أمسك بالجاروف. أخيرًا عرف كيف يحفر البئر ويستخرج منها كنوزه...

الآن هو وذاته تصالحا. كحبيبين يفترشان معًا بساطًا رمليًا على شاطئ مشمس ويستمتعان بدفء الصدق الحقيقى.

بقى قلبه. أجلسه إلى جواره. عاتبه طويلاً. كيف تفر منى لدى أول عثرة. تململ القلب ثم انطلق مؤنبا: «الآن تريد أن تتظاهر بالشجاعة. بعد أن أصبحت الفاس فى الراس ولا مفر. ترتدى ثوب الفارس... أنت الذى لو سئلت لما اخترت، ولو أعطيت فرصة للانسحاب لتراجعت.. هنا فى الزنزانة تريد أن تبدو أمام نفسك بطلاً ولو أتاحوا لك مهربًا لفررت دون تردد... فكر فى الغد عندما تخرج ستحتاج لمزيد من التعقل حتى تمحو من الأذهان أثر هذا الخطأ. والمسألة فى النهاية ليست جبنًا أو شجاعة وإنما هى عقل أو لا عقل»...

تطلع إلى النقوش على الحائط ومال على قلبه هامسًا: «مئات بل ألوف أتوا إلى هنا لأنهم قالوا أو فعلوا أو حتى فكروا من أجل مصر... وأنت ألست مصريًا». ابتسم قلبه فى سخرية فملايين أخرى لم تأت... ولم تقل ولم تفعل... هم جميعًا أليسوا مصريين.

هرب من الإجابة على منطق قلبه... سرح بعيدًا عنه... تأمل النقوش الموشاة على الجدران، ليس فقط لأنهم فى هذه الغواصة لا يجدون أوراقًا وأقلامًا ولكن لأن فى داخلهم عرقًا يمتد بهم بعيدًا إلى هؤلاء الذين سكبوا كل مشاعرهم وأحلامهم وحتى صلواتهم نقوشًا على الجدران. انزاحت طبقات الجدران واحدة بعد الأخرى كصفحات كتاب عتيق... نقوش قديمة تتوالى... آلاف من الحفارين المقهورين أتوا فى طابور طويل كل يسجل روايته...

بدأ قلبه يتململ فى جلسته الباردة عن دفء الجسد... انقطع تململه بشذى رقيق يقترب... فتاة جميلة انسابت كموجة هادئة حريرية اللمس. رائعة كزهرة لوتس، تختال فى كبرياء وقور كواحدة من نخيل أسوان، تقدمت بزيها الفرعونى على صدرها الأفعى المقدسة، جلست فى صمت المحب الولهان. فى عينيها العسليتين لمح حفل زفافها السرمدى... النيل يريد أن يخصب. يريد زوجة، تتيه هى بين بنات عصرها بأنها تقدمت فى محبة نحوه، ذابت شوقًا بين أمواجه، طفت قليلاً ثم عاشت أبداً بين أحضانه الحنونة، ما إن جلست حتى سمعوا قرقعة سيوف قريبة. حوافر خيل تطرق الأرض كدقات طبول منتظمة. عملاق أسمر يختال بين زحمة الخيول المعادية يقتادونه إلى جوار الفتاة. مصرى حارب الفرنسيين. هزمهم فى ثورة القاهرة. ناشده سارى عسكر نابليون بونابرته الصلح فوقف بين رجاله وقال «أتانا خطاب من الكلب فأبيناه»، حارب المماليك. دفعهم بعيداً عن حيه العريق بولاق... ثم عن مصر المحروسة كلها، المشايخ ألحوا عليه أن يؤيد محمد على. فعل عن غير اقتناع فهو لم يرد أن يشق صف المصريين. أتى بمحمد على إلى القلعة حاكمًا لمصر. ما إن اضطجع الباشا فوق الأريكة المخملية اللمس حتى أطاح برأسه. فك حجاج الخضرى قيده، خطا إلى الأمام بكبرياء شامخ يحمل رأسه بين يديه. كمبخرة تضىء وتشع دفئًا برائحة المسك. جلس إلى جوار عروس النيل حاملاً رأسه باعتزاز، ودون ضجيج جلس إلى جواره شهدى عطية. لمح بينهما شبهًا كبيراً أحيانا جلسا فى جسد واحد برأسين رأس مقطوع والآخر ملفوف

بضمادات. ثم فريد حداد لم يزل طبيبًا رائحته رائحة طبيب أتى توا من مستشفاه. تأمل الرأس المقطوع فى أسى. أحكمت أنامله وضع الضمادات على الرأس الآخر وجلس... إلى جواره لويس إسحق يمسح نظارته السميكة. إبرة نحاسية صغيرة تثقب صدره باستمرار فتخرج منه قطعًا من قماش أحمر. انشق السقف. انسدل منه حبل، تدلى رجل فى جلباب أبيض. قال عبد القادر عودة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تربع إلى جوارهم. فتح مصحفًا وأخذ يتلو بصوت مرتفع. وفى ابتسامة ضاحكة كأنها استمتعت لتوها بلحظة دفء هنية دخل زكى مراد، افترش ابتسامة وجلس.

تململ القلب...

- ما لنا ولهؤلاء؟

- وهم ما لهم وما حدث؟

- هم شيء آخر.

- وأنت، أى شيء تكون؟

أنا...! (ولم يجد القلب إجابة).

وبلا ضوضاء تواكبت ألوف من الناس. نحاتون بأزياء فرعونية يطرزون الجدران بوشم أخضر اللون. عرب بعقالات وعباءات فضفاضة، مشايخ يحملون مصاحف وكتبا، تجار يبيعون البهارات، والحنظل، عقادون وزانون وقبانية ومؤذنون وصياغ ومنشدون... نساء وأطفال بأزياء تتراوح من اليشمك إلى الميكروجيب... جميعًا مروا أمامه عبر الزنزانة...

تاجر البهارات على عتبة دكانه بالحمزاوى يرتجف من همجية المماليك. سكان الربع فى حمام بشتك سقط عليهم البناء فماتوا والكتخدا يطلب من أهلهم حلوانًا قبل أن يسمح بنقل الجثث لدفنها. فتاة تدفن حبها فى قلبها، تسجنه كما هو الآن سجين. هو جالس على مكتبه يدمى كلماته بموسى حادة ليرضى الحاكم... أليسوا جميعًا شركاء فى زنزانة واحدة.

فتح الباب. السجان ذو القبقاب أتى حاملاً الطعام وملعقة... قلبه كان قد استعاد موقعه. هو نفسه لم يعد كما كان. أمسك بساق الملعقة. شارك النحاتين عملهم الدؤوب.

«عاش كفاح الشعب المصرى» أحس بها جافة فرسم إلى جوارها وردة صغيرة وعاد ليجلس. فى منتصف رحلة الجلوس لمح قلبه يبتسم فى سخرية. فهم ما يعنيه هذا القلب الماكر. نهض، كتب مرة أخرى «يسقط أعداء الشعب» ودون تردد كتب اسمه...

*

المساء الأخير

... عندما ترفع الغطاء عن ذكرياتك، فإنك - دون أن تدرى - تحفر لها المجرى الذى تنساب نحوه، بل وتنتقى لها ذلك النوع من الذكريات الذى تختاره.

وهكذا كان الأمر بينهما. سوزى وهو، بدأ كل منهما حملة صامتة لاستعادة الذكريات، وأحداث الأمس حددت نوعية وحجم الثقوب التى ستتسرب منها.

هى استعادت تفاصيل اللقاء الأول. كيف كان همجيًا ووقحًا. نصف عينه أثارت سخريتها الصامتة، الشوق المنبثق من نظراته نحو جسدها، الورقة إياها تكبر فتصبح بحجم كل ما كان بينهما... تكبر فتغطى كل شىء. تسلل كل شىء ولم يبق سوى الرواسب، صوته وهو يمضغ الطعام، لولاها لظل كما كان فى الفجالة، حديثه

الملل عن عمله، لم يترك لها لحظة استمتاع حقيقى... إجازاته أن يبتعد عنها، أما هى فلوقت الانشغال بالعمل، أقاربه... تذكرتهم واحداً واحداً، كيف تخفيهم عن أعين الجيران والشغالة، نسيت أقاربها هى.

هو أيضًا فتح المصفاة. ترك كل شىء يختفى إلا البكارة. ليلتهما الأولى. بنت المعلم ابن البلد التى لا تمل من الحديث عن الأخلاق لم تكن كما توقع، تصورت أنها خدعته بصراخها والتواءاتها. ابتلع الطعم راضيًا، قبل الصفقة على بعضها. تعاليها المصطنع. أكاذيبها التى تحرجه. ادعت أنها أمضت عامين بالجامعة. ناقشته كثيراً فى ضرورة استكمال دراستها ثم اكتشف أنها لم تكمل النسوية الفنية.

فى كل سهراتها مع الأصدقاء تحكى مبالغات عن أيام الجامعة غير مدركة أن حديثها يسوقها إلى طرق مسدودة وأن ابتسامات الجالسين مبللة بالسخرية...

أبوها الذى يقطر طيبة - فى الظاهر - ولا يترك المسبحة من يده، ماكر وملعون. يوم زاره أول مرة فى المحل فتح أمامه الخزينة ليبهره، من يومها ظلت مغلقة، يعطى بحساب وكل شىء باسم ابنته، فى هذا المسكن هو لا يمتلك شيئًا... حتى ملابسه.

... وهكذا يكون الخريف بلا ربيع.

الخريف يقتحم كل الأشجار، جميعا تتشبث بأوراقها، لكن الأوراق تسقط. بعضها ينتظر ربيعًا مقبلاً، والبعض يجف. لا يمتلك القدرة على الانتظار، ولا على تخيل ربيع آخر.

وبعكس ما يحدث فى معمل الكيمياء... فى الحياة يمكنك أن تجد أشياء تتمدد بالبرودة. تباعدا، وافترش الصقيع مساحة تتزايد كل يوم. افتقدا دفء الزمالة فى سكن واحد.

جهاز إليكترونى متقن الحركة يباعد نظراتهما عن الالتقاء. خلعت ثياب سوزى. استخرجت من حفرة قديمة فى ذاكرتها كل خبرات نساء الحارة القديمة، وكل حكايات المراهقات فى النسوية الفنية.

تزينت كل ليلة، وانتظرته، عرفت جرحه وقررت إذلاله. علقت على نفسها تلك القطع من ملابس النوم التي لا تغطى شيئًا. فبدت بألوانها الصاعقة كإعلانات نيون على جدار باهت. لكنها كانت تقول شيئًا ما. تفرش حياتهما بالتباعد والسرير بالبرودة ثم تقترب منه.

كما أن الارتواء فن، فإن الجفاف صنعة تتقنها بعض النساء دون أن تترك بصمات تدل على الفاعل الأصلى.

انتقمت من تعاليه بلا مبرر، من حديثه الممل عن عمله، عن نفوذه، عن الكثيرين الذين يرتجفون أمامه، من وقفتها أمامه صباح كل يوم بفنجان القهوة ينتزع منها رشفة بملل مفتعل ثم يجرى دون شكر أو وداع.

دعته كل يوم إلى وليمة مدركة أنه صائم.

كل يوم يستيقظ وقد رحل بعيداً وازداد اغترابًا. هرب من جلسات الإفطار الصامتة التى تشبه لحظات ما قبل الاستجواب.

ادعى ضرورة الريجيم. ثم هرب من كل هذا الصقيع فى مأمورية إلى الإسكندرية. هناك اكتشف أنه أكثر قدرة مما كان يظن. ذكريات أم سيد تجددت مع فتيات أكثر صبا، اكتشف أن رائحة العرق غير المغسول أكثر نضارة من العرق المبلل بالبارفان.

بلا تجاوب عاشا معا. تابعت إذلالها اليومى حتى تضاءل أمامها. ما إن تراجع خطوة حتى بدأت المطاردة. أوامرها تصدر متجهة إلى الحائط، ترتطم بالجدار ثم تنصب فوق رأسه. قضت معظم أيامها فى بيت أبيها لا تعود إلا عصرا. أمضت أوقاتًا طويلة بالنادى دون أن يعلم. عرف أنها تتدرب على التنس... تجاهلته تمامًا، لكنها واصلت ملاحقته، بالنهار يتدفق تذمرها المشكوف سبابا للعيشة واللى عايشينها، تصب المرارة فى حلقه من كل «أف» تنطقها. وفى المساء تلاحقه حتى يكره نفسه وحياته.

هرب إلى عمله فازدادت شكوى. هى لا تريده مودة ولا دفئًا وإنما تشفيًا... وغيرة من أن يكون ضعفه تعبيرًا عن انسياب التيار عبر سلوك آخر. تريد أن تراه أمامها دوما متواريًا فى طيات خجله المستمر.

فى المساء الأخير، عاد متأخرًا عن عمد. غاب للمرة الثالثة بالإسكندرية. حقق كل ما اشتهى. من القطار توجه إلى مكتبه تبادل معها بالتليفون حديثًا مبللا بالجفاف. سأل عن البنت قالت كويسة. وضع السماعة. انغمس فى ملفات عديدة. حضر اجتماعًا طويلاً. عاد للبيت مرهقًا. كانت ترتدى أكثر ثيابها إيماءً بالرغبة. فى يدها

سيجارة وأمامها بقايا شراب. هى مستعدة تماماً أما هو فقد ابتلع كمية من الصقيع أشاعت فى جسده برودة وخمولاً.

هرب من العشاء. كصائد الثعالب كانت تكمن له فى السرير. تباطأ، افتعل حديثًا ممطوطًا. أخيراً لا مفر من أن يضع بقايا نفسه داخل المصيدة المعدة فى علانية فاضحة وتحدٍّ ظاهر... وبدأت المطاردة. لم يحلم يوما بوضع كهذا، ولا هى أيضًا، كان ضئيلاً منكمشًا، لم تره هكذا من قبل. تماوج فى نفسها الإحساس بالشفقة، لكنها تريده. وتريده فى قبضتها. قررت أن تفترسه.

انكمش فتمددت. ذراعها العارى انحط عليه كعمود خشبى يسقط من مبنى متهدم... أحس به يؤلمه فوق صدره. لأول مرة تقترب منه بهذا الإصرار. صممت ولكن بلا مودة، وبلا أى قدر من الدفء، وبلا نظرة حنان واحدة. اقتربت كدائن يلاحق مدينًا. كصاحب بيت يطلب الأجرة من ساكن مفلس. ثديها ينسكب من فتحة قميص النوم... رأى أثداء كثيرة ترتسم أمامه، انتزع نفسه بينما تراشقت فى أذنه قطع أحجار مؤلمة عندما ترجمها إلى كلمات اكتشف أنها تأمره أن يذهب إلى طبيب. انغرس سكين فى كبريائه. بحث عن رد فلم يجد.

فى الصباح تسلل دون إفطار... الجهاز الإليكترونى الذى يدير الأعين بعيداً عن بعضها البعض أنقذه من كثير من الحرج. انغمس فى عمله حتى رقبته. ازداد شراسة ووقاحة مع الجميع. وفى العصر كان جالساً فى صالة البيت يشرب قهوة أعدتها الشغالة.

(سوزى لم تعد تهتم بهذه التفاصيل. ولا هو يجد الجرأة كى يطلب) جلست أمامه إحدى ساقيها فوق الأخرى. أشعلت سيجارة (تدخن الآن كثيراً. فكر أن يشير إلى ذلك. آثر الصمت. كان يتمنى أن تمضى الجلسة دون أن تتحرك أى شفاه).

تشاغل فى قراءة الجريدة. لمح فى عينيها كلاما فتلاشى فى الكرسى واختبأ داخل الجريدة. بدأت تتأفف. عادتها دائماً عندما تريد أن تفسح الطريق أمام لسانها كى ينطلق. ازداد صمتاً. أنفاسه تهاوت إلى الداخل وكأنها تخشى أن تعلن عن وجود. فجأة سألته فى تحدٍ كأنها تحاسب طفلاً سقط فى الامتحان... امتى حتروح للدكتور؟ لم يجب كأنه لم يسمع. هى لم تعد من الصنف الذى يدفعه الصمت إلى صمت مماثل شحذت كلماتها فى تأنٍ حتى تأكدت من حدتها فوجهتها مسنونة كشظية من زجاج جارح... المرة الثانية أكثر إيلاماً لأنها أكثر إلحاحا...

استجمع كل المرارة من حلقه... وصاغها عبارة مهذبة:

- الحكاية مش عايزة دكتور.

- لأ عايزه.

- بالنسبة لى مش عايزه.

- أمال مين اللى محتاج دكتور، أنا؟!

(المرارة فى حلقة لا تنتهى كلما أخذ منها ازدادت).

- ما أقصدش. أقصد أن الحكاية كلها مالهاش علاقة بالطب.

- أمال لها علاقة بإيه...

(حاول أن يختار الكلمات بعناية صائد قتله ملل الانتظار... وفجأة حانت له فرصة).

- ساعات الراجل يحس بملل، خصوصًا لما يكون الطرف الآخر مش قادر يرضيه...

(بغباء نادر حاولت أن تفض الغشاء المهذب عن الكلمات. ألحت على أن تحك هذا الغشاء طالبة إيضاحًا ناسية أن بعض الكلمات تبدو إذا ما خلعت ثيابها أكثر قبحًا وبشاعة) صرخت عندما صاغ عن عجزه وملله سكينًا شق بنصله الغلاف المهذب عن ألفاظ غير مهذبة. قفزت. مزقت الجريدة التى يتخفى بها. انهالت فوق رأسه بشتائم بذيئة. تصور كل شيء إلا أن تكون سوزى هانم تختزن فى فمها كل هذه الألفاظ التى يخجل حتى من سماعها، أجابها قدر ما يعرف وبقدر ما يستطيع. فجأة ارتطمت بوجهه بصقة (امتزجت ببقايا القهوة فى فمها فأصبحت لطمة بنية اللون) أشار مسمار من أصابعها: امشى اخرج بره. تجدد اكتشافه القديم. هو لا يمتلك شيئًا فى هذا البيت.

فى الطريق أفاق على هواء نقى. كأنه يخرج من زنزانة إلى فضاء مترع بمساحات رحبة، استقل السيارة الحكومية ومضى.

خاطر غريب اقتاده إلى الفجالة... سنوات لم يأت إلى هنا. كيف نسى الطرقات المؤدية إلى المكان؟ على مدخل الحارة أوقف سيارته أمام محل عصير القصب. فى الحارة سأل نفسه لماذا أتى؟ أوشكت كرة شراب أن تصافح رأسه، طار الأولاد خوفًا (مثلهم

فعلها كثيراً) خطوات قليلة ويكتشف أن مكان أم سيد مساحة خالية.

قطع طريق العودة وهو أكثر حزنًا. لم يتعرف على أحد. لم يعرفه أحد. غريب هو عن المكان. الأبواب مغلقة وفى الطريق أولاد أتوا بعد رحيله. أمام عصارة القصب رأى قلبه داخلها ينزف سائلاً ولا لون خاص. ليس دمًا على أية حال.

فى السيارة لم يقرر بقية الرحلة لكنها انحرفت إلى شارع بورسعيد ومنها صعد إلى الطريق المعتاد.

بملل ظاهر رد تحية الحراس... انتفض الضابط المناوب. سأله بفتور عن الأخبار... دون أن يدرى انفلت سؤال عن نمرة تلاتة.

- البنت الفلسطينية؟ أول امبارح كانت جلسة النظر فى اعتراض الرياسة... الاعتراض رفض. الدكتور روح وهى اترحلت. الضابط محسن وصلها للمطار. هكذا يمكن للكلمات أن تكون صفعات. كل الصور تتلاشى من ذاكرته. تمهل نحو باب الزنزانة. دخله كمن يزور قبراً. لأول مرة قدمه تقترب من زنزانة وهى خائفة. بقعة داكنة تغطى معظم المرتبة. هنا تسللت دماؤها نزيفًا. تسللت عيناه إلى الجدار... لأول مرة لاحظ النقوش. تمهلت عيناه فى خشوع «كل النساء ولدن من رحم أمهاتهن إلا أنا... ولدت من رحمى - سناء الحورانى».

الحائط قناة غير عميقة تنزف دما... تحولت إلى شفاه ضخمة بصقت الدم فى وجهه، ارتفعت يده تغطى وجهه... عيناه انزلقتا

إلى جدار آخر وتوقفتا: «لقد عرفت كيف أداوى جراحى... الويل لأعدائى، فلا شفاء لجراحهم».

... اكتفى، نال من المرارة ما يكفيه ألف عام. ترك الباب مفتوحاً وهرب.

القاهرة - ديسمبر ١٩٨٠

رمـــال

حكايتى مع «رمال»

هذه المرة كتبت دون زنزانة. اعتدت فى كل صباح مبكر يأتى على وأنا فى مارينا أن أمشى لساعة أو أكثر على رمال الشاطئ عندما يكون بكرا لم تشغله تزاحمات أو حتى حضور. قرأت صحف أمس وقرأت حوارا مصطنعا استهدف به الصحفى اكتساب الرضاء من فتى أعرفه جيدا وتابعت قفزاته جيدا وهو يبحث عن اللاموقف الذى ينفذ به نحو الصعود. ولمع فى ذهنى أن يكون مقالى عنه بعنوان «النطاط» [والنطاط لمن لا يعرف نوع صغير من الجراد لونه أخضر ويقفز بسرعة غريبة إلى كل الاتجاهات ومن كل الاتجاهات] وفى اليوم التالى كنت قد حسمت أمرى أيضا أن أكتب مقالا عن يسارى قديم تدحرج عامدا متعمدا إلى ساحة التأسلم متبعا مبدأ «الصعود هبوطا» بمعنى أن تهبط إلى بئر التأسلم لتصعد فى ساحة

التمويل والمنصب وذلك بعد أن قرأت له مقالا مخزيا. وفيما أفاضل خلال استمتاعى بالسير فوق الرمال المبللة لشاطئ تسترخى الأمواج أمامه بحنان دافق.. هل أبدأ بالنطاط أم «بالصعود هبوطا» تراخت فى ذهنى فكرة أن أجمع بينهما وغيرهما فى حكاية. وبدأت مبكرا فى الصباح وعلى الشاطئ البكر أكتب فى ذهنى ما أسكبه على الورق بعد الإفطار. وكانت «رمال» وفيها كالمعتاد رحيق من ذاكرة قديمة عشتها فى المنصورة.

ورغم ذلك المثلث من الروايات أقرر وبصدق أننى لا أعتبر هذا النوع من الكتابة بالنسبة لى احترافا ولا حتى هواية ولكنها فى أفضل الأحوال غواية.

أغوته المساحة الممتدة من الرمال، منح الحذاء مخبأ بجوار السور، وامتطى الرمال حافيًا. اختطفه عشق الموج الهادئ، تبادلا الشوق القديم، طالما أحب هذا التدفق اللانهائى لأنفاس البحر، انتهى كل وجوده. ذاب فى اللحظة والخطى، اختفى المكان وكذلك الزمان، ضاع الفاصل بين الماضى وما هو كائن.. وعاش كما يحب بعيداً عن كل شىء حتى عن نفسه، دوامات الحياة القاسية التى تدور به فتطحنه يلقيها خلف ظهره ينظف عقله من كل شىء، أى شىء.. ويمشى، يتنفس هواء البحر يتأمل الموج.. يدوس الرمال بقدمين عاريتين، ويختار الحد الفاصل بين الماء.. والجفاف. هذا الخط الممتع لا هو ماء.. ولا هو أرض. هما معًا. كلما استمتعت الرمال بلقاء مع قدميك كان الماء جاهزاً ليزيح بصماتك.

الشمس كانت هى أيضا تعاند السحاب المتراكم فى غير وقته، وبغير سبب، وكأنها تتثاءب فتمرر يديها لتزيح ستائر داكنة، وتطل عبرها بنسيج وردى يشيع البهجة فى هذا الكون الذى تعيشه وكأنه يعيش لك وحدك.

وتنتزعه من هذا الوجد الصوفى الهدوء، خطوات تسبقه. وكأنها نبتت فجأة فيما بين الماء والأرض، قدمان عاريتان مثل قدميه.. تبللان أنفسهما بالرمال والماء معا. قطرات من رمل

تنساب فتلتقطها عيناه من كعبين يكسوهما لون الورد.. صعدت عيناه.. الرمل.. كعبان أنيقان. لا جدوى من وصفهما هما فقط أنيقان.. ثم بنطلون محكم.. لكنه مسترخ، يضغط كى تتألق مفاتن الجسد، ويسترخى ليمنح المفاتن المساحة الكافية كى تتألق.. اللون السماوى - ذلك اللون الإلهى كما اعتاد أن يتخيله - يمنح الجسد متعة الإغراء، وتلك الخطوات الحازمة توحى بما تتيحه من ارتعاشات أن الجسد متحرر من قيود الملابس الداخلية.

ترك وجده الذى حلم به طويلا.. أن يعيش بعيدا عن اللحظة والمكان والزمان، استعاد حواسه التى سبحت بعيدا مع الموج. كيف أتت هذه الحورية؟ ومن أين؟.. وكالعادة تماسكت أقدامه مستعدة كى تزيح الخطى المتكاسلة لتسبق هذه التى تسبق.

امتدت خطاه، لكن خطاها امتدت. هو عنادٌ إذن، ولعله تحدٍ. وهو له.

خطاه تسابقت لكنها سبقته. اكتشف أن عينيه تستمتعان، وأنهما تمنعان الخطى من اللحاق بتلك الخطى. قدماه مقيدتان بين رغبة فى التحدى، ورغبة فى الاستمتاع. عيناه سيدتا الموقف..

وتمهل فتمهلت. هناك تناغم أيضا. عيناه تقتادان الخطى. كيف يفلت هذه اللحظات. اللون السماوى المتألق.. الارتعاشات المنطلقة. الجسد الذى يقسم لك فى كل ارتعاشة أنه ناضج وطازج ومغرٍ.

لكن العين تريد أن تلمح، فالعين.. الوجه، الصدر هما المعيار. مرة أخرى تقتاده العين تسرع به، كى يسرع فيجتازها.. يلقى نحوها بكل ما يمتلك من نظرات.. البسمة تضيء وجها جميلا ربما كانت مأساته أنه واثق من جماله، معتد به.. ويعرف أن العين سوف تعود لصاحبها برسالة واجبة التأمل. هذا وجه لا يمكن أن تكتفى منه بنظرة واحدة. لا بد أن تستمتع بأخرى.. وأخرى، وكلما استطعت من نظرات تفترش بها هذا البهاء. وذلك برغم كل حرصك، وحذرك، وطمأنينتك إلى أن ما فات من عمر يعطيك حصانة من إغراء لا جدوى منه.

اجتازها بإصرار وحماس، امتلأ بنظرة مستفسرة، عادت إليه بشوق لأن يعيش ما لم يعش.. ويرى ما لم ير.

طبعا.. هذه الماكرة كانت تعرف أنه حتما سيسرع بخطوة كى يستكمل بهاء الجسد ببهاء الوجه، وطبعا تمهلت بخطاها كى تعطيه زهو السبق، إنها تلك الأنثى التى تعرف الرجل. وتعرف كيف هو مغرور، ومعتد بما لا يستحق الاعتداد به، وتعرف كيف تروضه وتعيد تشكيله ليصبح مطابقا لما تهوى هى.. وليس هو.

تباطأت لتعطيه زهو السبق. وما جدوى أن تسبق كى تقع فى المصيدة. ووقع، بهاء الوجه أحلى وأمتع من بهاء الجسد.

هى لحظة، وما هو أقل. ما بين انفلاته من روعة الجسد إلى روعة الوجه والصدر.

مضت اللحظة. ولم يبق أمامه سوى أن يتقدم. أن يمضى. أى تلكؤ أو التفاتة إلى الخلف تعنى التلصص غير المفترض وغير المسموح به. وهو يأخذ نفسه بصرامة غير مستحبة، لكنه يدعى لنفسه أنه يستحقها، أو أنها تستحقه. أو هى بالدقة مفروضة عليه، ولنقل إنها مفترضة.

ولم يبق أمامه سوى أن يخطو أمامها.. وأن يفقد عطر التأمل فى مفاتن هو تخطاها بحماقته، لكن خبرة الرجل فى مواجهة الأنثى تبدأ فى الحوار الدائم أبداً. خطاه أدركت أنها مسئولة عن تبرير لقاء آخر بين نظرات مشتاقة وأخرى واثقة ومتعالية. تسارعت خطاه، ابتعدت، بعيداً، بالقدر الذى يسمح له أن يستدير فيعود.. ليتأمل المزيد من بهاء لم يحلم به.

تسارعت الخطى بعيداً، مضى عشرات من الأمتار، ربما تمادت حتى المائة، ثم التفت. هكذا يتبدى الأمر طبيعياً، ها هو يتلصص فى أناقة، موحياً لنفسه، وربما لها وحدها أنه يتصرف بشكل عادى، تمادى فى الذهاب ثم عاد..

استدار، قلبه بدأ فى الحديث، دفع أقدامه كى تزن الخطى العائدة بحيث تراها لأطول لحظات ممكنة، امتدت الخطى محسوبة كى يتلاقى الوجهان.. العينان، عيناها قالت: أهلا، شفتاها ابتسمتا فى حنان غير ساذج. كأنهما تقولان لماذا كل هذا المجهود؟ تعال.. مباشرة.

ولحظة لقاء أخرى.. تجلى الوجه مزدانا بابتسامة غريبة. كأنها تقول ما لا يقال، وكأنها تبعث بتحية.. أو تنتظر تحية. وكأنها

تعرف أو تعترف بأن هذه التدابير مدبرة، وأنها تريد أن تراك، وأنها تعرف أن مناوراتك غير الذكية تعنى أنك تريد أن تراها.

المهم.. لفحته ابتسامتها المليئة بألغاز صعبة الحل. هل هى تمتلئ سخرية، أم قبولاً، أم شوقًا..

ولكن، كيف توقف أنفاس اللحظة العابرة. والتى يتعين عليها أن تعبر بذات السرعة التى تحكمها خطى متعاكسة الاتجاه، وكل منها لا يريد أن يبوح بشوقه، فتكون الخطى أكثر جدية، ومن ثم أكثر سرعة.

احتضن ابتسامتها، أو هى احتضنت نظرته الخائفة. تريد كل شيء، لا تريد أن تفصح، [بعد أن جلسا معا. ضحكت كثيراً من هذا السياسى الذى تدفعه أحلامه، وتقيده نزوة السياسى الذى يريد أن.يتبدى أمام الجميع بريئًا أو حتى غبيًا، كى لا يكتشف أحد ما يطحن أعماقه من مشاعر، فيستخدمها ضده..].

هى اجتازته.. وتبقى على الخط الفاصل بين الماء والرمال طموح.. وشوق.. وابتسامة أتت منها إليه. هى تساءلت ترى هل فهمها؟ هل تلقفها؟ هل تواصلت فوصلت إلى ملامحه؟

وعاد.. وعادت.

***

لعله.. ولعلها تعجلت أن يأتى الصباح الآخر. وهو سيأتى بالطبع.

ذهب متعجلاً. هى أيضًا تعجلت ذهابها. ارتدت بنطلونا أكثر إحكامًا، وأكثر إثارة، لكنه ويا للروعة يمتلك نغمة جديدة من ذات اللون السماوى.

هو أيقظ كل ما يتراكم عنده من حواس. نسى الشمس والرمال والموج، تركزت حواسه جميعا فى هذا الضوء القادم. نسى الوجد، والاختفاء بعيداً عن الانشغال بشىء، نسى ما اعتاد أن يتظاهر به من لا مبالاة بالآخرين، والتهبت نظراته بنظراتها الآتية من بعيد مكتسية بابتسامة تبدت وكأنها بريئة.

امتلك هو أيضا شجاعة الابتسام، وإذ تتلاقى ابتسامتان سابقتا التجهيز رشقت فيه سهمين من عينين تعرفان كيف يكون الغزل الصامت، وتمتلكان فن الإغراء، وربما الإغواء.

قواعد السلوك لا تسمح بالمعاودة، لا له ولا لها.. فإن عاد أحدهما تبدى فى ثياب غير لائقة.

أدرك ساعتها مدى سخف هذه القواعد.. وإذ تمضى به أقدام متثاقلة شعر بندم غزير.. استجمع تحديه لنفسه وقرر أن يلتفت. قرر. ثم صمم. تردد ثم فعلها. وإذ تستدير الرأس باتجاه الشمس لفحتها نظرة باسمة وغير ساذجة. كانت هى - ويا للمصادفة - تفعلها.. واكتشف كل منهما.. حقيقة الآخر أو بعضًا منها.

ولكن لا حيلة لأى منهما، ليسا مراهقين إلى حد العودة، أو التراكض نحو الآخر. ولا مفر.

مضى فى اتجاهه على عكس رغبته. وهى غالبت رغبتها ومضت. وإلى الغد..

***

وقبل أن يرى الغد كان قد امتلك أفكاراً وأوهاماً كثيرة. منح نفسه مساحة من شجاعة كان يدرك جيداً أنه غير قادر على امتلاكها عندما يحتاج إليها. كان يعرف جيداً أن كساءه المصنوع أو المصطنع سوف يغلبه. فكيف للحظة مهما توهجت أن تغلب نسيجاً افتعله عبر سنوات ليمنح نفسه رضاءً زائفاً.. ويمنح الآخرين صورة زائفة!

عبر سنوات تراكمت خيوط متشابكة من التجهم واللامبالاة بالأخريات، والادعاء بعدم الاهتمام بهن، والانغماس فى تلك الشبكة العنكبوتية التكوين من اهتمامات سياسية وعامة.. وكتابة، ورأى، ومعارضة، وتحد، وخوف من أية سقطة، أو خطأ يلتقطه الآخر المتربص، ومحاذرة من أى فعل أو هامش فعل، قول أو شبه قول يلتف حوله.. فيعطى لهذا الجهاز الوحشى المسمى بالسلطة، ما يمكّنه من أن يصطاده، أو يتصيده فيسكب على كل ما فعل ويفعل صبغة غير لائقة وغير مفترضة، فيؤذى كل ما راكم حول نفسه من فعل، بل يؤذى إخوته ورفاقه الذين منحوه اهتماماً دفع به فى سلم الحزب أماماً.. وأعلى.

ذلك الهراء المتراكم هو الذى منح قدماه قدرة الابتعاد. أو فرضها عليهما فرضاً، وأيقن أنه لا أمل له فى عودة كى يراها.

وفيما تتمادى به أفكاره لاحت أسئلة مبهمة الإجابات.. هل سيراها ثانية؟ هنا في مارينا الجميع يأتون ويذهبون، لا أحد يبقى. الكل يأتي هاربا من صخب القاهرة. ثم يسرع هاربًا إليها، فهناك عمله.. وما يشغله حتى وهو هارب إلى هنا. فهل ستبقى هي إلى الغد؟

***

استعاد - ويا للدهشة - بعضًا من مراهقة قديمة (هو على أية حال لم يدرك سنوات المراهقة، تاهت منه رغم أنفه، حاول أن يدركها لكن الوقت كان قد ذهب، فهو لا يعرف كيف تكون المراهقة كي يستعيدها، ولهذا فهو يحاذر من الاقتراب من مدلولاتها، حتما سيخطئ ولن يكون سوى شيء مثير للسخرية، فلن تستعيد - وبإتقان أو حتى شبه إتقان - شيئًا لم تجربه، ولم تنعم بالاقتراب منه يوما). لكنه وعلى أية حال راوغ نفسه، أو لعلها هي التي راوغته فأغوته، وأطاحت به في خيالات وهمية بقدر ما هي مخدرة. قرر أن.. وأن، وسوف، وحتما، وهو يعرف في أعماقه أنه لن يتجاسر، فماذا لو أن.. وآه من «لو أن» هذه، كم أقصته عما حاول، أو حاول أن يحاول. وكم فرضت عليه ذلك الكساء الرمادي المحكم الأزرار، غلاف يمرق به بعيدًا حتى لو كان في خضم ما يمكن أن يغرى.. الرمادي ضروري لأمثاله، فلو أن.. قد تصيب شخصًا عاديًا دون كبير أذى، ودون ضجيج، أما هو وأمثاله فالضجيج سيكون متعة ممتعة للخصوم وحتى لمن يفترض أنهم أصدقاء. هكذا

اعتاد على سلبية الانفعال إزاء ما يغرى بالانفعال. الرمادى هو الثمن الأبدى كى يعارض دون أن يمسك به من يعارضهم، أو حتى من يتجاورون معه فى ساحة المعارضة.

فليبق إذن رمادى التكوين والغلاف والانفعال طالما قرر أن يبقى كما هو..

لكن حمام الابتسامة التى أشرقت نحوه مرتين مسح عنه رذاذاً من الرمادى، وإن استبقى فوقه الكثير منه، فتركه فى حالة لم يعتدها، هى.. بين بين.

وفى الغد كان يسابق الساعة التى أصبحت ويا للدهشة بطيئة الحركة. خاصم الطريق الأسفلتى، أصبح مسطح الرمال طريقه المعتاد.. على غير المعتاد.

كانت قادمة من بعيد، أو هكذا خيل إليه، خطاه تدفعه سريعا كى يتأكد.. هل هى؟ كانت هى.. فما من أنثى مثلها تختال فى رشاقة واثقة من قدرتها على الإغراء كما تفعل..

ذات اللون السماوى وإن بانفعالات مختلفة، لونها المفضل، وهو أيضا لونه الأكثر إمتاعاً. ذات الإشراقة، الشعر المتطاير فى مرح غير مفتعل أكد أنها هى، خطاه تقترب خطاها تأتى. سأل نفسه ماذا سيفعل؟ رتب ابتسامة، وإيماءة، حذر نفسه بصراحة ألا تكون الابتسامة مفتعلة، وأن تكون الإيماءة هادئة بحيث يمكنها ألا تستثير «لو أن»، وأن تبدو فى حالة الرفض وكأنها لم تكن.. وفيما هو منشغل بترتيب ما لا يمكن ترتيبه، كانت الخطى قد سبقته وكانت

تقريبا على مسافة أمتار منه، هو فقد كل ترتيباته، فجأة انسكبت منه، هي أطلت بابتسامة أكثر جمالا وأكثر ثقة، وفيما هو يحاول أن يتوسل إلى تعبيراته كي تفعل شيئًا.. أى شيء، هي قالت: صباح الخير يا دكتور.

ويكون الاقتراب نذيراً بالابتعاد فلا بد لكل منهما أن يمضي في سبيله، وإن كان لأحد أن يتوقف أو يتلكأ فليس هو على أية حال.

هو شعر بقلبه - أو جزء منه على الأقل - يسقط منه بعيداً. لم يصدق، هل قالت شيئًا؟ هل سمع جيداً؟

هل هي.. هي، بل هل هو.. هو. هل قالت فعلا.. صباح الخير يا دكتور؟ أم هو حلم؟. هي تعرفه إذن. ماذا «لو أن» وفيما يحاسب نفسه أو يلومها لأنه حتى لم يرد عليها، كان يلتفت ليرى كم ابتعدا، وجدها وفي ذات اللحظة تلتفت، بيدها أشارت بتحية.. وعادت رأسها تستعيد مكانها، وخطاها تمضي نشيطة لتتركه مشدوداً مكانه.

قليلا، قليلا، استعاد بعضا من أنفاسه.. وحملته ساقاه حيث الحذاء المستقر بجوار السور.

لم يعد ثمة مبرر لمصاحبة الرمال والماء الهادئ الموج.. والذى يمتلك نغمات عديدة من ذات اللون السماوى، تمهل عائدا على الطريق الأسفلتي.

ترى من تكون؟ هل رآها من قبل؟ هو أحيانا يفقد مساحة من ذاكرته فيقابل أناسًا يندفعون نحوه، فيندفع برد فعل نحوهم

يتصافح معهم لكن عيناه توحيان بلا ريب أنه لا يتذكرهم.. ولا يذكر لا من هم، ولا متى التقى بهم.

لكن وجهًا كهذا، امرأة كهذه لا تنسى، وحتى بعد مائة سنة لن تنسى. فمن تكون؟ وكيف عرفته؟ البعض يتعرف عليه أحيانًا لأنه رأى صورته في جريدة أو لمحه في التليفزيون، لكن أنثى كهذه لا يمكن أن تهتم لا به، ولا بما يقول، ولا حتى بمن يكون.

.. والآن لا مفر من أن ينتظر إلى الغد.

هنا الناس يأتون لقضاء نهاية الأسبوع، البعض يغادر الجمعة، والبعض يغادر السبت.

اليوم الجمعة، ترى هل هي ممن يبقون إلى السبت، أم ممن يبقون طوال الصيف؟

وبرغم شكوك أحاطت به وحاولت أن تؤنبه لأنه ارتبك وأفلت الفرصة، وأنها قد تغادر، وأنه قد لا يراها، فقد ظل يشحن بطاريته بالأمل.. والأهم من ذلك أخذ يشحنها بيقين متمكن بأنه سيمتلك في المرة القادمة القدرة على فعل، أو قول، أو مبادرة ما.

فقط، لو كانت هناك مرة قادمة.

***

وكانت هناك مرة قادمة.

تشبث بإصراره. أمسك بقلبه بكلتا يديه كي لا يفلت هاربا.. هي لم تدع له فرصة للتردد.. أتت نحوه، مالت بزاوية لتغير مسارها المستقيم وكأنها تعلن له.. أنا قادمة إليك.

وفيما يتراوح ما بين التردد والمزيد من التردد، كانت هى تقف أمامه لتحسم كل شىء.

- صباح الخير.

لا بد أنه أجابها، ولو أنه غير متأكد.

- طبعا مش عارفنى.

لعلها أدركت كأنثى، أو حتى كإنسانة سوية، أنه لا أمل فى أى رد فعل عادى فمضت هى تشحن بطاريته، سألت وأجابت: أنا مدام حسنى عبد الحميد.

آه.. هى إذن زوجة رفيق قديم. واحد من هذه الطيور التى غادرت السرب مبكراً. تباعد مبكراً ونجح كرجل أعمال متميز، وإن ظل يوحى لمن يثق فيهم ممن يعرفونه عبر هذا الزمان القديم، أنه لم يزل على تعاطف ما.. ولكن من بعيد جداً.. جداً. ثم ظل يتباعد فيتباعد حتى تلاشى من ذاكرة الجميع.

هنا استعاد بعضا من قدرته التى انفرطت على رمال الشاطئ، سألها عنه وعن أحواله.. هى أمسكت بدفته، وكربان ماهر قادت سفينة الحديث ووجهت مسيرتهما.. معاً.

هى تعرف. تقرأ. تتابع. سألته عن الأحوال. وآخر الكتابات، أبدت ملاحظات ليست سطحية على أية حال، وبقدرة شفافة على تذوق الرجل الذى أمامها ومعرفة مذاق الموضوع الذى يتقن الحديث فيه.. انحنت نحو حديث فى السياسة، وما إن أتى الحديث إلى هذا المنحنى حتى بدأت أنفاسه تستقر، نسى خوفه، دفء السياسة

أنعشه، بساطتها جذبته إلى ساحة تجاذب حديث يعرف كيف يتقنه.

فجأة صمتت. حاول أن يبحث عن ثقب إبرة تمرق منه كلمات تصلح للحديث معها، لكنها كالعادة منحته المخرج.. كانت يده - وبالمصادفة - قد تلامست مع يدها أخذها بعيداً.. «لو أن» مازالت تحلق فوق رأسه، هي منحته ملمس يدها. أمسكت بيده أطاحت بها في مرح طفولي قائلة: لنكن أصدقاء، ما رأيك؟

تحت ارتباكه، يده أصبحت داخل غلاف يدها قطعة من ثلج. قد يكون دافئاً لكنه بلا نبض.

هي واصلت الحديث.. أصدقاء. هل تعرف معنى أصدقاء؟ حاول أن يتظارف فقالها بالإنجليزية، ثم بالفرنسية.

قالت: أريدك صديقاً، هل تعرف؟.. صديق، وليس مجرد رجل.

- ليس مجرد رجل؟ ماذا أكون إذن؟.

- الرجال الذين عرفتهم لا يعرفون الصداقة، فقط يتأملون في الأنثى ويشتهونها، أعينهم تمزقها بوحشية، أريد إنسانا يتعامل مع إنسانة، هل هذا صعب؟

بهدوء قال: هو صعب في زماننا الوغد لكنه ليس مستحيلا.

- فلنجرب المستحيل إذن، هل تجربه معي؟

- ممكن.

- ممكن أم حتماً؟

- حتماً.

فوجئ بقبلة هادئة تلامس خده وسمعها تقول: أنت هايل.

كان لم يزل يسائل نفسه : هذه المرأة ماذا تريد ؟

لعلها سمعت همسه لنفسه وبدأت الإجابة .

– أنتم . – قاطعها – نحن من ؟ . أنتم الرجال لا تعرفون معنى الكلمات ، تخلطون فى قاموسكم الرجالى بين الصداقة والحب والعشق . وما إن تقترب منكم امرأة ، أو تقتربوا منها حتى تزوغ أعينكم بحثا عن مساحة متعة ، قد تكون نظرة ، أو لمسة ، أو حتى كلمة سخيفة ، وقد تكون أكثر .

كانت تتحدث بقدر كاف من مرارة توحي بأنها صدمت فى الكثيرين . . وقرر ألا يصدمها . نظر إليها صامتاً ، تأمل هذه الأنثى التى قد تختلف عن الأخريات ، والتى أهم ما يميزها بساطة التصرف ، وبساطة التعبير ، لكنه قرر أن يراوغها ، وفيما كانا يصعدان بتوجيه منها نحو حاجز الأمواج البعيد عن احتمالات «لو أن» سألها : القاموس الرجالى لا يعجبك فما هو قاموسك ؟

– الصداقة هى صدق المشاعر وصدق التعامل . وبالنسبة لى ألا تسمح حتى لعينك أن تجتاز حدودها .

لعلها لاحظت أن تلك المساحة المكشوفة تحت رقبتها والممتدة حتى هذه القناة الشهية التى تكاد تشى بنهدين ذكيين ورائعين قد جذبت عينيه فى لمحة متعجلة أو اثنتين . ولعلها أرادت أن تلقنه أول دروس الصداقة . . واستمرت قائلة وكأنها توجه كلماتها نحو الموج الذى أصبح الآن يقظا : أحيانا أشعر بنظرات تلدغنى فتوجعنى ، خاصة إن أتت ممن كنت أتوقع صداقته . قالتها وكأنها تؤنبه على

نظرة أو اثنتين، أفلتتا منه. ألقى بعينيه نحو الطريق الخرسانى الذى يعتلى حاجز الموج، واستمر ساهما تذكر تعاليم إيزيس إلى حورس: «لا تنظر إلى سيدات فى بيوتهن. ليت وجهك يكون دومًا إلى أسفل».

ظل صامتا.. وصلا حتى نهاية الحاجز، هنا هما وسط حصار مائى، يدها لم تزل فى يده. شعرها يتطاير فيلامس كل ما هو متاح من وجهه. جلست، وجلس معها، أو بالدقة أجلسته إلى جوارها، بعد أن تنازل لها عن كثير من إرادة أراد لها دوما أن تكون له وحده.

هذه المرأة الرائعة فى بساطتها، وتعبر عن أفكارها ببساطة ذكية وساحرة. بساطة أربكته، هو الذى تصور نفسه وتصوره البعض فصيحًا، وقادرًا على إرباك الآخرين.

أية امرأة هذه، تلك التى احتوته، ولقنته فى دقائق أسرارًا وفنونًا لم يكن يعرفها.

حاول أن يتنفس، ربما ليتخلص من هيمنتها. ربما لينطق، ليثبت وجوده، ربما ليفلت من موضوع معقد.

سألها: أخبار حسنى إيه؟

- كويس.

هذه الماكرة تصمم أن تبقى هيمنتها، ولا تتيح له فرصة التنفس. فليحاول مرة أخرى.

- أنتم ساكنين فين؟

- فى شاطئ المشتاقين.

ارتفعت نظرته لأول مرة منذ ألقى بها أرضًا.. تحت السؤال. وانطلقت لتسجل المزيد من الأهداف فى مرماه، ففى كل مرة تمنحه إحساسًا بأنها تعرف ما تقول.. وما يجب أن يقال، وتصل إليه ببساطة تستعصى على الآخرين، وتجيب على سؤاله قبل أن يفلت منه منطوقًا،.. قالت:

- الناس فى مارينا ثلاثة أنواع المشتاقين والأدعياء والطيبين.

عيناه سألتا، فضحكت، ضحكتها مرحة وسخية وإن كانت تكتسى ببعض من الجدية الحزينة.

- شوف يا سيدى. المشتاقون هم أسلاف وأحفاد وزملاء «عبده مشتاق» أتوا إلى المساحة التى تمركز فيها منذ البداية كبار المسئولين ليجدوا سبيلا للتجاور، فالتعارف.. فـ.. ربما يتحقق الشوق.

وهؤلاء كثيرون، مساكين، يغذى حلمهم المريض أن رئيس وزراء سابق اختار عديداً من جيرانه فى «أبو تلات» حيث كان يمضى الصيف، وبعضهم كانت خبرته تنحصر فى أنه كان يلاعبه «طاولة». أن تصبح وزيراً عبر لعب الطاولة يا بلاش. هذه التجربة جذبت إلى هذه المساحة كثيراً من المشتاقين، يتمحكون.. يستدعون كل خبراتهم وخبرات زوجاتهم وصداقاتهم كى يصبحوا بالقرب من المقربين.. لعل وعسى. إنه استثمار.

- والأدعياء.

- هؤلاء يشغلون مساحة كبيرة من مارينا، يأتون فقط ليصبحوا بالقرب من المهمين.. فيتصور البعض أنهم مهمون. تعرفهم من

اللحظة الأولى.. فكما أن المرسيدس جزء من وجاهتهم، كذلك السكنى فى مارينا. هو يتحدث عن مارينا فى كل لحظة، يعطيك رقم تليفونه فيها بلا مناسبة. يتجول فى شوارع المشتاقين متمنيًا أن يلمح شخصًا يعرفه ليزهو بأنه مثله مقيم هنا.. إنها باختصار واحدة من سمات العصر الخائب الذى نعيش فيه.

- والطيبون.

- هم هؤلاء الذين صدقوا أن مارينا بنيت لتكون مصيفا هادئًا وجميلاً، فأتوا ليتوهوا فى ثنايا الآخرين بحيث لا يمكن تمييزهم إلا بصعوبة.

- وأنتم، مشتاقون؟

- حسنى رجل أعمال هو ليس مشتاقًا لكنه مستفيد قطعًا، الفيلا تحولت إلى دوار مسائى يلتقى فيه الجميع.. المشتاقون، والأدعياء والطيبون.. ومثقفون مزعجون بل مثيرون للقرف وكتاب ورجال أعمال، وبين جلسات التكاذب الليلى يتم التعارف واسع المدى مع كبار المسئولين، وكبار المهمين، وكبار الكتاب وصغارهم.. وتعقد صفقات وتؤسس مشاريع [أعجبته كلمة تكاذب قرر أن يتذكرها ليستخدمها يوما فى إحدى مقالاته].

- وأنا؟

- لعلك من الطيبين.

قلت: لعلى فقط، أم أنا كذلك فعلا؟

صمتت قليلا وقالت: لست أعتقد أن هناك إنسان نقى الطيبة.

- والمثقفون؟

- هم بعض أصدقائك القدامى وبعض آخر.. وكثيرون منهم يتحدثون وكأن الكون قد استعاد اتساعه بفضلهم، يتنفسون الكذب والادعاء،.. من زمان أعجبت بك لأنك لم تعجب بهم.

- لكن لا أحد يعجبك حتى الآن.

- هناك القليل، يبدو أننا مصيدة لصنف ردىء، لكن البعض منهم مثير للقرف فعلا، كم أتمنى أن تشاركنا هذه السهرات المفعمة بالملل والصراخ والكذب... ساعتها سأطلب منك أن تكتب رواية عن هذه السهرات.

- لست روائيا.

- لكنك فعلتها، فلم لا تفعلها؟

- افعليها أنت.

- لا أعرف.. لم أجرب الكتابة، أعرف كيف أثرثر، لكن الكتابة تدفعني للتعثر.

- حاولي.

- أخاف.

- إنها المرة الأولى التي تتحدثين فيها عن الخوف.

- الكتابة مسألة صعبة.

- جربي.

وفيما كانت الشمس قد امتلكت مساحة المكان، وألقت بسخونة الأشعة فوق الرؤوس.

كانا قد توصلا إلى اتفاق.

هو كالمعتاد سيغادر اليوم السبت. هى ستبقى. حسنى سيغادر. ستجد وقتا لعلها تتمكن من كتابة ملاحظات.. مجرد ملاحظات، أكدت ذلك وألحت عليه، هو أكد أنها قادرة، لتكتب هى، ومهمته أن يطلب منها أن تواصل، ووافق أن يقرأ وأن يدون ملاحظاته.

عادا أدراجهما، فجأة كمن تذكرت شيئا منسيا قالت: حسنى بيسلم عليك.

عيناه كالمعتاد اكتفتا بنظرة متسائلة.. هى أجابت: هو عارف أننا بنتقابل، لكنه يستحيل عليه أن يستيقظ مبكراً، ولا أن يرهق نفسه بالمشى.

سارا الهوينى، الشاطئ بدأ يلتقط بعضا من الزوار.. داخله تململ،.. «لو أن» خيمت فوقه.. لعلها أدركت بعضا من قلقه.. سلمت ومضت.

***

الأيام مضت، أحيانا كانت تبدو متثاقلة. وفى أحيان أخرى كان يتظاهر أمام نفسه أنه غير مهتم، ولعله كان يقنع نفسه بأنه أمام سيدة تبحث عن تسلية تمضى بها أيام الصيف التى قد تتلامس أحيانا مع بعض الملل. لكنه - وعلى أية حال - كان ينتظر صباح الخميس المبكر.. كى يلتقى معها.

وأتى الخميس.. خرج مبكرا عن موعده، كان واثقا أنها ستأتى. أتت، كانت تأرجح إحدى يديها بكراس صغير، غلافه وردى

اللون، (تخلت عن لونها المفضل فى الكراس فقط، لكنها احتفظت به فى الملابس) .. منحته قبلتين متعجلتين، و .. وحشتنى. ثم الكراسة. تأملها حاول أن يزيح الوردى ليتأمل الكتابة صرخت .. منعته .. أرجوك، بعدين، إذا أعجبتك استخدمها بشرط أن تعدنى بكتابة الرواية الموعودة .. وإذا لم تعجبك مزقها.

منحتها إصراراً بأنها هى التى ستكتب الرواية.

- أنت روائية بطبعك.

- أنت منافق.

- أنت تعرفين أننى لم أنافق أحداً، لو كنت أجيد النفاق، لاجتزت كل المشتاقين وأخذت أكثر مما يشتاقون إليه، لكننى لا أريد .. ولا أعرف النفاق.

- هذا فى السياسة .. صحيح، لكن معى لا، عيناك تقولان أشياء غريبة.

- مثل ماذا؟

- مثلا تقولان إننى جميلة.

- لكنك بالفعل جميلة.

- كنت .. وكان فعل ماضٍ.

- لست أعتقد أن فى بيتكم مرآة.

- بل مأساتى أننى أطل كثيراً على المرآة تواجهنى بالحقيقة.

- أية حقيقة؟

- الزمن.

كلمة الزمن أثقلت قلبه. أضناه الزمن. أفاق ليكتشف أنه أفلت. ضاع قبل أن يأتى.. وهو الآن عجوز لم ير شبابه ولم يعشه..

- أنتم لسه عيال وتتكلمون عن الزمن.

لكنها ضحكت فى فرح: لا تنافق. أنا كاشفاك كويس.

- ستكونين أول من يفعلها.

- وقد فعلتها. كنت أتصورك لغزاً وكذلك الكثيرين.. ولكنك الآن سهل الحل..

قلت: لعلك مغرورة.. فقالت: ياريت.

حاولت أن أتأمل الكتابة.. ألحت. وفى تودد ناعم الملمس قالت: علشان خاطرى.

وبيسر وتعجل انتهىٰ مشوارنا اليومى. كنت أتعجل انتهاءه كى أسرع بالقراءة، تواعدنا فى موعدنا المتكرر. فقط ذكرتنى، إذا لم تعجبك الأوراق مزقها. وأضافت ونحن نفترق، بعد القراءة ستكون مؤهلا كى تحضر واحدة من جلسات التكاذب المخملية.

عزيزى فيما أستمتع بصداقة نادرة، أعترف أننى حلمت بمثلها كثيرا، إذا بك تجبرنى على الكتابة، وهو ما لم أتخيله يومًا ما.. ها أنت فعلتها إذ أقنعتنى أن أفعل. أرجوك إذا لم تعجبك هذه الملاحظات مزقها.. لكن أريد منك وعدًا أن تكتب عن هؤلاء الأوغاد.. فهل تعدنى؟

المخلصة جدا

سمسمة

[أدهشه الخط الجميل وكأنه لوحة مرسومة بيد فنان مبدع وأدهشه أكثر أنه لم يعرف اسمها حتى الآن..

وطبعا من الصعب أن يكون اسمها.. سمسمة].

مرة أخرى وقبل أن أبدأ، وإذ يتجاذبنى التردد..
أرجوك لا تسخر من كتابتى.
أنا لست كاتبة ولن أكون..
فقط ستكمن كفاءتى، وتكمن مهارتك
فى أن تلتقيا إذ تستطيع أن تخمن
الاسم الحقيقى لصاحب كل صورة.
أحاول أن أرسمها بقلمى.

سمسمة

لدى أول لقاء تال استجمع كل شجاعته وأطلق عبارة ظن أنها محكمة، قال: لدى سؤال. قالت ببساطة:

أعرفه؟

- ما هو؟

- اسمك إيه؟

[يا للماكرة ها هى تقرأ أفكاره بيسر، وهو الذى ظن، ولأمد طويل أنه صندوق مغلق يستعصى على الفتح.

هى فتحته بمهارة. وأجابت على سؤال لم ينطقه].

اسمى سامية.. لكن أمى وهى فلاحة بسيطة كانت تسمينى سمسمة.. وأحب أن أستخدم اسمى الأكثر محبة إلى نفسى معك

وحدك . [أدهشته بساطتها فى إشهار مودتها الخاصة معه . وأدهشته بساطتها إذ تحدثت دون تردد عن أمها الفلاحة البسيطة وهى التى كانت تستطيع أن تكذب أو تتكاذب وتتحدث عن عائلة وهمية] .

وبدأ فى قراءة متأنية ومنبهرة . .

مسيلمة الأكبر ضخم، تمتاز ضخامته بأنها ممتدة إلى كل شيء. الحجم والعرض والارتفاع، الصوت، الاقتحام. باختصار كثيره كثير - ولست أعرف إن كان من الممكن استخدام مثل هذا التعبير أم لا؟ [طبعا.. هو تعبير جميل، ومتقن الصياغة، ألم أقل لك إنك قادرة على الكتابة الممتعة].

فهو كثير المعرفة، وكثير الكلام، يحتل مساحة الحديث فيغلق أبوابها أمام الآخرين لينفرد بها وحده، وكثير القدرة على الاقتحام، يقتحمك بأكملك بكل قطعة فيك.

عندما دخل عندنا لأول مرة، اصطحبه صاحب بعيد لحسني، دخل يسبقه صوته المرتفع، اندفع نحو حسني وكأنه صديق قديم، وعندما حاول الصاحب أن يقدمهما لبعضهما، أكد هو أنهما صديقان قديمان، أكد لي حسني فيما بعد أنهما لم يلتقيا من قبل. حتى أنا حاول اقتحامي، سلَّم بحماس، وبعد دقيقة لا أكثر كان يناديني باسمي ويشاكسني بمهارة سخيفة، وكأننا نعرف بعضنا من دهور، ثم بدأ في إطراء الفستان مؤكداً أنه من باريس قلت: فعلا من «لافييت»، قال: رأيته هناك وأعجبني جداً. وعلى فكرة لقد اشتريت القماش من مصر، وفصلته لي خياطة متوسطة المهارة، فقط كنت أريد أن أمتحن مدى قدرته على الادعاء، لكنني اكتشفت سذاجتي عندما تمددت مساحات الادعاء إلى أبعاد لا انتهاء لها..

وحتى مع الكبار من الضيوف، وكبار الكبار سنًا ومقامًا ومكانة فعلها معهم، بعد لحظات كان يناديهم بأسمائهم المجردة، ويلوك جملا ونكاتًا تحمل «إفيهات» تفتقد القدرة على أن تكون لائقة، أحدهم وكان وقوراً بغير ادعاء حاول أن يثنيه بأدب جم، فصمم على أن يناديه بوقار «يا أستاذ..» أو «يا... بك» وحتى «يا دكتور..» - رغم أنه ليس دكتوراً - محاولا جهده أن يخلق مسافة بينهما تسمح بتعامل هادئ أو معتدل دون جدوى، وبعدها كان دوما يعتذر إذا علم أن السيد مسليمة سيحضر.

وهو فوق قدرته المنطلقة على الحديث يستطيع أن يتلون به وفق اتجاه الريح، والريح عنده يغير اتجاهه في الأمسية الواحدة مرات عدة، لكنه ربان ماهر.. وفي كل مرة يبدو مقنعًا بل وصادقًا. أية خبرة هذه؟

في زيارته الأولى كنا لفترة وحدنا حسني وأنا والصاحب البعيد ومسيلمة، انتهز حسني الفرصة وفتح نافذة الحديث باتجاه السؤال الذى يحير الجميع، وخاصة هؤلاء القدامى الذين تباعدوا، وظلوا ومن بعيد يمنون النفس بمزيد من انتصارات الاشتراكية، يزهون بها أمام أنفسهم، وفي دوائرهم المغلقة، ثم فجأة جاء بركان فيزوف ليمسح كامل «المدينة» ولا يبقى منها سوى الأفكار والأطلال والبحث عن إثبات بأنك لم تكن متفقًا تمامًا مع ما كان، أو حتى لم تكن أصلا.. هؤلاء تظل الأسئلة تؤرقهم.. وتوجعهم، فهل كان كل ما كان سرابًا؟ أم وهما؟ أم خطأ؟ وهل ثمة بقايا أمل.. ولو بعيد؟

وطبعا انتهز حسني زيارة الأستاذ مسليمة - كان يسمع اسمه

بانبهار وكنت مثله - ليتخفف من عبء استعصاء أسئلته على الإجابات.

ساعتها اعتدل مسليمة، ساقه امتطت ساقه الأخرى.. وبدأ فى إفتاء محكم الصياغة حتى تبدى وكأنه مقنع، وقادر على منحنا آمالا واسعة وقريبة جداً، بل وأقرب من كل التوقعات. ثم توافد ضيفان جديدان أحدهما مسئول تنفيذى وحزبى كبير.. الحكومة أتت.. قلت لنفسى لنر وجه الحكومة عندما تستمع إلى هذا الهرم الشديد الإقناع من الحجج المؤكدة لسلامة الفكرة، واحتفاظها بطزاجة تجددها - هذا التعبير له - وعن مجرد أخطاء فى التطبيق يمكن تلافيها مع بعض التفهم لمتطلبات العصر.. وإلى هذا التأكيد الذى يؤكد اقتراب عودة الفجر، وأنه سيطل حتما. وأقرب مما يتوقع الجميع.

مسليمة لم يتلعثم.. ولم يتردد للحظة، سلَّم، واحتضن، ومنح ونال قبلات عديدة.. ثم واصل حديثه بذات الانطلاق والمقدرة التى توحى بأن شيئا لم يتغير، لكنه ويا للدهشة بدأ فى التأكيد - وكأنه كان يؤكد من قبل - على أن أخطاء فادحة تسللت إلى صلب النظرية، وأنه يتعين التعامل بمرونة متجددة زماناً ومكاناً مع الأفكار، ثم تمددت كلماته مع تمدد ابتسامة إعجاب تبدت على شفاه غليظة للسيد «الحكومة» فأكد أن زمن عبادة النظريات قد انتهى، وأن الأيديولوجيات المحكمة، والدائمة الصحة أكذوبة، وأن التجديد لا بد أن يشمل النخاع الأساسى للفكرة وإلا فلا أمل. وتصاعدت

نغمته حتى أصبحت أقرب إلى أقاويل الخصوم التقليديين.. لكنه ويا للدهشة لم يفقد اتساقه، ولا قدرته على الإقناع.. وأيضا ترك لنفسه مهربًا يتنفس منه أمام نظراتنا المتسائلة.

باختصار أتى فعلا فاضحا إزاء الحكومة، قام بعملية «استربتيز» كاملة دون أن يشعر بأى حرج، ودون أن يمنحنا الإحساس بأنه قد تغير، أو حتى تراجع، أو راجع بعضًا مما قال قبل أن تأتى الحكومة.

قرأت لك يوما عبارة: تقول «يخون المثقف فكرته عندما يقدسها» تأملتها.. تعجبت منها ثم أعجبتنى [ألم أقل لك اكتبى أنت، أرأيت التعبير الرائق تعجبت.. ثم أعجبتنى؟] لكننى عندما رأيت مسيلمة ينتهك عرض المنطق بهذه المهارة.. أحسست بخوف شديد من قدرتكم أنتم أيها المثقفون على التلاعب بعقولنا، وعلى إقناعنا بما لا يمكن.. ولا يجب الاقتناع به. [حقك علىّ، لكن ليس المثقفون جميعا بقادرين ولا حتى براغبين على فعل هذا الفعل الفاضح، فقط أعتقد أن عبارة «هتك عرض» شديدة، وربما غير لائقة].

وفوق هذا فإنك إذا فتحت عينيك جيدًا تجده قادرًا على اللعب وبمهارة على حبال عديدة.. وربما كل الحبال. ليس فقط حبال الجالسين فى أمسيات التكاذب، ولا حتى فى ساحة التكاذب المصرى، وإنما على المساحات العربية جميعًا.. ففى لحظات التمزق العربى - العربى، وفيما كان الرؤساء العرب يأكلون بعضهم بأنياب خالية من الفطنة كان هو صديقا للعراق.. وليبيا.. وسوريا

والفلسطينيين، وقادراً على إقناع الجميع أنه معهم، ويصوغ مواقفه بدفاع متحمس عن كل طرف، ولكن بمهارة لا تغضب الآخرين، بل وتوحى للآخرين أنه ذمٌ فى وعاءٍ من مديح.

هذه المهارة فعلها حتى مع السادات فامتدحه بما أرضاه، دون أن يفقد القدرة على إرضاء خصومه.. أرأيت كيف كان منافقًا عبقريًا؟ [الذى لا تلاحظينه أن هذا ليس مجرد نفاق، وأنه موقف ومصالح وأشياء أخرى، والذى لا تعلمينه أنه قد استدرج أو بالدقة حوصر فى جلسة يسارية بهجوم على تودده للسادات فقرأ لهم معان يمكن أن تكون بالفعل كامنة فى عمق المديح، لكنها تدين السادات، ولعله فعلها مع العرب الآخرين. المهم أنه فيما يبدو أن تفسيراته اليسارية لكلماته الساداتية قد سجلها الأمن، وغضب منه السادات تماما وإلى غير رجعة].

وهو فوق هذا كثير الصداقات، ماهر فى اصطياد الأصدقاء، وتجميعهم حتى مع من لا يجتمعون فى أى موقف، وحتى أنتم.. كان معكم ومع غيركم. وأغمضتم العين برضاء تام.

كما أنه استطاع أن يفهم لغة العصر.. فحول الكلمات إلى معان، والمعانى إلى مصالح، والمصالح إلى بيزنس.

.. ياه. كفاية كده.

هل عرفته؟

[من السطر الأول عرفته، لكن ريشتك رسمت له بورتريه متقن الملامح.. وحتى مكتمل الرتوش].

مسيلمة الأصغر والمسيلمات كثيرة - ترى هل هى مسيلمات أم مسيلمون؟ [لا أعرف، والله].

المهم.. هم كثيرون، من الصعب إحصاؤهم، وهم من مختلف الفئات والمراتب والاتجاهات.. لكننى أختار لك واحداً إضافياً ترى هل سأتقن وصفه، فتتقن التعرف عليه؟

كانت أول جائزة حصلت عليها عندما كنت الأولى على الإعدادية فى مدرسة ابن لقمان الإعدادية بنات بالمنصورة [أنت بلدياتى إذن، وجارتى كمان] قلم جاف متعدد الألوان. أبهرنى هذا القلم، وأبهرت به أسرتى كلها. قلم سميك يضم عدة أنابيب جافة ذات ألوان مختلفة أسود، أحمر، أزرق، أخضر. فقط تدوس على زرار صغير وتختار اللون الذى تريد.

وكلما رأيت هذا المسيلمة تذكرت القلم المتعدد الألوان.

هو عبقرى فى تنوع الألوان. طبعا عبقريته لا تطاول مسيلمة الأكبر.. لكنه عبقرى بمقاس مختلف، هناك مسيلمة لارج، وآخر إكسترا لارج، وصاحبنا لارج فقط، يكتب فى الصحف المصرية بلونين فى الصحف الحكومية بلون هادئ.. وفى صحف المعارضة بلون صاخب ومشاكس. وهو ليس غبيا كى ينكشف بهذه البساطة، فهو يختار للقومية موضوعات «قومية» لا تحتمل معارضة فيبدو بتحليلاته مقبولا من كل الأطراف، ثم

يختار للمعارضة ما يمنحه مساحة واسعة للمشاكسة اللغوية، وترصيص الألفاظ الحادة النصل.. ويكسو ذلك ببعض من سخرية غير جذابة، ولعله يعرف أنها كذلك، لكنه يلجأ إليها كمهرب عند التدقيق الجاد فى معنى الكلمات لدى أية محاولة للتحاسب. ثم إنه فوق ذلك يكتسب لكتابته كل ألوان الطيف العربى.. لقطر ما يرضى القطريين، ولدبى ما يرضى أهلها.. ويدخل أيضا على خطوط كويتية وأحيانا سعودية وعراقية وغيرها.. إنها متعة التلون إذ تمتع صاحبها بما يمتع المستمتعون بإرضائهم.

وفى سهراتنا يتبدى الأكثر ثورية واندفاعًا وحماسًا.. وهو قادر أيضا على الإقناع.. وإن يكن بمقدرة أقل كثيرا من الأستاذ الأكبر.

وهو كذلك متعدد الألوان الفكرية.. فحتى فى الأيديولوجيات يضع طرفا من قدمه على طرف كل منها.

فأنت لا تستطيع أن تنفى أنه ماركسى، لكنك ومهما دققت لا تستطيع أن تؤكد أنه ماركسى.. لا فى ماضيه ولا فى حاضره، وكذلك هو مع الفكر القومى.. والبعثى بلونيه، والناصرى بتنوعاته المتباينة.. هو فى وقت ما.. ولمناسبة مناسبة يكون متحمسًا هنا أو هناك دون أن تدوس قدمه فى العمق لتكون مستعدة دومًا كى تنسحب، ثم تتلامس مع الوجه الآخر.

ويبقى محايداً بالنسبة للجميع، البعض يتصور أنه هنا.. أو هو هناك، لكنه لا هنا ولا هناك هو مع نفسه التى يعشقها بصورة متقنة. وكثيرون يقولون إنه معهم، أو هو ضدهم، لكنه قادر على إثبات ذلك أو عكسه على الدوام. فهو قادر على أن يجد فقرة

مناسبة، من مقال مناسب، كتبه فى مناسبة ما، تؤكد أى موقف، وتقدم البرهان حينا ونقيضه فى حين آخر.

ولأن كتابته متقنة، وأسلوبه شيق فإنه يستطيع حتى وهو يعمل للحكومة ويكتب لها أن يكتسب متعة متابعة القارئ له.

لكنه كما أكدت أكثر من مرة ليس فى مرتبة الأستاذ.. فالأستاذ عرف كيف يتقن الدور.. أما «الأصغر» فهو يتمتع برثاء من البعض، ورضاء محدود من البعض.. وتهكم غير محدود من الكثيرين. ويتجلى هذا الفارق فى سهراتنا فالأستاذ يعرف كيف يسيطر على مجمل الجالسين.. مايسترو يتقن فن العزف بالأوركسترا بمجمله، أما هو فيحاول ويحرك يديه بحماس، ويختار جملا ومواقف متحمسة، ويستخدم ألفاظا ساخرة، وأحيانا قاسية، لكننى أتأمل الجالسين فأكتشف أن ثنائيات وثلاثيات منهم تتشكل، تتهامس بما يشغلها.. فالعازف ليس قديراً بالقدر الذى يمكنه من احتواء الجميع.. أرأيت الفارق؟

والآن هل عرفته؟ [طبعا.. ومنذ حديثك عن القلم المتعدد الألوان].

النطاط كنا ونحن صغار نحاول أن نلاحقه دونما أمل فى اللحاق به. جرادة صغيرة تقف هادئة بالقرب منك، تبدو منشغلة عنك، وتعطيك الإغراء بإمكانية الإمساك بها.. توقعك دومًا فى الفخ.. تتركك كى تقترب، تقترب، تحاذر فى اقترابك وإذ تهم بإمساكها تنط على بعد قريب، فتحاول مئات المرات، تحاول.. وفى كل مرة أنت تفشل وهى تنط.. ولهذا أسميناها النطاط.

لكنها ليست مجرد جرادة مسالمة فهى تمتلك عدة مناشير فى ساقيها، وفم قارض يستطيع أن يلتهم أى أخضر. المناشير تقطع، والفم يلتهم. ولا أمل فى الإمساك بها.

هو كذلك، يبدو صغير السن على ما حقق، يمتلك مظهراً بريئًا وربما ساذج [يمتلك مظهراً بريئًا وربما ساذجًا، مش كده]. ابتسامة الطفل توشى الوجه والتصرفات ببراءة زائفة.

نط.. نط.. بقفزات سريعة وغير ملحوظة.. أفلت نحو مساحة التمحك بالكبار، يبدو وكأنه يشاغبهم، لكنه فقط كان يفتح أمام نفسه باب رزق جديد، وفرصة جديدة. وتتوالى الفرص بسرعة مجنونة تطلبتها سرعة الجنون الذى أحاط بالمجتمع فى زمان النهب العظيم.

وجهه الطفولى الملامح، وابتسامته التى تكاد أن توحى بالبراءة أفسحا له مساحات للتحرك، فتحول من لا شىء إلى صحفى

وسياسى، وإلى رجل أعمال وإلى كل ما يخطر على بال. وفجأة من فتى شبه ضائع، وشبه مسكين تراكمت حوله ومعه ثروة ضخمة وكأن حلمًا صيفيًا غريبًا أمطر عليه فى ليلة لم يشاركه فيها أحد، سيولا من مال.

وبمهارة، وجد المبرر لذلك كله، وأغلق كل أبواب من أين لك هذا؟ مستخدمًا حيلا ذات مفردات ساذجة لكنها ويالللغرابة تبدت فى زماننا الغريب كافية لتحقيق قدر ما من الإقناع، ليس لأنها مقنعة، وإنما لأن النسق العام السائد يريد لها أن تتبدى مقنعة، فالجميع بحاجة إليها، بل يبدو أن الجميع بحاجة إليه، فإذا كان هذا الـ (....) قد امتلك كل هذا الثراء، بكل هذه البساطة فلم نوجه أسئلتنا ودهشتنا للآخرين.. الأكبر سنًا والأكثر جدارة؟

وحتى بعض ألاعيبه التى استمدها من الأفلام الهندية التى تبهر الناس من فرط أكاذيبها غير القابلة للتصديق، حتى هذه الألاعيب تقبلها الكثيرون. ربما لأنهم وجدوا أنه من المناسب أن يضاف إلى قاموس الحاضر بعضا من هذه الألاعيب لعلها تكون صالحة للاستعمال فيما بعد من هذا الطرف أو ذاك.

وبرغم تفاهة ما يكتب فإنه يجد من يقرأ، وربما لأنه أقنع البعض أن للكلمات الساذجة عمقًا يحتاج إلى عقول كبيرة كى تفهمه..

وعبر حملة دعاية خيالية فى تكاليفها - لم يسأله أحد من أين مولها - تحالف فى معركته مع الجميع.. ضد الجميع، وعندما نجح عضواً فى مجلس الشعب احتار البعض هل يصنفونه مرشحًا

للحكومة أم مرشحاً للحزب الذى التصق به، وعندما ناقش وتحدث فى المجلس تبدى للعين الفاحصة أن كل حرف مصوب نحو هدف ما، وفائدة ما.

وفى دوارنا الصيفى وكذلك الشتوى يأتى محاولا أن يوحى بأنه محمل بأهم الأخبار، وينجح دوما فى أن يوحى دون أن يفصح بما قد يحسب عليه إذ يدعى بأن المصدر عليم وأكثر.. فقط يلمح بإيماءة حاسمة، تكتسى بغموض هام، بمصدر يدفع الجميع للتسليم بالتصديق.

باختصار.. هل يمكنك أن تمسك بالزئبق؟ إن فعلت أمكنك أن تمسك به. لكننى وبرغم تشاؤمى الشديد، أعتقد أن مصر برغم كل ما حدث لها، وبرغم كل ما فعلوه بها، وما أضافوه إليها من تشوهات أفضل بكثير من أن تفسح له مكانا أوسع.. أو حتى أن تمنحه إمكانية الاحتفاظ بما حقق. طبعا عرفته. [طبعا].

سيدنا الشيخ ولست أعرف إن كانت التكشيرة الدائمة الارتسام واحدة من طقوس متأسلمى هذه الأيام أم لا.

لكنها طقس دائم من طقوس سيدنا الشيخ، الذى يدخل ويخرج كما جاء، كأن وجهه جرانيتى التكوين غير مسموح له بالابتسام، أو كأنه صنع من جبس إن ابتسم تشقق.

ولست أدرى إن كان محرمًا على المتأسلمين - طبعا أنت مبسوط من استخدامى لهذا التعبير، وإن كنت سأطلب منك يومًا أن تشرح لى سر تمسكك به، وسر كراهيتهم جميعا لك - مجرد الابتسام باعتباره متعة دنيوية رخيصة، فلماذا يتمسكون إلى حد الجنون بمتع أخرى؟ فصاحبك مثلا يأكل بتلذذ واشتهاء غير ممكن، لأنه غير محدود.. وهو جنون لا يخفيه، يدخل متلهفا على الطعام وينطلق متلهفًا نحوه، وفكاهته الوحيدة تأتى فى التساؤل عنه وفى امتداحه، إلى درجة أننى أصبحت أغيظه فأمنع ما يحبه من طعام فى الليالى التى يحضرها.

وكل شىء فى وجهه جامد إلا عينيه، يدخل وهما مسترخيتان، يخيل إليك أنهما متدليتان إلى أسفل، وكأنه يتبع التعاليم الصحيحة بغض البصر، لكنهما تمتلكان حدودًا فائقة الاتساع على الحركة وهما هكذا متدليتان، وفيما يبدو ساهمًا، أو مفكرًا، ووقورًا، ومتشاغلاً عن تعابث

الآخرين، تكتشف أن عينيه إن دققت فى اتجاهها قد بحثتا، ووجدتا، والتصقتا بمساحة ما من جسد امرأة ما.. وأركز عينىّ على عينيه، أكتشف أشعتهما المتجهة إلى المساحات العارية حتى ولو كانت صغيرة دون أن أكتشف أى إيحاء واضح بذلك. الوحيدة التى اكتشفت ذلك معى، ربما بعد أن حذرتها من أن شعاع «البص» الآتى سراً من الشيخ متجه نحوها، كانت «عفاف» - زوجة رجل أعمال ينمو سريعا فى سوق الطحالب السريعة التكاثر - لكنها ويا للدهشة استمتعت بذلك - هل سبق أن قلت لك إن النساء مختلفات تجاه عملية الاقتحام البصرى - وظلت عفاف طوال الجلسة والجلسات التالية تضبط موجتها على موجة عينيه، تريحهما من محاولة الالتواء فتلتوى هى لهما.. بل وتفسح لهما وعن عمد مساحات أوسع وأرحب من ساقيها، وما فوق ساقيها. هو يبدو مسترخياً وبعيداً لكنه منغمس ومستريح ومستمتع.. وممتن لها.

وهى تتقارب منه، ثم تسأله فى دلال تعرف كيف تتقنه هل تفسير الأحلام صحيح شرعًا، ويجيب فى ابتهاج: طبعا، لكن خطأه أكثر من صوابه.

وتسأل: إزاى يعنى؟

فيجيب: هناك مدَّعون ومحتالون، ولكن تفسير الأحلام لا يستطيعه إلا الراسخون فى العلم.

فقالت وضحكة عالية تزاحم كلماتها: وأنت، راسخ فى العلم؟ خفض الشيخ رأسه مدعياً التواضع ثم انتحى بها جانبا لتحكى له ما حلمت به، وليفسر لها بما ترسخ عنده من علم.

ملت على صديقة جالسة لأقول إن «سنارة» مولانا غمزت. فضحكت واقترب فمها من أذنى فى همسة ممتدة: الشيخ «نقبه طلع على شونه» فالست عفاف ورغم أنها متزوجة، تعابث الرجال لكنها لا تحب العبث إلا مع هذه، وأومأت برأسها ناحية مطلقة تهوى الحضور إلينا صحبة زوجها السابق فى علاقة صداقة مثيرة للدهشة. وكانت نظراتها المفعمة بالغيظ تحيط بالشيخ وعفاف معًا.

وبعد أن انتهى من تفسير حلم ربما لم تحلم به صاحبته، عاد إلى مكانه، وعادت إلى مكانها، وعاد التلاقى بين نظرات نهمة، وجسد مغرٍ، وراغب فى الإغراء.

وهو بالمناسبة يكرهك كراهية شديدة. ما إن يأتى أحد إلى اسمك حتى يستعيذ بالله، وأنا أغيظه بأن أفجر اسمك فى وجهه مراتٍ عدة فى كل ليلة، أفعلها ويستعيذ، فأكررها فيستعيذ، أناوشه فيصب جام غضبه ليس ضدى فأنا ضاحبة الطعام وإنما ضدك أنت، ويضحك الجالسون ويقول أحدهم: الراجل مش هنا، والست دى هى اللى بتكلمك، هو ماله؟ فيرد فى غيظ: هو زارع هذه السموم.

وفيما هو جالس ذات مرة فى مكمنه المفضل، مرتديًا كعادته بدلة أنيقة وكرافات شيك وملتفا - لزوم الشغل - بعباءته الصيفية الشفافة.. دخلت «الحكومة» بصخبها المعهود.. سلم المسئول الكبير، واستراح.. ولم ينس أن يوجه كيده إلى الشيخ.. سأل بصوت عال «الأستاذ من السعودية؟» قالها موجها حديثه إلى مولانا الذى يتصور أن لا أحد فى مصر ولا فى بلاد المسلمين لا يعرفه،

والذى امتطى ولم يزل عديداً من القنوات التليفزيونية الرسمية فى عملية تلميع لم أعرف لها مبرراً سوى أن تليفزيوننا مجنون رسمى.. مولانا صعق. امتقع. جمع شتات نظراته التى كانت تتجول كعادتها بحثا عن الممتع.. حسنى قال ضاحكا: إزاى يا معالى الوزير متعرفش الشيخ الدكتور...؟ الوزير الذى كان قد وجه سهمه عن عمد، قال فى لامبالاة: آه، هو أنت...

وبدأ عود الكبريت يحتك فى علبته، واشتعل حوار حول «الإرهاب» و«إقحام الدين فى السياسة» و«أفغانستان» و«بن لادن»، والوزير يوجه نظرات قاسية تشق الوجه الجرانيتى. والعينان المسترخيتان دوما تحولتا إلىٰ عينى ذئب خائف. صوته الحازم أصبح مرنًا. قدرته على الإقناع تلاشت، وتلاشى معها كل ما كان يلقيه فى وجوهنا من «مراسيم» وفتاوى تمرر وتبرر كل ما يفعله هؤلاء. انتهزت الفرصة وواصلت إشعال الكبريت، أردت أن أرى هذا الشيخ وأريه للجالسين على حقيقته، بدأت الجمَل تخرج من فمه مبهمة، فيحكها «الحكومة» سائلا: يعنى إيه؟ يسألها فى لهجة حادة، وربما مفعمة بإنذار.. فتتراجع الكلمات وكأنها تخاف مرتدة إلى فم فقد مقدرته.. ثم استعاد الشيخ لياقته بعد دقائق، وكأنه قد قلب صفحة النوتة الموسيقية وبدأ العزف المطلوب من الحكومة.. وحتى كلمة التأسلم استسلم أمامها قائلا فى مذلة: «يعنى المسألة وجهات نظر» نظراتنا جميعا تلاقت، فهو قد فعلها بطريقة غبية، ومفاجئة، فتبدّى منافقًا بل وأكثر.. وكأن كل النظرات تذكرت «مسيلمة الأكبر» وأناقته فى تغيير الموج.. واتفقنا دون حوار أن النفاق مهنة صعبة وتحتاج إلى تخصص.

الاستثناء «ثمة أشياء تكون أصدق فى وصفها إذا اكتفيت بالصمت، لأنك ستبدو مقصراً مهما أفرطت فى وصفها بالكلمات».

هذه العبارة للفيلسوف أفلوطين - علشان تعرف أن إحنا مثقفين -.

هذه العبارة الرائعة تقف أمامى عندما أحاول الحديث عن البعض الذى يبدو - بشكل أو بآخر - استثناءً من تلك القاعدة المؤلمة التى مهما حدثتك عنها فلن تكفى الكلمات.

فأنت لا تستطيع أن تصف «الحق» وصفا متقنًا. لكنك قادر طبعا على وصف الكذب والنفاق و... و... مع ذلك سأحاول أن أحدثك عن واحدٍ من هذه الاستثناءات.. وأعتقد أنك ستعرفه.

هادئ، يأتى مستقيما ويذهب كما أتى. كاتب مبدع لكنه نصف مشهور، أو نصف مغمور. فما من مبدع مثله يمكنه أن يلمع.

فهو لا يقبل النفاق ولا يتقبله، وحتى إن ابتلعه فى صمت لا يلبث أن يلدغ صاحبه بما يوجعه. هو يعرف الثمن كى يصبح ملء السمع والبصر، ويعرف أنه يمكنه أن يلمع ويتألق وتفتح أمامه أبواب الأرض والسماء معا، لكنه يأبى فى كبرياء، يغيظنى هذا الكبرياء المترفع، لأنه يشعرنى ويشعر الآخرين.. ودون أن ينطق أنه الأفضل.

وهو مع ذلك متواضع إلى نهايات حدود التواضع.. وإلى درجة تشعرك بأن الفارق بين هذا التواضع اللانهائى وبين الكبرياء قد يتلاشى. يكمن فى ركن قصى ينصت ولا يشارك إلا قليلا، والويل للجميع إن شارك. حسنى يقول إنه كالعقرب.. ساكت، هادئ ثم يلدغ. أنا لا أعرف أخلاقيات العقرب فهل تعرفها أنت؟

السهرة بدونه تبدو بلا مذاق، فأكوام التكاذب والنفاق إذ تتراكم تحتاج إلى نقيضها كى يتبدى نفاقها زاهيًا ومفجعًا.

الكثيرون لا يحبونه، يتصورنه أحمق. أليس يتحدث بلغة غير لغة العصر؟ والجميع يعرفون أنه يستطيع أن يقفز فوقهم جميعًا لو فعل ما يفعلون، أو نصف ما يفعلون، لكنه لا يفعلها، وفيما يبدو لن يفعلها.. فلو اختفى مثل هذا الاستثناء ستبدو مصر كئيبة، وبلا مذاق، فهو الملح الذى يمنح الطبخة.. كلها، مذاقًا، وأملاً.

وأمس تجلى مرتين.

بدأ أحدهم حوارًا مع السيد «الحكومة»، فأثار قضية القروض، ورجال الأعمال الذين هربوا والذين سيهربون بمليارات من أموال البنوك. «الحكومة» يعرف جيدًا كيف يتحدث.. ويدافع عما لا يمكن الدفاع عنه. برر، كذب.. كان يكذب وهو والجميع يرون الكذب كامنًا ولامعًا فى كل حرف.. دافع عن دقة النظام المصرفى، ودافع وبحماس عن فكرة «إرضاء» رجال الأعمال «المتعثرين».

«وطبعًا لازم نعطيهم فرصة، نتنازل شوية علشان الاقتصاد الوطنى يتحرك، نعفيهم من بعض الدين ومن الفوايد، ونجدول

الدين، ونعيد جدولته.. هى دى الشطارة، إنك تمشى الاقتصاد».
حاول أحدهم أن يقول: إن الديون يجب أن تكون واجبة السداد وإلا فقد النظام المصرفى مهابته وقدرته - لكن لسان السيد «الحكومة» طويل ويعرف كيف يخرج من المأزق بإكراه الجميع على الصمت - فرد على القائل: حمار مين اللى قال كده. الاقتصاد علم معقد، ويحتاج إلى خبراء، وإلى معرفة قبل الحديث فيه. والمسألة مش مسألة كلام مصاطب، ده علم يا ناس، وعلم مش سهل، ده عايز علماء حقيقيين..

صمت القائل، فقد اكتشف فجأة أنه حمار.. وجاهل. وصمت الجميع فهى المرة الأولى التى تلقى فيها فى بحيرة السهرات المخملية أحجار ثقيلة كهذه.

كان الاستثناء مركونا كعادته.. ساقه فوق ساقه الأخرى، يتشاغل بالنظر المتأمل فى الكوب المتعلق بيده منذ أتى. لم يشارك فى الحديث، وهو عادة لا يشتبك فى أى حديث مع «الحكومة»، لكن العبارة الحمقاء أوجعته، وربما أوجعه أكثر هذا الدفاع المستميت عن اللصوص. أو أوجعه هذا الذى صمت جبناً عندما وصفه المسئول أنه حمار وجاهل.

كان الموضوع الشائك قد هرب من مجرى الأحاديث المتشابكة. الثنائيات والثلاثيات تشاغلت وعن عمد بعيداً عن الإهانة بأحاديث جانبية، والأستاذ «الحكومة» نفش صدره المنتفش أصلا وجلس منتشياً بالانتصار، واصطاد واحداً من كبار المنافقين ليكمل معه خيط الحديث.

دار الكوب فى يد «الاستثناء» مرة أو مرتين ثم اقترب قليلا من «الحكومة» وبهدوئه الممل قال: «معالى الوزير أنا عندى رجاء لواحد قريبى». انتفش «الحكومة» أكثر فأكثر فهو يريد أن يداوى ما سببه لسانه من جرح، وخاصة مع هذا المتمرد دومًا.. وقال بتودد:

- اتفضل، أنا تحت أمرك.

دار الكوب مرة أخرى فى اليد الهادئة، وقال: ولد قريبى مسكين خد قرض من صندوق التنمية الاجتماعية، وعمل مشروع وطبعا السوق نايم، ومش قادر يسدد، ممكن سيادتك تكلم لنا حد فى الصندوق يصبروا عليه شويه؟

ومضى الحوار.

- يصبروا يعنى إيه؟

- يعنى مهلة كده، شهرين ثلاثة لحد ما ربنا يفرجها.

- هو مش فيه نظام؟

- طبعا، بس الواد غلبان ومش حيقدر يدفع دلوقت.

- هو فيه حاجة اسمها غلبان، ده نظام، وإذا كل واحد خد قرض ومسددوش، الصندوق حيجيب منين؟ يعنى الصندوق يفلس علشان شوية ولاد فاشلين؟

- بس الولد حيتسجن.

- يتسجن.. هيه المسألة هيصه، أى واحد ياخد فلوس، وما يدفعش.. دى البلد تبقى فوضى.

وفيما يعلو صوته العالى بطبعه، وخزه شيء ما فى داخله ليعلن له أن هذا الماكر قد استدرجه ليقول عن الفقراء عكس ما قاله عن اللصوص من كبار الأغنياء. لعله أدرك لحظتها كم هو غبى. ولعل عيونا كثيرة لمعت أمامه بلمحة انتصار. أما «الاستثناء» فقد عاد إلى تأمله الهادئ فى الكوب. واكتفى.

السيد «الحكومة» هو أيضا اكتفى، تململ، أحس أن الاستمرار فى جلسة كهذه لم يعد مبهجًا، قام مندفعًا، تعلق به حسنى يلح كى يبقى حتى العشاء، قال بكبرياء إن عنده موعدًا هامًا. أنا تشاغلت عنه ولم ألح كالعادة على من يغادر مبكرا.

حرص «الاستثناء» على تواصله مع الصمت. عيناه زاد تركيزهما على الكوب. كنت أتوقع أن يضحك، وأن يهلل، أو يعلق.. كيف «كبس» الحكومة. لم يفعل، فيما بعد أكد حسنى أنه مزاج العقرب، يلدغ وينزوى.

الجميع خافوا من الجميع كالعادة.. ولم يفتح أحد الموضوع، فقد تفلت كلمة، فتنقل «للحكومة» أضعافًا مضاعفة. ولعل أحدًا لم يشأ أن يفسد مذاق الانتصار على «الحكومة» - وهو أمر لم يحدث فى سهراتنا السابقة - أى حديث عنه.

ترهل الحديث، والتقط خيطه «مسيلمة الأكبر» وقرر أن يحتل الجلسة بأكملها، أو ما تبقى منها.

ومضى ليحتوى الجميع بحديث متنوع ينتقل من ساحة لأخرى، ومن سوء حظه تعثر الحديث، فاستقر عند مقال لكاتب كبير.

«مسيلمة» اعتاد أن يعتبر نفسه صديقًا لهذا الكبير، أليسوا كباراً مثل بعضهم؟ تمدد الحديث، ليقلب تربة الموضوع، وفجأة تغير مزاج الكلمات. واحد من الجالسين أومأ إلى أن «الكبير» الذى يتباكى الآن على الديمقراطية وحرية الفرد، وحقوق الإنسان وحرية الصحافة.. كان واحداً - أو لعله كان أبرز - من حفروا بقلمهم آباراً معتمة وكريهة مكنت حكم عبد الناصر من أن يدفن فيها كل مثل هذه الكلمات التى يرددها هو الآن وبحماس مثير للقرف، وأن يدفن معها كل من تجاسر على فعل أو قول أو همس بالمطالبة بها.

انتفض «مسيلمة» انساق فى الدفاع.. التوى بالكلمات، أكد أن لديه معلومات دقيقة عن خلاف وإن بسيط جداً وقع بين الكبير وبين الزعيم حول هذه القضايا، وفيما هو متدفق فى أكاذيب تحاول أن تبرر وتدعو الناس إلى الأخذ بالحاضر، وعدم محاكمة الماضى.. فجأة استدار الكوب فى يد «الاستثناء». قلت لنفسى: الليلة دى مش حتفوت، ارتفعت عيناه من قاع الكوب، اتجهت نحو عكس مكان مسيلمة لتخاطب شخصاً تبدى أنه غير موجود، كان وكأنه يحادث نفسه وإن بصوت مرتفع. كان الصوت مرتفعاً بما يكفى ليسكت.«مسيلمة» الذى لا يمكن لأحد أن يسكته.. الكلمات كانت غريبة وغير موجهة لأحد.. «يا أخى الجنرالات الإسرائيليين دول دمهم خفيف قوى». وفيما الدهشة تحيط بالجميع لهذا التغير المفاجئ ليس فى موضوع الحديث فقط وإنما فى مسلك الكامن، الهادئ، المنخفض الصوت، واصل هو الحديث دون أن يتجه به إلى

أحد لكنه كان حريصا على إرساله إلى عكس مكان جلوس «مسيلمة».. واصل قائلا «يقتلوا فى الفلسطينيين، يشربوا من دمهم حتى يشبعوا.. يرتفعوا على جثثهم، ويحصلوا على ترقيات، ويرتقوا إلى أعلى المناصب، ويصبحوا جنرالات مرموقين، وبعد أن يحالوا على المعاش، وفقط بعد أن يحالوا على المعاش ويصبحوا لا شىء يبدأون فى الحديث عن السلام، بل ويؤسسون منظمات تدافع عن السلام». ثم.. أغلق فمه، وأعاد عينيه إلى قاع الكوب. الناس انتبهوا، توقعوا كلمات أخرى. لم ينطق.. قارنوا بين الكاتب الكبير والجنرالات، واكتشفوا عمق اللدغة، أما «مسيلمة» فقد وجد بعضًا من دماء تصعد دون أن يدرى إلى وجهه فتحيله إلى أحمر. لكنه لم يعتد على تقبل الهزيمة بسهولة فسأل: تقصد إيه؟ فرد «الاستثناء» مقصدش.

وصاح «مسيلمة»: الغمز واضح، لكن الأمر مختلف. كلمة واحدة أتت من ناحية «الاستثناء»: يمكن.

قلت لنفسى: هذه الليلة مليئة بالمفاجآت، خشيت من المزيد، فأسرعت بالعشاء.

***

لكن هذا «الاستثناء» ليس استثناءً وحيداً، هناك غيره، ليسوا كثيرين، لكنهم ليسوا أكثرية.

احترت طويلا فى تسميته.. فى البداية أسميته «البرىء» لكنه ليس كذلك على الإطلاق. هو ماكر.. بل شديد المكر، يعرف كيف

يطلق قذيفة مفاجئة، وفي الوقت المناسب. ويعرف - وهذا الأخطر - كيف يبدو بريئًا ومحايدًا.

«الشجاع» هو ليس شجاعًا، ليس متهورًا مثلك، فأنت تمتلك شهوة التحدى، تتحدى نفسك كى تتحدى الآخرين، وتستمتع بها وهى تمارس التحدى، كما تستمتع بها وهى تتعرض للتحدى من جانب الآخرين. وهو ليس كما حاولت أن أسميه «صاحب الحقيقة» فهو لا يسعى نحوها، بل يتركها حتى تسعى إليه، فقط هو يتحين الفرصة وينقض، ألست أنت الذى قلت أكثر من مرة «الحقيقة أن تقال، لا أن تعلم» [قائل هذا القول هو شبلى شميل.. أنا فقط نقلته عنه]، هو صامت إزاء الحقيقة لا يقولها إلا مرغمًا، وبمحض الصدفة، لكنه يمتلك ميزة أنه يرفض كل ما يرفض الحقيقة، أو يناقضها، أو يزيفها، أو يتلاعب بها، ويرفض النفاق، والكذب، والادعاء ولو إلى حد ما، وقد لا يعلن رفضه هذا، خوفًا، أو إشفاقًا على ما تبقى من فرص محدودة، لكنه لا يسمح لنفسه أن يقبله. فإن وجد ضرورة لرفضه، أتى من طريق غير مباشر، وكأنه فريسة مطاردة تلتوى فى سيرها هربًا من مطارديها. باختصار هو وأمثاله ثمرة انتقالية بين مرحلة كان الجبن فيها هو سيد الأخلاق، بل هو الخُلق الواجب الاتباع. والنفاق فيها أمر مفروض وحتى مفترض، والانحناء قانون ملزم للجميع، هذا كله معًا أو السجن. وقليلون هم من تحدوا هذا القانون، وأنت أدرى بالثمن.. وبين مرحلة جديدة يمكن فيها قول الحقيقة ورفض الانحناء لكن الثمن أيضا باهظ.. ليس السجن وإنما

الإنكار والتجاهل والاستبعاد.. تبقى الآخر، المرفوض، لكن الرفض لا يترجم سجناً، وإنما إنكاراً وتجاهلا واستبعاداً قد يصل إلى حد الخنق.

هى مرحلة انتقالية وهم أبناؤها، دعنا نتمنى أن ينجبوا لنا جيلا آخر أكثر نقاءً وشجاعة، لكننى أعرف جيداً أن هذا لا يتعلق بهم وحدهم، بل لعله يتعلق أكثر بالحكام، الذين يُعلق فى عنقهم وزر ما هم فيه، والثمن الباهظ الذى يتعين دفعه إن حاول أحدهم التمرد.

أليس كذلك؟

المرصد

أستاذ فن النفاق فى زمان يسود فيه النفاق. أدرك منذ البداية أن النفاق لا يحقق أهدافه إذا بقى مجرد هواية، فاحترف. ونال الكأس والدورى معًا فى كل فنون النفاق.

ينافق الجميع، حتى أنهم يقولون عنه إنه ينافق لمجرد النفاق، لكن متأملا من الحالمين أشباه الأبرياء سمعنى أقول هذا الرجل ينافق الكبار والصغار والجميع.. لماذا؟ فقال: إن أى رياضة تحتاج إلى استمرار التدريب، حتى يكتسب الرياضى لياقة بدنية.. هو يتدرب كل يوم، وكل لحظة، كى يطور فى ذاته كفاءة النفاق.

يدخل عندنا مادًا يده تسبقها أهلا، أهلا، أهلا، وبعد العديد من هذه «الأهلنات»، يلتقط أنفاسًا لا تُلتقط، ويشير إلى: وحياتك يا مدام. السفرجى بس يجيب كوكاكولا، أفهم قصده فقد لقننى الدرس فى أول زيارة. نصف الكوب ويسكى والنصف الآخر غطاء من الكوكاكولا. يومها قلت له: ده نفاق وإلا إيه؟ قال وابتسامته المستعرضة تستغرق كل وجهه العريض: يعنى، قولى كده من قبيل إذا بُليتم فاستتروا، والغريب أن أغلبهم يفعلها، حتى أن السفرجى أصبح يضع الويسكى تلقائيًا على الكوكا بما أفزع أحد الأبرياء، فقال الكوكا دى طعمها غريب قوى، تغير الكوب، والحمد لله لم يفهم.

أغلبهم يفعلها، وهم جميعا يعرفون أنهم جميعا يفعلونها، على الأقل إذ يلاحظون انتهاء زجاجات الويسكى. لكنهم مع ذلك يواصلون نفاقًا مكشوفًا من الجميع.

ونعود إليه، هو كاتب صحفى فرض شهرته بنفاقه، وبأشياء أخرى.

عندما كان مبتدئًا كمندوب لجريدة غير ذات قيمة، فى وزارة غير ذات قيمة، تشبث بجميع الحبال وكتب تقارير متعددة الاتجاهات، عبقريته كمنت فى أنه كان يصوغ التقرير ليتوافق مع مزاج الذى يتلقفه، ويحشوه بما يرضيه من معلومات، فالأخطاء تتراكم فى التقارير الذاهبة إلى العدو، والإنجازات تتراكم فى التقارير المتجهة إلى صديق المكتوب عنه، وكمنت فى أنها تحولت إلى مصدر أساسى، أثارت الاهتمام بها، بما أضافه إليها من بهارات وحكايات مخترعة، وقصص من خياله.. وأصبح الكثيرون ينتظرونها. ورغم أن الوزير والوزارة لم يكونا هامين ولا عالقين بالأذهان، لكن التقارير علقت بالأذهان.

وعندما أصبح كبيراً أتقن فنًا آخر، كل الصحفيين الكبار عندنا يمتلكون ملكة التعرف على اتجاه الريح، والتجديف باتجاهها. هذه واحدة من شروط الصعود، وبهذا أصبحت معتادة ومكررة. لكنه تميز، فقرون استشعاره نبتت بشكل أكثر حساسية، فامتلك ميزة السبق بيوم أو يومين. يتلمس اتجاهات الرياح العلوية، ويضرب فيمن سيُضرب، ويعلو بمن سيعلو.

مرصده تفوق على كل المراصد الصحفية الأخرى. تفوق على الجميع، والغريب أنه لم يخطئ فى حدسه أبداً.

يستيقظ الناس لتنفتح أفواههم دهشة فسهامه ترشق وبقسوة شديدة فى صدر مسئول ما. يدهشون من هذه الشجاعة، ثم سهم آخر وثالث، ثم يذهب المسئول. ويمضى هو مزهواً وكأنه صانع التماثيل والقادر على تكسيرها، وليس مجرد مترصد لمرصد مرهف الاستشعار.

وهو إذ يترصد شخصاً ما وخاصة من متوسطى المسئولين، لا يترصده عفواً، ولا بلا ثمن، فإما أن يكون هناك ثمن ما قد دفع من مترصد آخر، أو تكون حاجة ما مطلوبة من هذا المسئول.. فيقضيها بدلا من أن يُقضى عليه.

وهو ليس ساذجًا، فلكل هجوم طريق للعودة، جمل منسقة مرسومة بغناية فائقة تتيح له عند التحاسب أن يجد مهرباً، دوما يجيد استخدام كلمات مثل «قد» و«ربما» و«بانتظار الحقيقة» ثم التعويذة الأخيرة التى تنجى من أية مهالك، «إننا نثق بنزاهة الحكم، ونثق أن أحداً لا يمكنه أن يُفلت من العقاب إن أخطأ، وندرك تماما أن الرئيس لن يسمح بأى انحراف، وأن القيادة السياسية.. سوف...، وأن معيار النزاهة هو السائد، وهو...».

وهكذا، فحتى لو أخطأ السهم وطاش، يكون المهرب جاهزاً.

أحد «البين بين» أو من أسميهم أنصاف الأبرياء أسماه يوما «رجل الأنبوب المفتوح من طرفيه»، فهو لا يدخل فى معركة إلا إذا أعد المهرب الآمن.

ليس فتى طائشًا. لقد أراق بحارًا من ماء وجهه كي يصعد. ولهذا فهو يعرف تماما كيف يتشبث بالمكان الذى وصل إليه.

إنها خبرة.. وفن، واحتراف، أليس كذلك؟ [كنت ذكية بما يكفى، فلم تسألى إذا كنت قد عرفته أم لا.. فأنت تعرفين أنه سهل جدًا التعرف عليه منذ السطر الأول].

ثم.. أنا

وطبعا كى تكتمل احتمالات الكتابة لا بد أن تعرفنى. تصور، بقدر ما أشعر أننى قريبة جداً منك، أدركت أنك لا تعرف عنى شيئًا، أنا أعرفك، فتعال كى تعرفنى.

ولكى لا أخدعك فأنا من البداية أقر وأعترف أننى لن أقول كل شىء. فلكل إنسان صندوقه الخاص، لا يفتحه إلا لنفسه، وأمام نفسه وحدها.

ولكى لا تدهش فأنا أبادر بالاعتراف.. لست أفضل من الآخرين بكثير، فأنا وهم أبناء هذا الزمان الردىء، ولكن كل بطريقته الخاصة.

المهم.. فلتكن «أب» اعترافى. لن أركع كما يفعل المعترفون أمام آباء الكنيسة، ولكن تعال لأعترف لك بطريقتى الخاصة. هناك فى أقصى حاجز الأمواج، أفسح لرأسى مسافة فوق صدرك ودعنى أتكلم.. أغمض عينى هربًا من خجل المواجهة.. وأحكى.

كان أبى فقيراً، يقطر فقراً، عامل فى مسبك، هناك فى المنصورة عندما تصعد إلى نهاية شارع المستوصف وتنحنى يساراً فى شارع سيدى عبد القادر تجد مسبك الأسطى محمود - طبعا تعرفه - أبى كان صانع نيران الأفران فى المسبك، يترك النار تلتهم المازوت، ثم

يعمل أى شيء، مشاوير، شيل ده، حط ده، هات ده، ثم يقفز إلى براميل المازوت ليمنح النار مزيداً من قدرة الاستمرار، ويمنح ملابسه وجسده مزيداً من المازوت. ملابسه اختزنت من المازوت ما جعلها تبدو منسوجة منه، وكذلك يديه، والأسطى محمود ينادى: المازوت يا على.. فيسرع إلى النار.

التصق بالمازوت حتى أسماه الناس، كل الناس «على مازوت».

والأسطى محمود رجل بخيل إلى درجة الجنون - أنت طبعا تعرف ذلك، فكل المنصورة كانت تعرفه - كان يعطيه وبالقطارة قروشا لا تكفى، وهو مع ذلك يعطيها وكأنه يقتطعها من جسده. عم على مازوت يفتح المسبك فى الفجر، يكنس، ينظف، يرش حتى الشارع، ويشعل النار، ويحمل كتل الحديد الزهر، يستنشق سموم المازوت المشتعل، والحديد السائل، وأبخرة من شتى أنواع السموم، ويستمر يدور فى الساقية روح.. شيل.. حط.. هات... حتى يغلق المسبك بنفسه، ويضع المفاتيح فى جيبه ثم يتهاوى إلينا فى غرفتنا المنحنية أسفل بيت متهدم فى عزبة الشيخ حسنين. غرفة واحدة تحتوى - لست أدرى كيف؟ - ست كائنات. يدخل مهدوداً، يجلس مهدوداً، يأكل ما تيسر، وما تيسر هو أقل القليل. ثم يتمدد حيث هو، قد يحكى لأمى نادرة من نوادر الأسطى محمود، وأكثرها نوادر عن بخله، - لم أزل أذكر حكاية أضحكت عم على وهو يحكيها - والضحك عملة نادرة عندنا، الأسطى محمود طلّق مراته الجديدة، كان يمنعها من أن تأكل قبل أن يعود من المسبك، أى تظل بلا طعام

من الصباح وحتى الغروب. عدة مرات ضربها.. أكلت قبل أن يأتى. هى تقسم أنها لم تفعل، وهو متأكد أنها فعلت، ثم اكتشفت كيف اكتشف، معه دوما شريط القياس المعدنى، يحتل جيبه باستمرار فهو أحد مستلزمات الشغل، لمحته يخرج الشريط فى الصباح ليقيس عمق الطبيخ فى الحلة، ويسجل العمق فى النوتة العتيدة التى تضم كل شىء، كل حساباته، وكل مستحقات العملاء، وكل مليم يصرفه.. وكم سنتيمتر كوسة فى الحلة.. ثم طلقها، اكتشف أنها تأكل وتضيف ماء إلى الحلة. ذات مرة بالغت فى كمية الماء، فوجد الطبيخ وقد زاد.. واكتشف الخدعة.

مع مثل هذا الرجل كان عم على ينفق عمره مقابل «حتة بخمسة» خمسة قروش كل يوم. فقط يوم الخميس ينال «حتة بعشرة» بهذه القروش كنا نعيش.. نأكل ونلبس ونذهب إلى المدرسة، ومطلوب منا أن نبدو كالآدميين.

ظهر كل خميس، وبعد الدراسة أذهب إلى أبى فى المسبك أنزوى بجوار حائط، أنتظر أبى وهو يطارد الأسطى محمود كى ينتزع منه القروش العشرة، لأسرع بها كى تعد أمى طعامًا لائقًا بليلة الجمعة.

كنت ألمح كيف يلح أبى.. وكيف يروغ الأسطى. هو سيدفع، لكن انتزاع القروش من جيبه مسألة صعبة.

وذات يوم وفيما ألتصق بالحائط وعيناى تدوران، تلاحقان أبى الذى يلاحق الأسطى، والأسطى يواصل أوامره «خلص اللى فى إيدك الأول»، دخل رجل طويل القامة، يمشى فى هدوء، اندفع الجميع مرحبين.

بـ..«سى الحاج»..الرجل جلس، وجهه يكسوه حزن متمكن من التفاصيل وكل الثنايا. أحاديث العمل تدور وأنا ملتصقة بالحائط، فجأة الأسطى محمود سأل: أخبار الأستاذ إيه يا حاج؟ زادت تجاعيد الحزن، وجاءت الإجابة واهنة: زى ما هو. وقال الأسطى: ربنا يصبركم. ولم يرد الحاج. ويتمدد الحديث عن السجن والتعذيب والشيوعية وأشياء غريبة كنت أسمع عنها لأول مرة، وعم على وجد أنه من غير الملائم بأن يطلب قروشه خلال هذه السحابة الحزينة.

فجأة، وكأن الحاج أراد أن يبتعد عن هذا الحديث التفت ناحيتى. نادانى. ذهبت خائفة. سأل: الأمورة دى بنت مين؟ ورد أبى، دى سامية بنتى. اليد الحانية مرت فوق شعرى، والعين الفاحصة لمحت ثقبًا هائلا يلتهم نصف الشراب الذى يطل من حذاء قديم جدًا، فقد اشتراه أبى قديمًا، ثم تواصل فى قدمى أمدًا طويلا، رغم أنه قد أصبح ضيقًا بصورة مفزعة.

يده تسللت إلى جيبه، وفى سرية تامة دس فى يدى ورقة حمراء كبيرة هامسًا فى أذنى: قولى لبابا يشترى لك شراب جديد وجزمة جديدة.

عشرة جنيهات. ثروة هائلة. لم أنتظر القروش المبللة بوحشية الأسطى، جريت إلى أمى. وجهت أمى دعواتها نحو أبيك، وقالت دعاء غريبا «ربنا يفك أسر ابنه».

هل عرفت؟ الحاج..أباك..والأستاذ أنت. وفيما يبدو أن

سجنك المتواصل قد امتد حتى أصبح حديث المحيطين بكم، وربما حديث المدينة كلها.

الجنيهات العشر. منحتنى مذاقًا جديداً. عرفت لأول مرة معنى أن يكون معك نقود. عرفت قيمتها. لكننى شعرت بجرح لعله لم يندمل حتى الآن.. شيء ما يجرح الكرامة. أو يوحى بحقيقة الفارق بين من يعطى.. ومن يأخذ.

ومرات كثيرة. وفيما كانت يد أبى تقبض على يدى لنعبر المسافة من المسبك متجهين نحو بيتنا، كنا نمر أمام ورشة الحاج.. وكان فى كل مرة يحكى لى عنه، وكيف أنه راجل طيب. ويحكى عنك، الشيوعية، السجن.. ومفردات عدة لم أكن أستوعبها، أو حتى أفهمها.

***

وبرغم الفقر الخانق أنمو سريعا، قالت أمى «خراط البنات خرطها» وقال أبى «البنت فارت زى زرع الجزاير» وتجادل مع أمى فى حديث طويل حول جدوى المدرسة، وأحسن تقعد فى البيت ونشوف لها جوازة تلمِّها، وامتدت حواراتهما ليلة كاملة، أنا ممددة على الحصيرة المجاورة تنازعنى الرغبة بين المدرسة والدروس، وبين الانطلاق إلى الشارع كبنات كثير من جيراننا، يلهون فى الشارع طوال النهار، ولا مدرسة، ولا مذاكرة، ولا واجبات. لكننى وحتى فى هذه السن الصغيرة تمسكت بالمدرسة، ربما ليس حبًا فى العلم، وإنما أملا فى أن أجد عملا.. وأقبض أجراً كما يفعل أبى..

لم تسمح أمى لأبى بأن ينام إلا بعد أن اقتنع بأن أواصل الدراسة، وربما أتت قناعته عبر حاجته الملحة للنوم.

وواصلت. وأسرعت بى الأيام. الإعدادية.. والثانوية.. لكن طريقى لم يتغير كثيرا، ودوما كنت أمر أمام الورشة وألمح «الحاج» جالسا فى هدوء حزين، وأسأل نفسى: يا ترى ابنه فين دلوقت؟ يا ترى شكله إيه؟.. وأتذكر جنيهاته العشر التى أسعدتنا جميعا لزمن ما، وعلمتنى معنى أن تكون معك نقود. نقود حقيقية، وليس مجرد قروش.

وأسرعت بى الأيام، وأسرعت بها.. كبرت قليلا وأدركت أنه لا أمل لى سوى التعليم، به أتخلص من مرارة الفقر ووجعه، ثمة أناس يطلبون النجاح لإثبات تفوقهم، أو يتعلمون كى تتسع مداركهم، أما أنا فأعترف لك، كنت أذاكر بإلحاح السجين سجنًا ممتدًا فى زنزانة الفقر، ويعرف أن خلاصه يكمن فقط فى نجاحه. كنت الأولى دائما، وعندما قفزت إلى المنصورة الثانوية بنات، كنت جميلة فعلا، ذلك الجمال الذى يشوهه سوء الملبس وفقر الطعام. وتكاثر راغبو الزواج، عمال فى المسبك، وكأنه ينقصنى «على مازوت» آخر. وحتى الأسطى محمود طلب الزواج منى رفضت بإصرار، وأمسكت بأمل التعليم، لكننى أعترف لك أننى كنت أمتلك طموحًا محدودًا، شهادة الثانوية العامة، وبها أتوظف، أية وظيفة تمنحنى فقط ملابس غير مهلهلة، وطعاما لإخوتى، وجحراً أوسع قليلاً من الجحر الذى ننحشر فيه بالكاد. هذا الجحر الذى ظل دومًا

يمثل بالنسبة لى صندوق الكوكاكولا.. ترص فيه الزجاجات واقفة، فإن استراحت إحداها، ضاق بها الصندوق.. شيء آخر لابد أن تعرفه فالحاج كان يجمع فساتين أختك زينب بعد أن تصبح قديمة ويرسل عاملا من الورشة. روح انده عمك على مازوت ويهرول على مازوت ليتسلم لفافة بها الفساتين مغسولة ومكوية ويقول دول علشان سمسمة، ثم يمنحه عدة جنيهات ودول علشان أخواتها، وهكذا أصبح بإمكانى أن أزهو أمام زميلاتى فى المدرسة فى غير مواعيد الزى المدرسى.

فى الثانية الثانوية وفيما البنات يتحدثن عن حلم الجامعة، كنت أصمت، كيف؟ وبكم؟ لكن حلما غريبا روادنى لو كنت الأولى على الثانوية العامة يمكن أن أصرخ، أن أبعث برسائل للصحف، أو حتى لعبد الناصر مطالبة بحقى فى مكان بالجامعة. ونسجت أحلامى بإصرار. ذاكرت، وذاكرت، وقبل أن أحصل على الشهادة الثانوية كان الحلم قد أتى إلى بدلا من أن أجهد نفسى وأبى فى الذهاب إليه. وكانت جامعة المنصورة.

حصلت على مجموع هائل، كنت الثانية على قسم أدبى، ولى الحق فى أن أختار ما أشاء من تخصص، لم أفكر طويلا، كانت أحلامى منسوجة مقدمًا، لن يغسل المازوت من جسدى وثيابى واسمى أى صابون عادى، سأدخل قسم إنجليزى عندما أتحدث إنجليزية طليقة لن يصدق أحد أنى سامية مازوت..

وتقفز السنوات الأربع سريعا وأقفز بها إلى ترتيب الأولى مع

مرتبة الشرف. رفضت أن أعين «معيدة» أريد خبزاً وليس دراسة أكاديمية. حلم المال سيطر عليّ. لكنه ظل محدوداً بمجرد مزيد من الطعام، وشقة صغيرة.. بعيدا عن كل من يعرفون «على مازوت».

وعندما أصبحت مدرسة لغة إنجليزية فى المنصورة الثانوية بنات كانت قدماى قد أمسكتا بالحلم، الحلم فى حدوده الدنيا. لكن المرتب لا يكفى.. وبدأت رحلة الدروس الخصوصية. أعترف لك وحدك أننى كنت شرهة، وغير أمينة كمدرسة، كنت أفرض الدروس على البنات، أشكو من كسلهن، أكتب لأسرهن، أضربهن أحياناً، وأحياناً أعطيهن صفراً. والنهاية معروفة.. درس خصوصى. وبدأت أخرج من المدرسة لأدور على البيوت، ثم بدأت فى تجميع عدة بنات فى مجموعة.. وعدة مجموعات فى اليوم.. وينتهى العام الأول، وفترة الملاحق لأجدنى فى شقة جديدة. متواضعة نعم، لكنها شقة، شبابيك وبلكونة وثلاث غرف واحدة لها باب على السلم. عصر كل يوم يفتح الباب ولا يغلق إلا بعد منتصف الليل. أصبحت أشهر وأشطر مدرسة إنجليزى. وربما لأننى أنشى استحوذت على دروس البنات جميعا من كل المدارس، درج مكتبى مفتوح دوما تدخل البنت تلقى فى الدرج جنيه وتجلس، وتتكوم الجنيهات حتى دفعة المساء الأخيرة وتكون عادة من الأولاد، لأكتشف أن الدرج امتلأ.

وعشنا حياة أخرى، طعام، ملابس، «عم على» ترك المسبك وترك المازوت، يلبس كل صباح جلبابه الأبيض الشفاف، كان دوماً أبيض جداً، ربما لتنتقم له أمى من أيام المسبك، يتهادى إلى قهوة أبو

إسماعيل على ناصية شارع المستوصف، شاى. وقهوة، وشاى وشيشة وطاولة.. ولا شيء آخر.

لقد اشتغل ما يكفى لأكثر من حياة كاملة، وآن له أن يستريح.

أما أنا فقد نسيت نفسى، الجنيهات كانت تستدرجنى، وشهرتى كأفضل وأشطر مدرسة إنجليزى كانت تكفى كى تتراكم الجنيهات بكثرة فاقت كل أحلامى، ووصل الأمر أن يذهب الجيران والمعارف ومعارف المعارف إلى عم على فى القهوة كى يطلبوا منه أن يطلب إلى الست الأستاذة أن تعطى ابنتهم درسًا، فتكاثر التلاميذ كان يدفعنى إلى رفض الكثير من المتزاحمين.. استولى علىَّ المال قبل أن أستولى عليه، أشبعت نهمًا تصورت أنه لن يشبع، وانتقمت من كل العذابات القديمة.. أمى اشترت ذهبًا أثقل عنقها ويديها، وأصبح اسمها «الست أم الأستاذة» وأبى انتشى بسعادة الراحة الممتدة، وإخوتى واصلوا دراستهم.. وكل شيء تمام، إلا ذلك النهم الجشع الذى ظل ينبت فى داخلى ككائن طفيلى ينمو بوتائر شريرة، ويتكاثر بما لا نهاية له..

وأتى حسنى.

كان قد أفرج عنه منذ فترة. تاب. أكد لهم، أقسم، عاود القسم أنه تاب، وتركوه لكنهم حرموه من عمله كمدرس رياضيات، وأعطوه بدلا منها وظيفة إدارية.

بعد فترة اكتشف هو أيضا هواية أو بالدقة غواية الدروس الخصوصية، ليلا ونهاراً كان يعطى دروسًا للأولاد والبنات، وبدأت

القصة بأن تبادلنا تشجيع الأولاد على الالتحاق بمجاميع بعضنا البعض، تعارفنا، تقابلنا، والجشع المشترك منحنا اقترابًا من بعضنا البعض، وتزوجنا. جنيهاته تراكمت فوق جنيهاتى لتكون ثروة حقيقية.

ثم كانت فرصة الإعارة لدبى.. هو لحق بى. وإلى هناك نقلنا وباء الدروس الخصوصية، ودبى الصغيرة عرفت اسمينا، كونى سيدة شجع الأسر المحافظة على السماح لبناتها بالحضور إلى بيتنا الذى تحول إلى مدرسة صاخبة لساعات لا تنتهى - الطلبة يأتون كل منهم يأخذ حصتين رياضة وإنجليزى. وآن أوان تراكم الدراهم. وتراكمت فعلا بصورة فاقت كل خيالاتنا. وحتى الأجازة الصيفية كنا نكتفى منها بأسبوع، ثم نسرع عائدين بعد أن علمنا أهل دبى شيئًا جديداً، أقنعناهم بأهمية تقوية الأولاد فى الصيف استعداداً للعام الدراسى، حتى نكفل لهم التفوق الحقيقى. وتدور ورشة الدروس الخصوصية بلا توقف، وعندما انتهت سنوات الإعارة - كانت معنا ثروة حقيقية.

أبى كان قد توفى، وإخوتى أتموا تعليمهم وانطلقوا فى الحياة الصاخبة، أمى لحقت بأبى، أقصى ما يسعدنى الآن أن أتذكر أنهما ماتا بعد أن خلصتهما من عذاب حياة قاسية.

لم أعد للمنصورة. لم تعد مساحتها تتسع لطموحاتنا أنا وحسنى. ومهما فعلت فالناس لا تنسى «على مازوت»، وعندما ماتت أمى ذهبت إلى هناك، سيارتى المرسيدس توقفت أمام الشقة

الأنيقة، كان كل شيء أنيقًا وفخمًا، والصيوان ضخمًا، وأشهر المقرئين قرأوا القرآن، وعدة عجول ذبحت، لكن سكينا رشق فى قلبى عندما سمعت واحدة من المعزيات تهمس فى أذن أخرى: «شفتى العز اللى عايشه فيه بنت على مازوت»؟

فى القاهرة لا أحد يعرف أحدًا. وفى القاهرة تجلت سنوات الانفتاح الأولى لتفتح صفحة جديدة من الأرباح فى أى «بيزنس»، أرباح وافرة بحيث تتبدى نهبًا وليست ربحًا كذلك الذى يتحقق من «البيزنس» المعتاد.

حسنى انغمس بأكمله فى عالم البيزنس، ما جمعناه معًا طوال سنوات الجشع المتخذ شكل دروس خصوصية، استثمره بكفاءة مذهلة، ربما بسبب مهارات شخصية، وربما لأنه بدأ مع زمن النهب الواسع النطاق، والانفتاح الخالى من الأخلاق أو أى التزام، زمن الرشوة التي تفتح كل باب، وكسب كثيراً كثيراً جداً.

هذه الفيلا التى نعيش فيها فى الزمالك كانت فوق طموحاتى، بل وفوق قدرتنا المالية - آنذاك - لكن حسنى فعلها، كانت بدايات تفاعله مع عالم البيزنس الجديد. اشتراها بقرض من البنك، الضمانات كانت وهمية، ثم قدمها لبنك آخر ضمانا لقرض جديد، لم يدفع شيئًا وإنما أخذ قرضًا وراء قرض ثم قدمها بعد ذلك طعمًا للجميع كى يوحى لهم أنه مليء، وأن أية قروض مضمونة تمامًا، كذلك فعل مع عزبة المنصورة، وفيها أيضا فيلا صغيرة وجميلة، تجاسرت فعلقت على بابها «فيلا سمسمة» هناك الجميع ينادوننى

ست سمسمة هانم، كم أحب هذا النداء المفعم بعطر أمى، لكن اسما كهذا لا يصلح للأرستقراطية القاهرية.. ذات مرة سمعت من واحدة منهن تعليقا على اسم مماثل عبارة موجعة، قالت «ده اسم خدامينى» - أى يليق بالخدم وحدهم.

فى القاهرة تعلمت الدرس المقدس.. اكذب أكثر، يحترموك أكثر. ذات يوم واحدة منهن امتدحت ذوق الفيلا وفخامتها، قلت بجسارة حسدت نفسى عليها «المرحوم بابى كان ذوقه جميل، وكان خبير فى التحف». أحد الجالسين تطوع بمعلومة سخيفة «أظن دى كانت فيلا الخواجة موصيرى».

إجابتى لم تتردد ولو لوهلة، وكأنها كانت سابقة التجهيز «بابى اشتراها منه» وربما لأغيظه ازددت كذبا «حسنى كان عايز يشترى واحدة أكبر وأفخم بس هنا ذكريات جميلة لبابى ومامى».

والآن، هل آن لى أن ألملم أطراف ذاتى، وأعود إلى ما أنا فيه من كذب وادعاء؟

أتمنى أن تكفيك هذه المعلومات.. كى تبدأ.

لكننى أعتقد أننى باعترافى هذا أقترب منك أكثر، لن تحتقرنى.. أليس كذلك؟

فأنا لم أنافق ولم أسرق، أنا فقط طويت صفحة مريرة من حياتى، أخفيتها عن الجميع حتى عن نفسى.

وحتى المنصورة كلها لم أعد أقترب منها أو أتذكرها. فقط أرحت نفسى بشراء عزبة بالقرب منها، وفيلا جميلة قلما نذهب إليها..

إنها البديل النفسى عن عزبة الشيخ حسنين حيث الجحر الرمادى اللون دوما.

أنا أمام الجميع هنا مولودة فى الزمالك، إن جاءت سيرة المنصورة: آه لنا عزبة هناك..

أعترف لك أننى مجنونة، أحيانا أخجل من نفسى، ومما أستر عن الأعين، وأتهيأ كى أعلن للملأ، أنا بنت على مازوت، أنا صنعت نفسى بنفسى، كل قرش كسبته كان مقابل قطرة عرق وجهد وتعب، أنتم لصوص ومنافقون ولكننى لست مثلكم.. آه، أعتقد لو أننى كنت فى مجتمع آخر، مجتمع غير غارق فى النفاق والتباهى والافتعال لفعلتها.

ولكن نحن أبناء مجتمعنا. أليس كذلك؟

لست أعتقد أنك ستتفهم هذه الزاوية، أنت لست مثلى، لست تريد أن تخفى شيئًا.. أنت تبدو أمام الناس كما أنت، وكما كنت، وأبوك هو أبوك لم يزل، وبيتك هو كذلك كما كان.

أما أنا فشىء آخر، وحتى لو احتمل الآخرون اعترافى، فأنا لن أحتمله، أنا لا أحتمل حتى مجرد الانتماء إلى ما كان. كان صعبًا جدًا، صدقنى يستحيل أن أحتمل حتى مجرد الانتماء القديم إليه. أو حتى تذكره ولو فى الأحلام. فالكابوس الوحيد الذى يلاحقنى هو صراعنا ونحن الستة جالسين حول الطبلية، أمى تقسم الرغيف إلى ثلاثة أقسام وتعطى كل واحد منا قطعة. كل منا يتشبث بلقمته، وكل منا يحلم فقط بأن يشبع. أن يملأ بطنه ولو لمرة واحدة.

أنت لا تعرف عدد أمواج الشجاعة التى استعنت بها وأنا أكتب هذه الصفحات، ليس فقط لأننى أفتح صدر الماضى أمامك، وإنما لأننى مع الكتابة أستشعر أننى فتحت الجرح الكامن فى داخلى وفى لحظات.. وفيما القلم يحكى، كنت أذوق طعم الخجل عندما تلاحظ زميلاتى فى المدرسة حذائى المنتهى تماما، والذى أمد فى أجله دون جدوى.. أو تلك الثقوب البغيضة التى كانت تطل دوما من الشراب.. وكنت أشعر بذلك الحنين الغامض والموجع لأن نأكل، أن نأكل أى شىء، فقط نأكل حتى نشعر بالشبع.

مهما قلت لك أيها المترف القديم لن تستطيع أن تفهمنى..

باختصار أنا أخاف.. أرتجف من مجرد أن يطل ولو من بعيد جداً، أى طيف لهذا الشبح البغيض، الكريه، المؤلم، الموجع المسمى.. الماضى.

فاعذرنى. أرجوك اعذرنى. وافهمنى. أو حتى حاول ذلك، فأنت أول وآخر شخص يهمنى، بل يهمنى جداً أن يفهمنى وأن يعذرنى.

[أفهم أى شىء إلا هذا التوتر. لماذا أنت متوترة إزاء موضوع قديم كهذا. ثم ما شأن أى أحد بتاريخ قديم لأحد آخر. حتى الأزواج - العاقلين طبعا - يعتبرون الماضى أمراً يخص الماضى وحده. وأنت لم تؤذي أحداً، فقط أغلقت صندوقك الخاص على بعض مما يخصك، ولو أنك عشت فى عالم السياسة ولو لوهلة، لاكتشفت أن ما يخفيه الناس هو أضعاف أضعاف ما يعلنون. بصراحة كنت أتصورك أكثر ثباتاً إزاء الآخرين مما توحى به كلماتك المتوترة، استقرى وامتلكى

هدوءاً كافياً فأنا أعذرك، أقدر ظروفك، أحترمك جداً. و... جداً.
عندكم دوماً سؤال فى اللغة الإنجليزية.. املأ المسافات الخالية، فهل تستطيعين تخمين الكلمة فى المسافة الخالية؟].

وبعد.. يا عزيزتى

.. لعلك لم تتركى صفحات خالية فى كراستك بغير هدف.

تريدين تعقيباً. ولك ما أردت.

هل تعرفين أن ليوناردو دافنشى وبيكاسو وغيرهما من كبار الرسامين، كانوا - أحيانا - إذ يريد أحدهم أن يرسم اسكتشاً، ينغمس فى ريشته، ينسى، يتجاوز حدود الاسكتش، ثم.. تكون لوحة ربما أجمل من اللوحات التى أعد لها أن تكون متكاملة من البداية.

أنت فعلتِها، أردت، أو بالدقة ادعيت أنك تريدين تقديم تصور أولى لشخصيات سهراتك الصيفية، لكن «الاسكتش» المكتوب تحول برشاقة إلى لوحة متكاملة.

الاسكتش خطوط للبناء عليها. وأنت بنيت وقدمت صوراً متكاملة لأشخاص تنبض بالحياة. هى كذلك كافية، لأنها مكتفية بما فيها من تفاصيل. فأنت منحت كل شخصية تحدثت عنها حيوية وحياة حتى لأكاد أراها تشتبك مع بعضها فى حواراتكم المسائية. أكاد ألمسها متحركة، آتية وذاهبة.. ونابضة بالحياة.

هو بيراندييللو - فيما أعتقد - الذى تصور شخوصاً مكتوبة وهى تتمرد، تقوم حية من الورق، تتصارع فتكمل ما لم يقله المؤلف.

أيتها السيدة بيراندياللو لقد فعلتها.

لا شك أن موهبة ما ساكنة فيك، كما أنك مغتاظة جداً من هذه الشخوص - حتى من نفسك - غيظا جعلك تختزنين فى سن قلمك كل هذه التفاصيل المحكمة الأداء..

يا سيدتى.

لست بحاجة لى. ولا لغيرى، ولا حتى للمزيد من عندك. هذه الصفحات وحدها كافية. وأخشى أن أى «تفعيص» فيها، أو «تمحك» معها، قد يفسدها، بل هو سيفسدها بالفعل. فما من إضافة واجبة منك، أو منى.

كما هى هكذا ادفعيها إلى مطبعة، وستدوى أقلام كثيرة تمتدحك، فعلاقاتك، وسهراتك، ووضعك الاجتماعى هذه المميزات كلها لن تتركك فى الظل أنت وكتابتك. والبعض الذى يكره البعض، ويحب اغتياب البعض، سيجد فى هذه الصفحات ما يكفيه ويزيد، للانتقام من هذا أو ذاك من الشخوص.

والبعض الذى يغيظه ما يغلفنا من فساد وإفساد، وحماقات، وغباوات سيجدها فرصة إذ يقدم شهادة تلك الآتية من قاع النعيم المخملى للطبقة ما فوق المترفة، صدقينى ستدوى كتابتك، ولعلها إن أتت من واحدٍ مثلى فلن تلقى ولا حتى ربع أو خمس ما ستلقاه من اهتمام إن أتت عبر أصابعك أنت، فما أسهل أن يقال إنها كلمات خصم موتور.

وأنا لا أخفى أن اهتمامى بنشر هذه الصفحات وإعجابى بها ينبع من إعجاب بك، سأكون مغفلا لو ادعيت غير ذلك أمام عينك الفاحصة

التى تعرف كيف تتناول وببساطة ما بداخلى، كل ما بداخلى، لكن كثيراً منه يأتى أيضًا من إعجاب بالكتابة ذاتها، أما إلحاحى فى النشر فأكثره آتٍ من أن هذه الصفحات تكشف أستاراً يحاول مجتمعكم أن يحيط بها نفسه، وتفضح رموزاً تتبدى أمام الناس العاديين على غير حقيقتها، فمن هذه الصفحات القليلة المحكمة الكتابة سيمكن فضح عشرات من سلبيات يتعين عليها أن تفضح، حتى يفتح الناس عيونهم على حقيقة الحقائق التى يحاول أصحاب هذا المجتمع ورعاته إخفاءها تحت أقنعة الكذب، والنفاق والتضليل الإعلامى.

انشريها أرجوكِ. إن لم يكن علشان خاطرى، فعلشان خاطر ملايين من «عم على مازوت» وملايين من بناتهم وأبنائهم..

أرجوكِ.

فقط - ولأننى لا أحب أن أكون معك أنت بالذات مخادعًا - أعترف لك بأننى لم أستطع مقاومة أن أستبقى لدى صورة «فوتوكوبى» لصفحاتك.

ربما لأنها ممتعة، وربما لأنها كاشفة، أقصد كاشفة لما يتعلق بك أنت، وربما - واغفرى لى ذلك، لأننى وجدت شيئا بداخلى يحرضنى، يأمرنى، ويفرض على أن احتفظ بشىء جميل منك.

فهل تأذنين لى؟ أم أن هذا كثير علىّ؟

***

فى صباح الغد كنت الذى يحمل الكراسة الوردية، كانت متلهفة على التقاط رأيى فيما كتبت، سلمتها الكراسة مطوية..

حاولت أن تفتحها بعد أن قلت لها إننى كتبت رأيى، لكننى ألححت عليها ألا تفعل فى مواجهتى. نفس الإلحاح الذى سكبته هى بالأمس وهى تمنعنى برفق ودلال من أن أفتح الكراس عندما أعطته لى. لكن الفارق كان فاضحاً بين إلحاحى الخشن والمتوتر، وبين إلحاحها المفعم رقة وعطراً.

جلسنا فى مكاننا. أمسكت بيدى وقالت..

- حتوحشنى.

- ليه ناويه تطردينى من مارينا.

- أنت نسيت أننا فى سبتمبر ولازم نرجع؟

- بلاش نفتكر.. مش فاضل شوية أيام؟

- لأ.. بكره سهرتنا الختامية. وبعد بكره الفجر إلى القاهرة، وهناك لا أنا ولا أنت نعرف كيف سنلتقى.

عادت «لو أن» تحلق بعد اختفاء استقر لعدة أيام، بينما هى تواصل.

- طبعا حنشوف بعض. تزورنا. نزورك. نتقابل فى النادى.

كان يعرف أن كل هذا وهم. فلا وقت، ولا مساحة تسمح بذلك، ولا إمكانية للفرار من «لو أن» ولم يشأ أن يخدعها.. ترك «طبعا» التى ربما تطمئنها أو تطمئن نفسه معلقة دون إجابة.

لكنها بدأت رحلة إلحاح حاسم.

- لازم تيجى بكره تسهر معانا، حتشوفهم كلهم. كمان لازم تشوف بيتى والولاد - وبعد فترة صمت أضافت - وحسنى.

ألحت. وأعادت الإلحاح، هو كان لم يزل مترددًا، طوال حياته تجنب مثل هذه السهرات، لا يحبها، ولا من يحضرونها يحبونه، ولا هو يحبهم. راوغها. ووعدها أن يفكر.. ألحت.. «علشان خاطرى» «أرجوك» ووعدها أن يفكر..

ويأتى الغد.. وتأتى. كان طيف حزن يلح على وجهها الذى اعتاد منه أن يكون مشرقًا، أمسك بيدها، كانت غير تلك التى اعتاد أن ينعم بملمسها كل صباح. شيء ما تحس به ولا تجد كلمات تفسره بها. هل هى نبضات مختلفة، أم رائحة خوف، أو توتر. جلسا مكانهما، سألته دون مقدمات..

- ناوى تحضر السهرة الليلة والا مش عايز؟

جاءت الكلمات واهنة، تحمل نبرةً خفيفة تكاد تطفئ كل رغبة فى حضوره، تذكر العبارة التى اعتاد أبناء المنصورة أن يكرروها ضمن مزاعمهم عن أبناء دمياط «عايز تتعشى والا تنام خفيف أحسن؟».

لفحته هذه اللمحة الواهنة فى صوتها، لمحها وعيناها هناك، بعيدًا إلى ما لا نهايات الموج، وقال ما كان قد أعده من قبل. لكن ما قاله لنفسه منمقًا منسقًا ومقنعًا، ما لبث أن انفرط، ولم تتبق منه غير كلمات مشفقة، فهو لم يرها هكذا أبدًا. وأتت كلماته واهنة هى أيضا.

- أنا ما أحبش أبقى ضيف ثقيل الظل. وأنا لم أعتد أبدًا على هذه السهرات، وجودى سوف يدفع الكلمات إلى حلوق أصحابها

فلا ينطقون إلا كلمات رسمية، وستفقد جلستكم بهجتها ومذاقها.

كانت عيناها هناك، بعيداً، بعيداً جداً. وصوتها آتٍ وكأنه يأتى من مكان آخر، لكنه خافت وحزين.

- حسنى تقريبا قال كده.

- نبقى بنفكر زى بعض.

- لا..

قالتها بعصبية لم أعهدها فيها.. واستمرت.

- أنت خايف علينا، وهو خايف على نفسه.

وانزاح الغطاء الحزين الذى كانت تكسو به الكلمات، وقالت ما لم تكن قد استعدت لقوله، أو ربما ما قررت ألا تبوح به..

- طول الليل بنتخانق علشانك، فجأة اكتشفت أنه يكرهك. هو تصور طوال حياته أن هناك طريقان.. أن تساير هؤلاء المنافقين وأن تفعل ما يرضيهم فتصعد وتصعد وتصبح واحداً منهم، وإما.. الضياع. أنت رفضتهم ولم تضع.. هذا تصورى. فأنت تظل الشبح المؤلم الذى يطارده. ولهذا يكرهك. وهو يخاف منك، ومن أن يحسب عليه يوما أنكما تعرفان بعضكما البعض، لم أكن أتصور أنك شائك بالنسبة لهم إلى هذا الحد، ألححت عليه، وبسماجة شديدة رفض. حجته كانت كريهة سيسألون تعرفه منين؟ هل مطلوب منى أن أحكى لهم قصتى القديمة، أم أعود بقصتك إلى المنصورة، جرحتنى هذه الكلمات، أنا أفعلها دون أن تؤلمنى، أو هى تؤلمنى ألماً خفيفاً، أما إن أتت منه فهى موجعة. استمر على رفضه

رغم إلحاحى.. قال: سيفسد علاقاتنا بمن بذلنا سنوات من التعايش معهم، بأمل أن نصبح منهم، ونتعامل معهم.. ونكسب من هذا التعامل. كلمة «نكسب» أتت وحشًا نهمًا ذا فم قبيح. ورفض بشدة أن يعرف أحد أنه يعرفك، أو أنك تعرفه.

- سينكرنى أحدكم ثلاث مرات قبل أن يصيح ديك.

نطقتها لا أدرى كيف. ولا لماذا؟ وكأننى أحدث نفسى.

هى سألت:

- إيه ده. أنا أول مرة أسمع العبارة دى..

- دى آية من الإنجيل. قالها السيد المسيح قبل أن يأخذوه. أكد أن واحدًا من تلاميذه سوف ينكره، ويقول ثلاث مرات لا أعرفه، قبل أن يطلع الفجر. وقد فعلها أحدهم. هل تتصورين أن الذى فعلها هو بطرس الرسول.

قاطعته بحدة، صوتها كان حادًا، لكن عينيها غابت بعيدًا.

- حسنى ليس بطرس الرسول، لعله يهوذا أو حتى أسوأ. لقد باع كل شىء مقابل دراهم.

- هو زوجك.

- نحن شريكان فقط. فقط شريكان..

كانت الكلمات حاسمة كمطرقة، لعلها كانت تؤكد لنفسها ما كانت توهمت أنها نسيته.

- مجرد شريكين. طلبة الإنجليزى يأخذون دروس رياضة، وطلبة الرياضيات يأتون إلى. ثم جنيهاتى فوق جنيهاته، والآن ملايينى مع

ملايينه. إنها مجرد شراكة. وهى شركة بالمعنى الدقيق، فلوسى لوحدها وفلوسه لوحده، وله نسبة للإدارة.

سألتها وأنا أكاد أغيب مع عينيها.

- والحب؟

- لا يوجد.. ولم يكن. من البداية كان الأمر مجرد دروس مع دروس، وجنيهات فوق جنيهات، وتصورت أن الحياة يمكنها أن تبقى هكذا، أمس فقط اكتشفت أنها شراكة مريرة.

ومضت وكأنها تحدث نفسها: المال أفسدنا. أنا أحببت المال ولم أزل أحبه، ولكن ثمة حدود، هو لا يعرف الحدود.

حاولت أن أقلل من وطأة إحساس مرير كان يتدفق من ملامحها.

- زوجان، شريكان، لا بأس، هى علاقة محترمة على أية حال.

- من قال إنها محترمة بإرادته. هو أراد لها أن تكون غير محترمة، لكننى ما إن لاحظت عينه تلتقط نظرات شائكة من واحدة كان يسيل لعابه عليها، حتى ألزمته الأدب قلت بصراحة: غش تجارى ممكن، غش للمصارف مقبول، لكن تغشنى أنا.. لا.

وتعاهدنا - لعلها معاهدة ذئاب لا تنهش بعضها - لا غش. وأنا ملتزمة. للأسف ملتزمة. وأعتقد أنه ملتزم. هو جبان. كلهم جبناء. يرتعبون من غضب الزوجات. زوجة «الحباك» علمتهم الخوف، تخون زوجتك فتفضحك، وتبلغ النيابة عن ثرواتك المخبأة، والمهربة، وعن التلاعب مع البنوك، والقروض المضروبة، صفقات الفساد. وهكذا تعلموا جميعا الخوف. خوف وليس شرف.

أحسست بالمرارة تحيط بها، أردت أن أعيد الموضوع إلى حجمه الأول.

- أخشى أن تكون مسألة حضورى هى السبب فى كل هذا التوتر.

صمتت ولم تجب، ثم قالت:

- السبب شىء آخر.

- هل يمكن أن أعرفه.

- ستعرفه يوما ما.

- متى؟

- عندما أمتلك قليلا من الشجاعة.

- أكثر من كده.

- الشجاعة أنواع.

- وأى نوع تريدين؟

- ذلك النوع الذى يسمح لبقعة الضوء الجميلة أن تتكامل فتصبح زهرة.. تمتلك كل ذاتك، وتحتويك تماما..

- مش فاهم.

- أنت فاهم كويس أنا أقصد إيه، بس زى أى راجل نفسك تسمعها منى.

بدأت دقات قلبى تعلو.. تعلو. أسمعها، ولا بد أنها تسمعها هى أيضا. ولم أجد ما أقول، ألم أقل من البداية أننى لست مدربًا.. وقلت.

- أنا مش زى أى راجل، أنا فقط لست مدربًا. أنت تأتين هكذا كأنك تلقين ببذور الورد فى صحراء بلا قطرة من ماء.

- ثمة زهور تنبت فى الصخر.

قالتها ونهضت، وكأنها غاضبة، نهضت متثاقلا، جذبت يدى بشدة وفيما أنهض أخذتنى فى أحضانها، منحتنى قبلة. وهمست: نفسى أقول لك إنى بحبك بس مش قادرة..

قالتها وضحكت بصوت عالٍ يكاد يوقظ من لم يستيقظ من سكان هذا المكان.

وفيما نسير صامتين، الكلمات كلها، كلماتى وكلماتها تجمعت معا وهربت، تركتنا صامتين.

من جيبها أخرجت علبة فضية صغيرة، منقوشة نقشًا أنيقًا. وقالت:

- أنا مسافرة بكره. ممكن أسيب دى معاك؟ هى أجمل ما أمتلك.

- هى وديعة إذن، وليست هدية.

- خليها معاك وخلاص.

- ممكن أفتحها؟

هى أخذتها وفتحتها. أخرجت منها صورة صغيرة لفتاة جميلة وحزينة وفقيرة تكاد تقول أنا جائعة.

المريلة، الشعر ضفيرتين وشريط فى كل منهما. الصورة قديمة وباهتة. صورتها للشهادة الإعدادية، تأملتها طويلا، وكأى شخص

غير مدرب حاولت إعادتها إلى مكمنها. هى أخذتها من يدى تأملتها هى أيضا، وقالت:

- كنت حلوة. مش كده؟

- انتى لسه حلوة.

- قلت لك إنك منافق.

أدارت الصورة نحوى لأقرأ ما كتبته على ظهرها بخطها الجميل الذى يشبه نقشا لفنان مبدع:

«إليك.. لأنك وحدك منحتنى الإحساس

أننى.. أنا..

سامية على مازوت.

ولم نجد ما نقول..

تبادلنا أرقام الموبايل. ألحت أن نتكلم. وأن نلتقى.

فتح فمه ليقول شيئا غير مفهوم، لكنه نبهها إلى أن أذنا ما قد تصغى إلى ما يتبادلان من حديث تليفونى.

وافترقا.

بعد خطوات التفتت وأشارت بيدها. كانت يدها تمسك بمنديل صغير، لعله تلامس مع وجهها ليخفى دمعة.. أو هكذا خيّل إليه ادعاؤه.

***

رفض الصباح أن يأتى، تلكأ، بل هرب. تأمل عقارب الساعة، هى ترفض أن تمضى. وبعد مماحكات أمضاها يقظًا، قلقًا ومتوترًا نهض ليتابع طابوره اليومى.

الشمس رفضت هى أيضا أن تنهض. أسدلت ستائر سوداء حول مخدعها. لم يتجاوز الطريق الأسفلتى، لم يجد مبرراً. الرمال الرمادية تترامى متهالكة بلا مذاق، والأمواج كلها تذهب، تذهب ولا تأتى أبدا. كل شىء تغير.

غريب هذا الأمر. كانت الدنيا جميلة بذاتها كل صباح، ثم معها أصبحت أكثر جمالاً وبهاءً، وإذ افتقدها فقدت الدنيا كل متعه، لم تعد إلى ما كانت، تلاشت منها كل بهجة.

وفيما يتشاغل عن حزنه بالسير سريعا دق الموبايل.. رنينه أزاح الأستار عن الشمس فأتت كما اعتادت، والرمال استعادت لونها الأنيق، والموج عاد يأتى ويذهب.

- آلو.
- صباح الخير.
- صباح النور.
- ماشى على الرمل.
- لا..
- توقعت كده.. وخشتنى.
- وإنت كمان.
- إحنا مسافرين دلوقت - حبيت أصبح عليك، أظن من حقى.
- طبعا.
- خلاص استنانى كل يوم الصبح.
- ياريت.

- باى، باى.

ذهبت، فذهبت مارينا، كانت الشبابيك المغلقة تكتسى بغطاء من النايلون لتحتمى به طوال الشتاء، أحس أن مارينا تلفظ آخر ما تمتلك من أنفاس.

خطاه أسرعت. لم يبق من مبرر كى يبقى. فى السنوات السابقة كان يترك الجميع يرحلون. ليستمتع وحده بها كعاشق تغلفه الغيرة ويريد الانفراد بمحبوبته.. الآن هى رحلت فلم يبق للمكان مذاق.

وتركها هو أيضا.

من الآن.. اعتاد كلما التقط أول قطرة من مذاق القهوة الصباحية فى الساعة الثامنة أن تضيء غرفة مكتبه بعطر رنين «الموبايل». يرهقه أزيز التليفونات الذى لا ينقطع. لكن لهذا العطر الصباحى مذاق خاص..

هى كالمعتاد.

- آلو.. صباح الخير. ينطقانها معًا فى صوت متداخل، وتشرق ضحكتها المبكرة مع هذا التلازم الصوتى.. ثم.

- وحشتنى تمتزج مع وحشتينى، ومعهما ضحكة أخرى تزيد الغرفة عطرًا.

ثم كلمة أو كلمتان.. أخبارك إيه؟ صحتك تمام؟ ابنها عنده أنفلونزا لكنه، الحمد لله بقى كويس، ابنتها اشترت عربية جديدة، وثانى يوم كسرتها وكسرت معاها عربيتين تاينين. دلع بنات بأه. أبوها مدلعها..

ومع أى تجاوز لحدود الكلمات المباحة ينطق هو: أخبار نمرة ثلاثة إيه؟ فتتضاحك ساخطة، حتى ده ممنوع؟ [لقد حذرها إذ كانا يتبادلان أرقام الموبايل وهما يطويان آخر مسافات الرمال المارينية من أن أذنًا ثالثة ستصمم أن تدس نفسها بين أذنيهما].

وأصبح الحديث اليومى الذى قد لا يستمر ما يكمل دقيقة، زادًا يوميًا لا يكتمل مذاق القهوة إلا به، ولا يمكن لليوم أن يسجل لحظة

ابتدائه بدونه.

أبداً لم يطلبها هو. هى لم تشك من ذلك ولم تحتج، حتى عندما تأتى كلماتها فى وقت غير ملائم ويقول لها إنه سيطلبها فيما بعد.. ولا يفعل. لم يعرف بم كانت تبرر ذلك لنفسها، لكنه يعرف أنه يحتاج إلى مكالمتها. وينتظرها كى يبدأ يومه ببدايتها.

ذات صباح أيقظه العطر فى السادسة صباحاً.

- كل سنة وأنت طيب. حبيت أكون أول واحدة تقولها لك.

واكتفت بذلك. تذكر. اليوم عيد ميلاده. تمنى أن يكون عامه بسعادة هذه اللحظة.

لكن فنجان القهوة لم يأت وحده - فى ذلك اليوم الذى بدأ مبكرا - فتاة أنيقة، جميلة أتت حتى قبل القهوة لتقدم له لفافة توحى بأن شخصاً ما قد اهتم اهتماماً فائقاً بأن يصوغ غلافها بجمال وأناقة.

إجابة على نظرة متسائلة قالت: سامية هانم بتصبح على حضرتك وبتقول لك كل سنة وأنت طيب.

اللفافة الأنيقة تحتوى على قلم من الذهب.. وخطاب.

آه.. كلماتها هى الأهم.

فكر فى أن يطلبها ليشكرها، لكن شوقه لكلماتها دفعه نحو الخطاب أولا..

رنين العطر سبق أصابعه التى كانت تحاول فض غلاف يتمتع بلونهما السماوى الجميل.

كانت هى..

واندفعت منه كلمة.

- شكرا.

- كل سنة وأنت طيب. أنا النهارده عندى حالة جميلة. من الفجر صحيت. عم أحمد الجناينى ملأ الفيلا بالورد. عيد ميلاد سعيد، وعقبال ميت سنة.

نسى أن يكرر شكره لها وأسرع سؤال ظل عالقًا معه منذ ناولته تلك الفتاة الأنيقة لفافتها.

- مين دى؟

- دى سكرتيرتى.

- بتعملى بيها إيه؟

- حاجات كتير قوى. انتو بس اللى ما بتعرفوش.

- صحيح بتعمل إيه؟

- كل حاجة. تصحينى فى المواعيد، تشغل كاسيت هادى فيه جملة جميلة من «الدانوب الأزرق» تحضر القهوة، وتجيب الفطار، تعمل مساج، وتطلب لى التليفونات، وتاخد المواعيد، وتفكرنى بمواعيد الكوافير والمانيكير ومصممة الأزياء. وتراجع مجلات الأزياء الإيطالية والفرنسية علشان تشوف الألوان والموديلات الجديدة. تحضر الحمام، تعمل لى المكياج وهى أيضا كاتمة أسرار نموذجية. شفت بأه حاجات كتير إزاى.

كنت ساهما ومندهشا، سمعتها تقول:

- إيه أنت فين؟

- أنا أهه، بس كنت بفكر فى المسكينة اللى بتعمل كل ده. وبالمناسبة بتاخد كام فى الشهر؟

- ثلاثة.

- ثلاثة إيه؟

- تلات آلاف.

- بس؟

- بتتريق حضرتك؟ فيه زيها بياخد أكثر، ولازم تعرف أن لها سكن على حسابى، وليها بدل ملابس علشان تلبس شىء لائق بينا.

- مسكينة.

- برضه بتتريق يا فلاح يا بتاع المنصورة، دى خريجة الـA.U.C [الجامعة الأمريكية] وبنت لذيذة جداً.

ساعتها فقط أحسست بعمق الهوة بيننا، وأحسست بحجم الكارثة التى تحاصرنا من محدثى النعمة الذين يتبارون فيمن يكون أكثر سفاهة، وأكثر جنونا من الآخر.

وذهب عطر المكالمة، وبقى عطر الكلمات.

بما يشبه الجنون قرأت رسالتها . .

يا . . .

وطويلا فكرت ، بحثت عن كلمة أنت تستحقها ، أو هى تستحق أن أناديك بها . وتتابعت حيرتى مع كل اختيار ، ثم تركتها كى تخمنها أنت . فقط . أرجوك ، ضاعفها عشرات المرات .

كل سنة وأنت طيب . أمنياتى لك بغير حدود . ليس فقط من أجل أنك تستحقها ، وإنما لأننى أحتاج أن أستمتع بها فى ظلال متعتك .

فكرت طويلا فى هدية أختارها لك . أنتم أيها الرجال متعبون . احترت ، وأخيرا اكتشفت أن كلماتك المنشورة هى آخر ما يتبقى لى كى أتعلق به .

مكالمتى التليفونية لا تكتمل دقيقتها الأولى . أما كتاباتك فأرتبط بها ومعها لساعات ، وأحيانا أعيد استمتاعى بها عدة مرات . وبهذا يكون القلم أملا فى مزيد من زاد تمنحنى إياه بكتاباتك . اتفقنا .

هناك أشياء كثيرة فكرت لأيام فى أن أسكبها من قلبى على الورق . ها هى تهرب منى . كم هى متعبة هذه الكلمات ، أحيانا تهطل عليك ، ترتبها ، تتزين بها ، عندما تحتاجها تهرب منك

وتتركك حائراً. وأنا حائرة الآن فعلا، فأنت لا تعرف ماذا فعلت بى.

أعدتنى إلى سنوات المراهقة بعد كل هذا العمر. لعلك أيضا تفعلها. هل تعرف؟ لا أنا ولا أنت عرفنا هذه الأيام التى يقولون إنها مميزة. أنا كنت أحلم بمجرد رغيف كامل ألتهمه كما هو دون أية إضافة، وأنت كنت محاصراً بهموم وعذابات السجن. الآن ومتأخراً جداً تأتى هذه الأيام الحميمة. لا أقول تعود. كيف تعود ولم تكن قد أتت أبداً!

ترى كيف تعيش لحظات المراهقة هذه؟ أعرف أنك قادر على أن تطوى نفسك داخل نفسك بحيث لا يرى منك أحد أى شىء، أما أنا فأكاد أجن. لو رأيتنى الآن ما عرفتنى. فساتينى تغيرت وتغير لونها أصبح أكثر شباباً أو حتى طفولة [تذكر أنه لم يرها أبداً فى ثيابها الأرستقراطية.. ففوق الرمال لا شىء من ذلك يصلح] أقفز كما لم يحدث لى من قبل، ضحكاتى تترامى أصداؤها فى دوائر أوسع وأوسع، سعادة جنونية تغمرنى عندما أستشعر قرباً منك، وشوك موجع يغلفنى عندما أكتشف أنك بعيد جداً، جداً، وأرجوك أن تضيف مائه «جداً» أخرى.

لكننى أعرف أن هذه هى حدودى، وأنا راضية بها، وسعيدة بذلك. فلن أكون أبداً عبئاً على اختيارك الصارم، فقط لا تحرمنى من دقيقة الحنان الصباحية [إنها تتقن الآن فن «لو أن..»].

وسأظل دوماً مدينة لك بهذا الوافد الجديد إلى قلب ظل جافاً

طوال عمره ثم اكتشف أن ثمة ورود قادرة على أن تطل من ثنايا جدرانه الصلبة، أو التى كانت صلبة.

اعذرنى، أطلت عليك. أخذت الكثير من وقتك المفعم بالضجيج. لكنها مرة فى العام، أتمنى أن يتاح لى أن أفعلها مرات ومرات.. وعقبال ميت سنة.

سامية

وامتد رحيقها اليومى يظلله كل صباح ليمنح حياته مذاقًا جديداً لم ينله فى الأيام القديمة، أيام ما قبل النعيم المارينى.

وأتى يوم، ثم عاد فتراجع.

أتى. لكن الثامنة لم تأت.

ذهب إلى مكتبه كالمعتاد. متعجلا كالمعتاد طلب القهوة. وفيم يلتقط الرشفة الأولى التقت عيناه بالساعة المعلقة أمامه دومًا دون أن يلحظها. الثامنة وخمس دقائق. انتظر، ثم نظر إلى الساعة.. وست دقائق. عاندته تلك اللعينة، منعت عقاربها من الحراك، تباطأت. ركز أنظاره عليها. نسى نفسه، ركز كل حواسه فى عقارب لا تمشى، استعان بساعته، هى أيضا لا تتحرك. كل الساعات تتآمر ضده: ترك القهوة فى انتظار ما لا يأتى.

تشاغل عن كل شىء، بأى شىء. لكن وخزات ظلت تقلقه. الموبايل لم ينطق. وحتى عندما نطق وانقض عليه مستجمعا كل ما لديه من عتاب، لم تكن هى، بل كان واحداً من هؤلاء الذين يزعجون ساعاته الصباحية بمشكلات تافهة. الآن أحس أن كل الساعات تسرع بأكثر مما يجب، يجب أن تنتظرها.. لكنها لا تفعل.

انغمس فى أعمال كانت تبدو مهمة، لكنها الآن أصبحت غائمة وبلا مذاق. أخيراً سكب عينيه نحو الساعة، كانت تخرج له لسانها فهى الآن التاسعة وأكثر. والبهجة لم تطل عليه بعد من شرفة الموبايل.

أتاه زوار، تشاغل معهم وبهم، كلماتهم كانت تتطاير بلا معنى. هو منشغل بانتظاره، بينما هو يتشاغل بهم عن هذا الانتظار.

اقتحمه عمل اليوم المتراكم. تداولته دوامات اليوم المرهقة، كان قلبه يفلت منه ومنها كى يطل نحو الساعة.

إنها الحادية عشرة. وهى لم تأت عبر الموبايل. اعتاد على عطرها اليومى. تآكل قلبه من القلق. ماذا حدث لها؟

نهبته عدة أفكار، آخرها أنها لم تعد تهتم بهذه الثوانى المفعمة بالعطر.

أمسك الموبايل. أغلق باب غرفته كى ينفرد بنفسه معها ليعاتبها. طلب رقمها. ذلك الرقم الذى لم يطلبه أبداً، كان معتمداً على عطائها هى. مجرد دقة واحدة، أصبع متربص كان بانتظارها. ثم «تك». وأغلق الطريق العطرى.

هذه المسافات التى كانت تتبدى فى أقل من خطوة، تباعدت، اتسعت، وامتدت إلى مسافات غير مرئية.

طلب الرقم مرة أخرى. أتت تلك العبارة السخيفة المسجلة بلا مسام ولا إحساس «الهاتف قد يكون مغلقا أو خارج نطاق الخدمة». هى أغلقت نوافذها فى وجهه.

تنازعته مشاعر تتراوح ما بين الغضب، والخوف، والعتاب. قلبه هذا الذى اعتاد أن يكون جافًا، وألا ينحنى خوفا من أن ينكسر، انكسر من فرط انحناء داخلى لم يشعر به أحد ممن يحيطون به.

غلفه حزن مستتر. واكتسى الوجه المغلف بجدية هشة، بألم

بـاطنـى لا بـد أنه يـنـعكس أمـام من يـدقق لـيـرى الـفـارق بـين ملامح الأمس، وملامح اليوم.

إنه الفارق بين يوم يبتدئ، ويوم لا يأتى.

ومضت أيام، كان يرتل فيـها كل ما اعتاد من انشغال لا ينسيه ما يشغل قلبه من وساوس.

آلاف المرات فكر فيها. أن يطلبها بالموبايل. أن يذهب لزيارتها. أن... وأن... لكنه ألزم ظهره إلى الحائط القديم.

برز عنده نتوء الكبرياء المعتاد. إن أرادت هى.. فلتفعل.

ولم تفعل.

وبعد عشرة أيام أو أكثر قليلا. أتت ذات السكرتيرة الأنيقة. تركت فى يده المتلهفة رسالة محكمة الإغلاق.

يا سيدى

... أرجو أن تأذن لى بهذه البداية. فالآن، وبعد كل ما كان، توقفت حيرتى إذ كان القلم يتجول بين عديد من البدايات التى كنت أحاول أن أعبر بها عما منحتنى إياه من سعادة وانتشاء خلال سويعات المراهقة الرقيقة المذاق. الآن أعرف أننى لا أستحق أن أناديك بأى منها. أعرف أننى لا أستحق، وأعرف أنك تعرف - وخاصة بعد أن تقرأ رسالتى هذه - أننى لا أستحق. تكون «يا سيدى» إذن هى أفضل بداية.

فأنت تستحقها. وربما أراحتنى، فهى قد تحمل معنى الابتعاد. فها أنا بعيدة جداً مكاناً وزماناً ووجداناً. ما كان فى الأيام الماضية أبعدنى جداً عن أى حق لى فى أن أقترب من ملكوتك. وربما تمتلك بعضا من معنى الاحتماء. أن أحتمى بك وأنا بعيدة جداً، أحتمى بك مما سيكون، ومن نفسى، وما تفعل. أو هى تعبر عن طموحى فى الارتماء نحوك.. أركع كما يفعل المسيحيون المخلصون وأعترف. وإذ أكتب لك الآن أشعر بقيمة الخلاص النفسى إذ تجد إنسانا تعترف له بخطاياك. تعترف وهو يفسح لك صدراً حانياً لا يغضب، ولا يعاتب ولا يستهجن.

وسواء كان الأمر ابتعاداً، أو احتماءً، أو ارتماءً فإننى أرجوك أن

تستمع فى ساعة صفاء إلى أغنية وردة «يا سيدى». أعرف أنك لن تفعل خاصة بعد أن يكتمل اعترافى بهذه الرسالة.

وأعرف أنك غاضب منى. أرجوك اعذرنى، لم أكلمك لأننى لم أشأ أن أدع أية فرصة لعبارتك التى كانت توجعنى خلال جولاتنا المبكرة فوق رمال مارينا، «لو أن...»، كنت أعرف ما أفعل، وأعرف أنك يجب أن تبقى بعيداً عن أى تلامس معى. فأنت يجب أن تبقى أمام الجميع وأمام نفسى نقياً من كل ذلك.

وآه لو تعرف كم آلمتنى لمسة الأصبع على الموبايل.. قرأت رقم تليفونك على الشاشة، قلبى كاد أن يقفز، فطالما تمنيت أن تفعلها يوما، حتى يوم عيد ميلادى لم تفعلها. بل لم تتذكره أصل إلا فى اليوم التالي. وببراءة لا يمكن أن تقبلها منك امرأة غيرى اعتذرت بأنك نسيت. قرأت رقم تليفونك على شاشتى، وفيما أقفز نحوك، جذبتنى بعيداً عبارتك الصارمة والموجعة «ماذا لو أن...». وأغلقت التليفون، مغلقة أمام نفسى آخر أبواب الضوء، وآخر نوافذ الأمل.

الآن.. أكتب لك من بعيد جداً. فهل تجد وقتا كى تستمع إلى..

لأسابيع تبدى حسنى مرتبكا ومهموماً، وأحيانا كان خائفاً ومرتعباً. كان صوت صراخه فى التليفون يفزعنى، سألته. لم يقل شيئا. ثم، وبهدوء تدريجى بدأت أعرف هموم شريكى. إمبراطوريته توشك أن تتهدم. فى البداية تلاعب بالبنوك، اقترض واقترض، وواصل الاقتراض، وأقام أنبوباً ثابتاً يوصل بينه وبين بنك فرنسى، الجميع يهربون بأموالهم إلى سويسرا، هو اختار فرنسا،

ربما لمجرد التمويه، وربما لأنه كان يعشق أن يقفز إلى باريس عشرات المرات كل عام.

الأموال تقترض من البنوك لتمر أو بالدقة ليمر كثير منها عبر الأنبوب. ونحن ننفق بجنون لنغطى كل جراح الماضى، ونغطى هذا الاقتراض الدائم والمتجول بين بنوك عدة، بمظاهر تؤكد الامتلاء المالى.

كنا نتصور فى البداية أن بإمكان ثلاث أو أربع قرى سياحية، ومصنع صغير - وهى جميعا مرهونة لأكثر من بنك - أن تغطى متطلبات البنوك من فوائد. وأن الحفلات والهدايا.. وما فوق الهدايا يمكنها أن تمرر قروضا أخرى، وأن تؤجل سداد الفوائد إلى أجل لا نهاية لامتداده.

ثم حدثت أشياء لم أفهم الكثير منها لا أنا ولا حسنى، فقد عبرنا نحو عالم الاقتصاد من بابه الملكى، باب السهرات والحفلات، وليس باب الإتقان أو المعرفة بمتطلبات الوضع الاقتصادى. وكنا نلوك كلمات تتردد أمامنا دون فهم حقيقى لمعناها أو تداعياتها.. ركود، نقص سيولة.. تضخم... إلخ. وكانت الحكومة تبدع كل يوم ألفاظًا تحاول أن تخفف بها من آثار أزمة خانقة، ونحن نبدع فى تكرارها بلا فهم حقيقى.. وانسقنا حتى اختنقنا.

بالدقة نحن لم نختنق. فكل أموالنا هناك بعيداً، وكل ما هو باقٍ هنا لا يساوى ولا حجر واحد من أكوام ما اقترضناه، وآن لهذه اللعبة أن تتوقف. البنوك تتشدد، وربما لأن يداً تشددت فوق أعناق رجالها. وآن لنا أن ننكشف.

حسنى - وفجأة - اكتسى بنشوة غريبة. حفلاتنا تكاثرت، ضيوفنا ازدادوا عدداً. تنوعوا. همس أحد رجاله فى أحد البنوك أن ضباط الأموال العامة يتأملون حالته. ارتمى بحماس نحو شباكهم، وأوقعهم فى شباكه. دعاهم إلى سهراتنا وناقش أمامهم وبحماس مثير، مشروع العمر.

كان شاب مسكين قد أعد دراسة جدوى عن استصلاح مزرعة صغيرة فى سيناء ثم تصنيع منتجاتها.. وتصديرها مصنعة ومعلبة إلى دول الخليج. رمى حسنى هذه الدراسة المرفقة بأرقام ولوحات بيانية فى واحدة من سلال مهملاته العديدة، الآن تذكرها، لكنه - وقد أدرك - أن مشروعاً فى توشكى يُسيل لعاب الجميع، جعل الدراسة عن زراعة مائتى ألف فدان فى توشكى، وأوهم الجميع أنه يمتلك شركاء فرنسيين.. فأسال مزيداً من اللعاب، حتى أن وزراء بدأوا يتداولون أخبار الموضوع، الذى سينقذ المشروع «القومى» من حالة النسيان التى تخيم عليه. والذى سيأتى باستثمار أجنبى يصلح كمادة للدعاية.

تحولت سهراتنا إلى حديث عن الصلصة، والكاتشاب والمربى والثلاجات الضخمة، وتجميد الخضر، وتصنيع العلب، وهل الزجاج أفضل أم الصفيح.

وتمادى حسنى فى أكاذيبه، فنسج مشروعاً صديقاً للبيئة ونباتاً نظيفاً من المخصبات، ومعملاً حديثاً جداً للهندسة الوارثية، كل ذلك هناك حيث يقبع الحلم القومى دون حراك. انبهر الجميع، وتحول حسنى إلى بطل.

صمتت الألسن وأغمضت العيون. هو دعم أكاذيبه بأوراق.

مجرد أوراق لا تساوى شيئا، لكن الجميع تعلقوا بها تتويجًا لأحلامهم، أو بالدقة لأوهامهم.. فاكسات - مصطنعة أرسلها له من باريس صديق قديم. تحمل أرقامًا وأسماء وأوهامًا لا حدود لها. وهو يتداولها فى سرية مصطنعة مع رجال بنوك ومسئولين كبار.

وعندما نضجت الأكذوبة.. جمع كل ما تبقى. ودس مجوهراتى فى حقائب الأولاد، وأفرغ خزائن القرى السياحية من إيرادتها، وتخلص من المصنع أمام الجميع، باعه لأنه يريد أن يتفرغ للمشروع الكبير. ترك القرى حطامًا بعد أن ظل لأشهر عديدة يستنزفها ويثقل صدرها بديون متراكمة.. وأخذ الأولاد وذهب.

وبقيت وحدى لعدة أيام. أرتب ما يجب أن ينهى كل الترتيبات.

اكتشفت فى نفسى مواهب عديدة. لم أكن أعرف أننى أعشق المال إلى هذا الحد المسعور.

أقنعت نفسى أن الإقامة ستمتد هناك ربما طوال العمر، ومن يضمن ماذا سيحدث؟ فالغطاء يجب أن يكفينا ويكفى الأولاد، وربما أولاد الأولاد.

أصبحت مسعورة فعلا، أعترف لك بذلك. كنت مندهشة من براعة حسنى فى الكذب، فإذا بى أتفوق عليه، وتفوقت عليه فى الخداع، وفى القدرة على تسييل كل شىء إلى جنيهات، والجنيهات إلى دولارات، والدولارات تندفع نحو الأنبوب المتجه إلى باريس.

حتى الفيلا والعزبة.. بحزن شديد وفى تكتم شديد بعت العزبة وفيلا سمسمة، وهكذا فقدت آخر ما يربطنى بالماضى، وبالحاضر.

نسيت نفسى، تلاعبت بالجميع، وكلما تلاعبت بهم ازددت إعجابا بنفسى وبمقدرتها.

أفرغت كل طاقات الفيزا والماستر كارد والأميركان اكسبريس.

منحت مدير أحد البنوك الذى تلقى رائحة بأننى بعت أسطول سياراتنا مخدراً جميلا.

زرته ومعى مجموعة من الحلقات التى يقيسون بها الخواتم استعرتها من جواهرجى اشتريت منه ما أدهشه من كميات المجوهرات، قلت للمدير إننى مسافرة فى جولة مع حسنى والأولاد، نستريح، قبل أن ننطلق أنا وهو نحو توشكى. طلبت منه أن يحدد قياس أصبع المدام كى أشترى لها «سوليتير» ابتهجت ملامحه عبر ممانعة خجولة. فى اليوم التالى أحضر مقاسين، البنت تريد هى أيضا واحداً، قبلت برضاء. السافل غازلنى، ومنحته أملا.. ترى من هو الأكثر سفالة أنا أم هو!

والغريب أننى ساعتها لم أهتم بمن هو أكثر سفالة، فقط تركز اهتمامى فى أنه ابتلع الطعم، وصدق أننا بحاجة إلى أكبر قدر من التحويلات لنقنع شركاءنا الأجانب بأكبر مساهمة ممكنة. وأمر بتحويل كامل حسابى للخارج، تركت فقط بضعة دولارات.

بعت كل شىء.. كل شىء، وفى هدوء سافرت.

وباستمتاع شديد، وفيما أتمدد فى مقعد الدرجة الأولى فى الايرفرانس، صممت أن أفتح زجاجة شمابنيا كاملة وسط دهشة المضيفات، قلت لهم بفرنسية متعثرة.. أريد أن أحتفل بانتصار كبير.

وعندما أتت باريس ألقيت بنفسى فى أحضان شريكى، تنافسنا فى أداء المهمة، كل منا تفوق على الآخر، بل تفوق كل منا على نفسه..

وها أنذا، هنا فى الغربة الممتدة، لا أدرى حتى متى.

بضع مئات من ملايين الدولارات أغنتنا عن كل شىء، مصر، الأقارب، الأصدقاء، الدفء، الحنان، الحب، وأنت. هل نحن حمقى أم واقعيون؟ كم هى موجعة هذه الواقعية.

الأولاد انطلقوا فى حياتهم الجديدة، وكذلك حسنى. أما أنا فلم تزل أنت شوكة فى حلقى. أنا آسفة لهذا التعبير. لكنه حقيقى. مع كل قطعة بهجة أحس بنظراتك تؤنبنى، أحلق بعيداً ونظراتك الغاضبة توجعنى.. الآن، أتذكر تلميحاتك الحانية، وتعليقاتك الساخرة فى حزن وأنت تمنحنى ومن بعيد جديد إحساساً بأنه يتعين علىّ أن أغير نظرتى إلى المال.

وإلى قدرته على التحكم فى الإنسان. ولعل من حقك أيضا أن أقول لك إننى وشريكى قد أصبحنا أكثر قرباً، فجأة ذاب كثير من الجليد، هل هى حاجة المغترب؟ أم إحساسى بأننى أصبحت مثله وأسوأ؟ فى أيام سابقة كنت أنظر بقدر من الاشمئزاز لتصرفاته.

تجاوبى السافل مع مدير البنك كان القمة. وكان بداية المنحدر، بعدها اكتشفت أننى لا أستحق قطرة من الاحترام. ولكننى وياللغرابة لم أندم. وكأننى مستعدة أن أكررها إن كان ذلك ضرورياً.

نسيت الآن بيت شعر لأبى العتاهية يلوم الإنسان إذ يرهق نفسه كى يجمع ثروة يصبح هو نفسه عبداً لها.. [أرهقنى البحث عن هذا البيت من الشعر وأخيرا عثرت عليه.. هل تريدين الاستماع إليه، أم الاستمتاع بتحديه؟

علي أية حال أبو العتاهيه قال:

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه

تملكه المال الذى هو مالكه]

.. والآن يا سيدى

أعرف أنك لن تغفر لى. ولن تسامحنى. وأنك ستغلق أبوابك تماما فى وجهى. فقط أرجوك لا تنسَنى. اذكرنى حتى ولو بغضب، لأننى أحتاج هنا - وسط جليد الغربة - إلى الإحساس بأنك تذكرنى، بأن شيئا ما يربطنى بمصر، وبكل ما حدثتنى عنه من قيم لا أستحق الانتماء إليها.. أتمنى أن تذكرنى، وأتمنى أكثر ألا تحتقرنى، أعرف أننى أستحق احتقارك، ولكن أرجوك ألا تفعلها.

نسيت أن أقول لك.. إذا كانت الأوراق التى كتبتها عن ضيوف سهراتنا - آه.. كم أشتاق الآن إلى هذه السهرات - لم تزل معك، قلت لى إنك احتفظت بصورة منها.. أرجوك أن تنشرها. انشرها

على الملأ. هم يستحقون أن يحتقرهم الناس كما يحتقروننا. كانوا شركاء فى كل شىء. والأستاذ «الحكومة» نال الكثير مما أخذنا هو وكبار المنافقين، افضحهم فهم يستحقون.

والآن.. لا بد أن أتوقف. أطلت كثيراً. عندما بدأت كنت أريد أن أقول كلمة واحدة. لم أجد الجرأة أن أقولها حتى فى زمن الاقتراب الحميم. الرسالة تمددت. فاغفر لى. وامنحنى بعضا من مساندتك حتى لا أسقط أكثر..

سمسمة

بلا مبرر منطقي أو غير منطقي.

وبلا قرار مسبق. اندفع عبر الطريق الصحراوى إلى مارينا.

استعاد مقدرته القديمة، أن يزيح من عقله كل شيء، وأى شيء، أن يفرغه من كل الهموم، أو ما يحتمل أن يستثير البهجة، السيارة تندفع بلا حرص. فقد رخصة القيادة فى النصف الأول من الطريق، تناول بدلا منها إيصالا أوشك أن يفقده فى النصف الثانى.

عندما اقتربت منه مارينا اكتشف أن الشتاء قد فرض سيطرته عليها. احتلها جواً وبحراً وأرضًا. غيومه وأمطاره ولسعاته احتلت المكان الذى يفيض بالحياة المرحة لأسابيع معدودة.

لم ينحنِ كالمعتاد نحو مسكنه، اتجه مباشرة نحو مرماه. على الطريق الأسمنتى ترك حذاءه. هناك أيضا شراب يجب أن يخلع، وبنطلون يجب أن يطوى عدة مرات كى لا يطاله رذاذ الرمال المبللة دوما بصخب الموج الممتلئ بغضبه الشتوى.

طوى الرمال عشرات المرات. مشى متمهلا. الشمس تطل فى خجل ربما لتطمئن أنه موجود ثم تعود إلى مكمنها خلف أستار السحاب.

مشى.. أسرع.. تباطأ، كان عقله خاليًا من كل انشغال. خيل إليه أنه مرتاح البال. لمح فى خط الأفق صفوفًا من طيور عائدة من

رحاب الدفء الموحى بالتكاثر إلى براحها الجليدى هناك فى الشمال. أحس بقلبه، قلبه الحقيقى وليس تلك العضلة المتحركة دومًا، أحس به يتسلل بعيدًا ليطير مع السرب العائد نحو الجليد، فيعود معه، كما كان جامدًا متجمدًا.

مشى حتى أوشك أن يشعر بالتعب، وجد نفسه قريبا من حاجز الأمواج الصخرى، لم يشعر بأى حنين إلى جلساتهما الحانية، ولا إلى أمواج شعرها التى كانت تضفى جمالا على أمواج البحر، اقترب.. تلامس مع الحاجز. الآن فقط أدرك لماذا كان اندفاعه إلى مارينا.

من جيبه أخرج كل ما يخصها.. رسالتيها، قلمها الذهبى، علبتها الفضية، قبل يودعها بين الكتل الصخرية للحاجز فتح العلبة، وجهها الباهت القديم، عيناها المفعمتان بالجوع توسلتا إليه.. قالتا له لست أنا التى تستحق، بل هى، هى التى تخلت عنى وتركتك.. دعنى أنا معك أنت، ودعنا نحن الاثنين نتخلص منها هى.. أخفى الصورة فى جيبه، وأودع وديعتها بين الصخور.

بمارينا أتت، وبمارينا تذهب.

وفيما كان يتجه نحو حذائه، أمطرت. البلل منحه انتعاشا، تصور أن مارينا تأبى له إلا أن يغتسل مما كان..

وفيما كان يطوى الطريق عائداً، كان يطوى ما تبقى من قلبه، يطويه بإحكام، يغلقه، يحكم إغلاقه. يتناساه، بل ينساه فعلا.

ويعود. فيعود كما كان قديما، خاليا من أى عطر. جافا، خاليا من أى شوق. أو اشتياق.

المحتوى

- الإهـــداء 3
- إيـضـــاح 5
- السكن فى الأدوار العليا
  ٤ حكـايات عن الـروايـة 7
- الـبـصـقـــة 101
- رمـــــال 181